ستراتيس تسيركاس

مدن جامحة

الجزء الثاني

آريــــــان

ترجمها عن اليونانية: **خالد رءوف**



المركز القومي للترجمة

2541

سلسلة الإبداع القصصي



ستراتيس تسيركاس ولد فى القاهرة (1980-1912): روائى يونانى كبير، قضى شطراً كبيراً من حياته فى مصر التى شكلت جزءاً أساسياً من عوالمه الروائية.

"مدن جامحة" عنوان ثلاثيته الشهيرة التى كُتبت أجزاؤها على التوالى فى سنوات: 1961 ، 1962، 1965.

وهذه الثلاثية عمل روائى تجريبى، تقع أحداثه فى أورشاليم والقاهرة والإسكندرية وأثينا وباريس، خلال الفترة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ثم بعدها بقليل. والعمل - كما يقول صاحبه - لا يعد رواية تاريخية، هى رواية من الخيال الذى يأخذ أدواته من هنا وهناك، لكنه يستخدمها بطريقته.

ترجم صموئيل بشارة الرواية الأولى من الثلاثية "مدن جامحة"، وراجعها وقدم لها نعيم عطية فى دار القاهرة 1998، ويسعد المركز القومى للترجمة أن يقدم ترجمة الجزء الثانى والثالث، وهذا هو الجزء الثانى.

مدن جامحة

الجزء الثانى

آريان

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2541
- مدن جامحة (الجزء الثانى): آريان
- ستراتيس تسيركاس
- خالد رءوف
- اللغة: اليونانية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:

ΑΚΥΒΕΡΝΗΤΕΣ ΠΟΛΙΤΕΙΕΣ

ΑΡΙΑΓΝΗ

ΣΤΡΑΤΗΣ ΤΣΙΡΚΑΣ

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مدن جامحة

الجزء الثانى

آريان

تـــألـــيــف: ستراتيس تسيركاس
تــرجـــمــة: خـــالـــــد رءوف



2016

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

تسيركاس، ستراتيس، ١٩١٢ - ١٩٨٠ مدن جامحة

مدن جامحة (الجزء الثانى) : آريان / تأليف : ستراتيس تسيركاس؛ ترجمة: خالد رءوف - القاهرة:

ط١ - القاهرة - المركز القومى للترجمة، ٢٠١٦

٣٨٨ص : ٢٤سم

المحتويات : آريان.

١ - القصص اليونانية

٢ - القصص التاريخية

(أ) رءوف، خالد (مترجم)

(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٥٣٠١ / ٢٠١٥

الترقيم الدولى (978-977-92-0483-3)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تنبيه

من الإصدار الأول

مدن جامحة كان من البداية عنوان هذا العمل التجريبي، الذى تقع أحداثه فى أورشليم والقاهرة والإسكندرية وأثينا وباريس والقاهرة فى الفترة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية وبعدها بقليل. لكن فى أيامنا هذه، حياة السكندرى المنقسمة لا تدعك تقوم بخطط طويلة الأمد وتقدم الوعود. وهكذا جاء الجزء الأول الذى كان عنوانه «المنتدى» متكاملا على الأقل بالشكل الذى يعطى للكاتب حصانة اتقاء الاتهامات، أنه فرضًا لأسباب تتعلق بالنشر لم يعطِ معلومات صحيحة.

فكرة أخرى كان قد صدَّر بها أراجون روايته «أسبوع الآلام»: «هذا العمل لا يعد رواية تاريخية. أى تشابه بين الشخوص التى عاشت فى تلك الفترة، وأى تطابق بين الأسماء والأماكن والتفاصيل، لا يمكن إلا أن يكون محض مصادفة، والكاتب يتنصّل من تلك المسئولية باسم «حقوق الخيال غير المعلنة». فى النهاية أظن أن التعريف الكلاسيكى لمصطلح رواية يقول الشيء نفسه وبشكل أكثر اقتضابًا.

"لأن الدهاليز من قاعة إلى قاعة، والممرات من فناء إلى فناء، على الرغم من أنها كانت معقدة بشكل مبالغ فيه، فإنها أثارت إعجابنا بشكل لا يوصف، بينما كنا نمر من أى رواق إلى القاعات، ومن القاعات إلى الدهاليز ومنها إلى قاعات أخرى ومنها إلى أفنية أخرى. جمال كل هذه الأماكن فى المبنى كان من نفس الحجارة، بينما هذه الجدران كانت مليئة بالمنحوتات"

هيرودوت II ١٤٨

"ولكن يتعيّن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار إلى أين نتوجّه،

وليس حسبما تريد آلامنا وأطفالنا الجائعون.

وصَدْع دعوة الرفاق من على الشاطئ الآخر."

يورغيوس سيفيريس

مقطع من قصيدة: (رجل عجوز على حافة النهر)

(١)

كنا أنا والرقيب ميخائيل ساريذيس، خلف الجيش الثامن بمئات الأميال، أسرعنا فى هذا الاتجاه فى يوم الأحد ١٣ ديسمبر عام ١٩٤٢، كى نلحق باللواء الأول للجيش اليونانى لنتبعه قبل أن يعرج نحو الساحل الغربى عند الرمال المتحركة. كان روميل يتقدم باستمرار، ولكى يتفادى ملاقاة مونتجومرى كان يلجأ دائمًا إلى المراوغة فى تحركاته؛ كانوا يتحركون بالأعلام مما يذكّر كم كان البدو على حق قبل ستة أشهر عندما سمّوه ثعلب الصحراء. لكننا كنا نسير ببطء. فلا خبرة ميخاليس الميكانيكية ولا أعصابى استطاعتا أن تدفعا المركبة التى كنا نستقلها أكثر من مائة ميل فى اليوم. كان مذهلا كمّ دِلاء الماء التى التهمها هذا الصندوق الغجرى الذى كانت هيئته ولونه أشبه بضفدع والطريقة التى يسير بها أشبه بسلحفاة. قال ميخاليس "لو أن مهندسى الميكانيكا فى ميلانو أعطوا عربات كثيرة مثل هذه الخردة لموسولينى من أجل المتمردين لكان وسام المقاومة السلبية من حق عمال شركة فيات".

كان البحر الأبيض المتوسط على يميننا فى أبهى حالاته. منذ أول أمس والجو بديع وإن كان الحلفاء قد أشاروا فى نشراتهم إلى سوء الأحوال

الجوية فى تونس كى يفسروا تعطلهم فى التقدم. أخذت الدلو أكثر من مرة وذهبت نحو حافة الطريق كى أحضر ماءً من البحر. لكن ميخاليس كان يستوقفني: "الأمر ليس كذلك يا سيميونيذيس، لا بد أن تفهم! بعد نصف ساعة سيكون برَّاد هذه السيارة قد تلف تمامًا". كانت السيارة غنيمته من العلمين. كان هو من غيّر لها المكابس، رقّع إطاراتها، أصلح إطارها الإضافي، وهو أيضًا من استخرج لها دفترًا كى تكون على ذمة اللواء، وبفضلها أسير فى طريقى الآن عابرًا كل نقاط التفتيش التابعة للحلفاء، وأنا أغوص فى صبرى النافد حتى أصل إلى الجبهة كى أجد نفسي. تعطيل الرفاق لى فى أورشليم حرمنى من الوجود فى معركة العلمين. لحسن الحظ بعد اتصالات عديدة وجدت ميخاليس. فقد قال لى "أريد أن أذهب إلى هناك. لذا أمعن فى إصلاح تلك الملعونة". دار هذا الحديث فى مرسى مطروح تحت حواف العشب على جانبى الطريق المؤدّى إلى الملاحات، "لكن من الأفضل أن ترتدى كتافاتك وخوذتك. الحلفاء ليسوا مثلنا؛ إنهم يحترمون الضباط. يحتاج الأمر لقدر من الخداع. سأقوم أنا بدور سائقك وسيظن هؤلاء أن سيارة الليموزين خرجت لتوها لتنقل حضرة الملازم إلى الجبهة".

فى البداية لم يكن يترك لى عجلة القيادة أبدًا. "ستتلفها بقيادتك العصبية. عجلة قيادة هذه العربة يلزمها عطف ومودة فى التعامل لكنك تتعامل معها كأنها إطار لدفٍّ. إذا كنت متعجلا فاصعد إلى أى من الحلفاء الذين يشيرون لك". وفى الحقيقة، البولنديون والإنجليز والأستراليون والفرنسيون الأحرار فى سياراتهم وعرباتهم وكل الناقلات من كل الأنواع، كلما رأونا منحنين على موتور الفيات يتوقفون ويعرضون أن يقلّونى معهم.

لكن ميخاليس كان يعرف أننى لا أستطيع. كان الأمر يحتاج إلى مزيد من الوقت كى نقنع أحدًا منهم. أما أن أركب هكذا بشكل عشوائى أول سيارة تظهر أمامى وتعرض المساعدة سيكون جرأة مفرطة. فى النهاية عندما أدرك أنه إذا لم نُسرع ليلا لن نصل أبدًا إلى اللواء، ثم راح يفاصل ويقايض، وعدته بكل شيء. ترك لى عجلة القيادة ليس أكثر من ساعة كى يلقى برأسه للخلف وينام.

كانت الليلة بلا قمر، لكنها مليئة بالنجوم. الرمال البيضاء حولنا مثل الطباشير الجيرى ويفصلها الطريق: شريط أسود لا نهائي. عندما كنا نلحظ سيارة قادمة كنا نضيء الضوء الأزرق الخافت حتى لا تصطدم بنا، بينما خلفنا كانت هناك لمبة صغيرة مضيئة على الدوام، صغيرة مثل شعلة سيجارة كإشارة تنبيه للمتعجلين. لكن البرد كان يعذبنى وكذلك النعاس. لست متأكدًا لكن ربما تكون المرة الأولى التى أنام فيها وعيناى مفتوحتان وأنا أقبض على عجلة القيادة. بجوار الفيات كان أحد حملة الصليب ضخم الجثة يسير بخطوات سريعة يجر خلفه درعه وحقيبته على الأرض. ثبّت عينيه فوقى ورفع سيفه بعناية بيده اليسرى. كنت قد رأيت هذا الدرع معلقًا على مدخنة أحد الأبراج التى بناها فرنسى غريب الأطوار من الإسكندرية فى الصحراء، ويقع قبل العلمين بستين كيلو مترًا تقريبًا. كانوا قد أوصلونى بفرنسى آخر كحلقة وصل، كان أحد كبار المصابين من (بير حكيم)، كان سيذهب بى إلى أقرب نقطة نحو الحدود. وجدته يجلس على مقعد جانبى فى قاعة المناسبات يتلذذ بكل دقيقة من أيامه وساعاته الباقية له فى الحياة. رفع عينيه الثاقبتين على الدرع ثم نزل بعينيه على صليب (جوانا) الذى كان

يزين رخام المدفأة: "ماذا تظن يا رفيق. إننا صليبيون. لكن الغرض هذه المرة هو مقدس بالفعل". قلت له إننى جئت من أورشليم. «يا له من طريق، يا له من طريق"، قال حالمًا: «قبل سنوات قليلة كنت أساسيا فى السلاح الملكى لشارل موراس. لحسن الحظ الجورنيكا. لا أعنى المعركة، لكن لوحة بيكاسو الرسام الإسباني". هززت رأسى مشجعًا حتى لا أقاطعه. ابتسم لى برضًا لمّا شعر أننى أفهمه. هكذا نحن المثقفين. نحتاج من حين لآخر تجربة قوية حتى نشعر بجوهر الأشياء. انتصاركم فى اللوفر. هل تذكر أجنحتها المقطوعة؟ من هنا، من على هذا المقعد سمعتهم يزلزلون قواعد العالم بأجنحتهم. كانت الساعة التاسعة وأربعين دقيقة فى ليلة ٢٣ من أكتوبر، والثمانمائة مدفع فى العلمين. «صمت». لماذا أقول لك هذا؟ حرارتى مرتفعة. من الأفضل أن نستمتع باللحظة التى تنزلق مثل الرمال من الساعة الرملية. «رفع البرتقالة التى كانت فى يده وشمها بعمق وورع».

بينما كنت أعانى كى أتذكر اسمه اهتز ضميرى بشدة وخرجت من حالة التخدير. من حينها كلما سمعت صوت زحف المدرعات: كنت أصرخ غاضبًا «مانولي، هل نمت ثانيةً»، فاستيقظ.

هذا هو، فى ليلتى الجمعة والسبت. يوم الأحد جاءنا الصباح بالقرب من برقة بين دارنا وأبولونيا. هرولنا نحو الطريق الإسفلتى الواسع، على حافة ساحل وعر بينما على يسارنا كانت القمم المائلة للجبل الأخضر. وفجأة امتلأت كابينتنا بالدخان ورائحة الزيت المحروق. لحسن الحظ كان ميخاليس هو الذى يقود السيارة. صفَّ السيارة على يمين الطريق بجوار

أطلال بيت صغير تحت شجرة صبار برية. أغلق الماكينة. نزلنا بسرعة وفتحنا غطاء السيارة. قال ميخاليس «هذا ما كنت أخشاه»، وصرخ فى أطفال البدو الذين جاءوا هرولة « يا لَهْ، روح!». فوقف الأولاد على مرتفع يراقبوننا فى صمت.

- هل تعلم ماذا ستفعل، قال لي. ستجد ركنًا بين هذه الأطلال وتشعل نارًا لنصنع الشاي. سيقتلنا الجوع منذ الأمس. بعد ذلك إذا أردت نم. أو إذا كنت ترغب انزل نحو البحر واستحم. أنا لدى عمل كثير لخمس أو ست ساعات، لكن لا أريد مساعدتك. إذا بقيت ستثير أعصابي.

- خمس لست ساعات؟ قلت بإحباط. قضية خاسرة.

- ما رأيك؟ وَعَدْتُ أحد الرفاق أن أحضر له زورقًا لأن مدفعه بات يتيمًا، ولقد عزمت وسأفعلها، وليذهب كل شيء إلى الجحيم! لنصل أولا إلى بنغازي. هناك سنجد قطع غيار لا محالة.

لم تكن لديه رغبة فى الحوار. أعددت الشاى وأتيته به. خرج من تحت الفيات متجهمًا وغاضبًا، وكما كانت يداه متسختين من الزيت، أمسك بقطعة من البقسماط وغمسها فى الشاي. تركته وبدأت أنزل بحذر نحو الشاطئ.

فى منتصف الطريق جلست على صخرة وأشعلت سيجارة. البحر كان يتنفس بهدوء، تحت أشعة الشمس الذهبية كان البحر يأخذ لون أشعتها الخضراء والزمردية. بدا لى أن طيور القنبر تغرد؛ ليتها كانت طيور القنبر! تبدو الصخور من بعيد وكأنها شكلت نصف دائرة. رأيت زوجًا من النوارس

يحلق؛ ثم بعد ذلك سلكا طريقهما بعيدًا فى البحر الذى استحال لونه إلى الأزرق القاتم.

يتنهد البحر الشتوى من تحتى فيخرج زَبَده على الصخور الملساء اللامعة على الشاطئ.

«لماذا يا مانوس، لماذا؟». من يشكُ منى بهذه المرارة؟ ماذا أريد وعمّ أبحث؟، وماذا أطارد على هذه الشواطئ بقشورها المرمرية المنتمية لعالم آخر؟ هل سأجد نفسى مرة أخرى إذا لحقت بالسرية؟ لكن السرية كانت أمامى أو خلفى أم ضيعتها؟ هذا الشغف الذى يجيش بداخلى وتلك الوعود السرية التى يومًا ما سأكتبها فى كتاب أو اثنين «لكى تبقى»، كيف حدث وتخليت عنها؟ وكأنى أرفع الآن سيفًا بين السريات الصليبية - متأخرًا، ممزقا، عديم الفائدة ! لماذا عديم الفائدة؟ هل كان على حق هذا الرجل الضئيل التافه الذى قال إن مكانى لا بد أن يكون أمام الآلة الكاتبة أدق على مفاتيحها بلا توقف؟ فى القاهرة أعطونى نسخة من العدد الأخير لصحيفة «المحارب» التى يخبئها ميخاليس فى جيب سترته العسكرية المتسخة بالزيوت. «ما رأيك؟» سألنى عندما أعطانى إياها الرجل قليل الحجم ذو النمش الذى كانوا ينادونه فانيس. فى الصحيفة كان هناك تقرير عن دور اللواء الأول فى معركة العلمين، ونعيٌ لموتانا وإشارة إلى بطولات العساكر والضباط. مقال باردٍ ومقتضب وبسيط، ينتهى بآراء تقنع على الفور، لهذا الحد كانت موزونة وواضحة. لكن فى الصفحة الأخيرة كان أحدهم يعطى أخبارًا عن اللواء الثانى من فلسطين. هراء مرتبك، قليل من الأخبار، قليل من المقال،

يوميات بالأوامر وتحتوى على نبرة حماس متحفظ. استطعت التعرف على غرغرات الضئيل التافه. كان فانيس جالسًا أمامى ينتظر متنهدًا يصفّر بالطريقة التقليدية كما يفعل ممارسو الاسترواح الصدري. نظرت إلى أصابع كفيّه المترهلة التى تغذى عليهما السل وقد شبكها على سطح المنضدة المرمريّة. قلت له رأيى وسردت له الإيجابيات والسلبيات، وأضفت أنه بما أن الصحيفة لم تعد تصدر فى أورشليم، فإن مقالات كهذه ستنقرض شيئًا فشيئًا. ضحك فانى عاليًا فامتلأ وجهه اللامع بتجاعيد صغيرة فكان أشبه برجل عذبته الحياة؛ لا بد أنه كان صيادًا فى جزيرته الصغيرة أو مزارعًا. قال وبدت الجدية فجأة فى عينيه «لكنك لا تطيقه على الإطلاق». لقد تحدثت دون أن أذكر أى أسماء. خلافاتى مع الرجل الضئيل التافه تحدثت فيها مرة أو اثنتين من غاريلاس. لا بد أن فانيس كان على علم بحواراتى معه لكى يفهم عمّا أتحدث بهذه السرعة. قلت له «سامحني، فأنا أتحدث عمّا أرى أمامي. هذه الكتابة هى محض نشاز، فبعد هذا الهراء والحديث المتواضع عن التضحيات التى يصفها فى أول مقاله يعطيانى الانطباع بأنه كرجل تسلق إلى مكان، ويتكلف لكى يصوغ كلماته ويضغط على نفسه كى يقول كم أنا صغير. يسرف فى الكلام، كأنه رأس مقطوع يثرثر لكن ليس له أى مبادئ»، قال لى فاني: «انتبه، ربما لديه مبادئ لكن لا يعرف كيف يعبر عنها. ليس لدينا جميعًا مستوى تعليمك». قلت له: لا تبتعد عن الموضوع، لكن كما تقول، كما تتكلم وتكتب، هذا هو أنت ليست فى هذا الأمر أحكام مخففة.

الأسلوب هو المعيار الوحيد الصائب لموقفك أمام الآخر وأمام البشرية. فيبدو منه مدى اهتمامك به ومدى احترامك له؛ ومن هنا يتضح كل شيء. «انظر إلى حالة ماكريانيس..» قاطعنى فانيس «أعرفه، كنا نقرأه فى السجن»، فى النهاية اضطر للقبول رغمًا عنه وبحزن شديد ومن وراء قلبه أنه نعم، فبين الحين والآخر هذا الشخص القصير التافه يسعى أن يبدو أكثر طولا وأكبر حجمًا من حقيقته : «وحينها يسير على أطراف أصابعه، لذلك يبدو عليه العرج أثناء السير».

كنا سنسهر معًا تلك الليلة، لكن وجب عليه أن يغادر إذ كان سيقابل أحد السياسيين المغتربين فافترقنا. لم يكن لدى مزاج أن أتركه. وإن كنا نتحدث قليلا. لكنه كان يسمع ويسأل ويتردد ويزن تساؤلاته ثم يسأل مرة أخرى، وهكذا دون أن يفهم شيئًا، كان يدخل ويخرج ويصطحبك معه إلى الطريق الصحيح. دون أن يُصرّ- يضغط على أسنانه وبلا أسباب. على أية حال كان دائمًا فى النهاية يتشاجر مع حاله ثم يبدأ فى الصفير فى برد الليل. استحضرت فى ذهنى تمثال برايمي؛ فتوقفت شاردًا فى وجه الأوبرا الرمادي. تذكرت أبى الذى جاء إلى هنا وهو شاب، وقد شاهد عرضًا مسرحيًا لـ «إليونورا دوزي». كيف كان يقلد أجزاءً منه وتعبيرات وجوه الخيالة فى حرس الخديو! ثم هذيان الطليان والشوام واليونانيين عندما حلوا رباط عربة البريمادونا وجروها حتى الفندق الذى لم يكن بعيدًا. الهتاف والصياح والورود كانت تقع تحت أقدام الخيول. لم يتغير شيء. ها هو المدمر من موريا كافالا يعيدنا إلى الأوبرا؛ إلى أحواض شرب المياه المبنية للخيول والعربات المبتذلة، أصوات خطوات الخيول المتبخترة على الحجر

مثل صوت حبة الخرز فى المسبحة يقطع صمت الصبر؛ النسيم الآتى مع رائحة الورد الذى يمر على حوض المياه الراكدة من بعيد، خبيث ومتشيطن من السباخ وأشجار التوت والتين فى الأزبكية... تخلصت من جنديين إنجليزيين وهما فى حالة سكر شديد عندما طلبا سلفة من المال، وذهبت إلى فراش كان ينتظرنى عند زوج من العجائز. توقفت فجأة متسائلا، هل كان فانيس هو من أقنع الرفاق فى فلسطين أن مواقفى وآرائى تجاه الضباط كانت صحيحة؟ لكن هل كان منذ ذلك الحين فى القاهرة؟ أعلنت عن موقفى وآرائى فى شهر فبراير وجاءت الإجابة فى شهر يونيو؛ حينها أعلن إلي الضئيل التافه أنه قد تم تبنى هذه الآراء وبناءً عليه ألغى القرار. أربعة أشهر استغرق الأمر حتى يصل إلى القاهرة إلا إذا كان الضئيل التافه قد تعمد أن يؤخر الأمر. قلت لنفسى ربما. خياله وصوته ورائحته أظلمت الأفق لديّ.

قابلته مرات أخرى، وفى إحدى المرات طرحت له موضوعى الخاص: الآلة الكاتبة أم الجبهة؟ راح ببطء وبصوت خفيض يسرد احتياجات كل قسم. وفى كل مرة كان يضم أصابعه: «انظر الآن ماذا يمكنك أن تفعل أنت»، فكرت قليلا وأجبته. ودون أى تأخير وأوكل لى مقابلة فى الإسكندرية: «اقض معهم نحو أسبوع فالرفاق فى البحرية يريدون أن يصدروا صحيفة لهم. اشرح لهم كل ما تعرفه ثم غادر بما أنك تريد هذا كثيرًا». ودعته وكأننا سنتقابل غدًا. لكن عندما انحرفت عند زاوية الشارع صاح نحوى قائلا «الخلافات التى بيننا والحوارات لا بد ألاّ يعلمها الآخرون يا رفيق، اتفقنا؟»، أجبته «بالطبع لا». ثم قال لى «خطأ كبير». أجبت «نعم، سيكون من الأفضل لى ألا أفعل، كما أنه لن يثمر عن شيء». فى الواقع لم أكن

أفهم لماذا، إلا أننى اضطررت أن أشرح له تفاصيل الأمر. ولكى لا نقف فى منتصف الشارع، دخلنا إلى أحد المقاهي. راح فانيس يرشف شراب المريميّة بصوت عال، مد لسانه ونظر فى عينى ثم قال: «إن بعض ما تقوله هو كلام جاد للغاية. لكنه يفقد قيمته لأنه صادر من شخص مثلك، أعلم أنك لا تطيقه لكن الأمر فى حاجة إلى شواهد أخرى»، ماذا عساى أن أقول له؟ «قوموا بتحقيق فى الأمر، وإذا اتضح أننى متحيز اتخذوا الإجراءت ضدي». أغمض عينيه متأملا ثم قال: «لدينا أشغال أخرى يا صاح. ليس هذا هو الوقت المناسب لمثل هذه الأمور. ثم إن الأمر سوف يحتاج إلى اجتماع ليتم اتخاذ قرار، لابد من إبلاغ الشخص المعنيّ. على أية حال آجلا أم عاجلاً سيتضح الأمر أمام المعنيين إذا كان لنا عمر». صمت. ثم قال عليك أن تذهب الآن حتى لا تضيع موعد القطار. لكن فى الإسكندرية صار الأسبوع شهرًا. كان دائمًا ما يحدث شيء معطل. قالوا لى أن أظل حتى رأس السنة. على الصعيد الآخر كان اللواء يلهث خلف روميل. غضبت فى إحدى المرات وعلا صوتي، وفى نهاية الأمر قَبلوا أن يرسلونى مع إحدى السفن المبحرة إلى طبرق. لكن الأمر تعطل أيضًا عند الفحص. فقد كان أحد الفاشيين على سلم الباخرة: « إلى أين يذهب هذا؟ تعال إلى هنا!»، كنت على وشك أن أقع فى مشكلة عويصة. بعد ذلك قادونى إلى قائد الأركان الفرنسى فى بئر حكيم الذى كان اسمه...

نسيت الوقت هناك فوق الصخور. تمددت حتى أخرج من حالة الخمول التى أصابت عظامى من الشمس. ماذا حدث لميخاليس؟ كنت أرتدى حذاء عسكريًا أصفر بنعل من الكاوتشوك وأتسلق الصخور المدببة كأننى ألهو.

وصلت بسرعة إلى الطريق الإسفلتى عبر طريق الصخور الذى سلكته. لم يكن ميخاليس موجودًا. صحت عاليًا مناديًا إياه. أجابنى من بين الأطلال «تعال، أنا هنا أستريح قليلا».

- لمَ تستريح الآن؟ هل تخزن قواك من أجل الزواج؟ قلت له هذا ثم ندمت على الفور لأن فى مرات أخرى عديدة كنت أنا من يطلب الراحة.

- دعك من الهراء، ثم قال. لن ننجو من الذهاب إلى بنغازي. بل السيارة فى حاجة إلى تغيير. سأقفز مع أحد الميكانيكيين لدى الحلفاء وفى طريق العودة سأحاول مع سيارات الإسعاف أن تأخذنى فى طريقها.

- قلت له، بنغازى تبعد مائتى ميل عن هنا. سوف تتأخر. ناهيك عن أنه ربما تعلق بمشاكل، وسنقع فى مأزق.

- لا تقلق، سأنجز الأمر. سأكون هنا قبل أن يحل الليل. ماذا ستفعل أنت؟

فكرت فى الأمر مليا ثم قلت له «سوف أنتظرك هنا».

- قال حسنًا. هذا أفضل شيء تفعله.

- لماذا لا نطلب من أحد هؤلاء أن يجر عربتنا إلى هناك؟

- هل جننت، فور أن يفهموا أن السيارة فى حالة بائسة سيلقون بها إلى ساحة الخردة.

فى الحقيقة، عند الشاطئ فى الجزء الذى على شكل «حدوة» حصان كانت هناك كومة هائلة من السيارات القديمة متروكة للصدأ.

نزل ميخاليس إلى البحر وراح يفرك جسده بحجر الخفان البركانى كى يزيل الزيوت من على جسده.

ارتدى ملابسه مرة أخرى، غطى رأسه بوشاح الصحراء، وضع خوذته تحت إبطه وانتظر حتى تمر أى عربة من سيارات الحلفاء. لكنه تأكد أولا أننى أحمل بطاقة الهوية معي.

ـ قلت له، أيها الأحمق، أراك تنعم اليوم بنوم دافئ بينما أنا سأموت من البرد وحيدًا.

ـ فقط انتبه، قال لي. لا تشعل نارًا بعد غروب الشمس حتى لا نقع فى مصيبة، فمطارات جزيرة كريت ليست بعيدة عن هنا.

ـ أجبته: بالطبع سيدى الضابط.

ـ قال: افعل ما أقول لك.

مرت شاحنة أسترالية محملة بالبراميل. نادى عليهم ميخاليس «جريك، بنغازي» فأخذوه على الفور. بينما كان يقفز فى خلفية الشاحنة توقف للحظة ثم نظر إليّ ففهمت. كنت أفكر فى نفس الشيء. الشاحنة الأسترالية كان بها متسع لى أنا أيضًا، سنتدبر أمرنا. لكن من سيحرس الفيات؟ كان عليه هو أن يقرر. لو كان قد قال أو أومأ نحوى بأن أقفز على الشاحنة لم أكن لأفكر فى الأمر. لكن الشاحنة ابتعدت ورأيته يلوّح لى بتحية عسكرية تارة وتارة يشير بيده نحو الأرض يعنى الليلة.

البدو الصغار الذين حملوا الماء لميخاليس كى يحلق ذقنه، صرخوا نحوى «ماء» فأعطيتهم الدلو. ذهبوا مهرولين نحو الطريق الإسفلتى وبعد قليل عادوا بالماء. أشاروا لى بأن الماء صالح للشرب. وضعته على فمى فشعرت كما لو أن كماشة تقبض على أسناني: كان الماء باردًا للغاية. ذهبت إلي الركن الذى صنعت فيه الشاي، وجمعت قطعا من الأخشاب فى كومة بين الأحجار، وبللت الأخشاب ببنزين أحضرته من الفيات ثم أشعلت النار. «شاي، شاي» صاح الأولاد وراحوا يصفقون. قلت لهم باليونانية «اصبروا قليلا». أحضرت عدّة الحلاقة وصندوق الشاى والسكر حتى يغلى الماء. وقف الأولاد فى الجوار يشاهدون. عندما نفخت خديّ حتى تتمكن ماكينة الحلاقة كان الأولاد يفعلون نفس الشيء وينفخون خدودهم. صبوا لى الماء كى أغسل وجهي، وظلوا ينتظرون الشاي. وضعت الكثير من الشاى فى الإناء، كنت أعلم أنهم يحبونه أسود وشديد الحلاوة. كان كل منهم يرشف الشاى بصوت عال مرتين ثم يعطى الإناء لمن بجواره ثم يفرك بطنه كى يشعرنى بامتنانه.

بعد ذلك لم يتزحزحوا وصاروا يطلبون السجائر ويصيحون بعبارات لم أكن أفهمها، كانوا يرفعون جلاليبهم ويبولون حولى ويقهقهون. عندما تسلقوا الفيات غضبت كثيرًا وصحت فيهم «يا للا، روح!» توقفوا قليلا كى يتأكدوا. تصنّعت بأننى أجمع الحجارة. أرهقونى كثيرًا عند المساء ثم غادروا بكبرياء شديد. بعد قليل سمعتهم يتشاجرون عند الشاطئ ويطارد بعضهم بعضًا. راحوا عن عينى بعد ذلك، بعدها أصابنى الملل. لم أكن أرغب فى أن أظل على الطريق الإسفلتى تحسبًا أن تمر الشرطة العسكرية فى

أى لحظة ويبدأون فى كيف ولماذا. جلست داخل السيارة الفيات التى كان يخفيها البيت المتهدم. تذكرت أنه كانت لدينا جريدة سكندرية قديمة. بحثت فى جيوب الباب، قررت أن أقرأ صفحتى الغلاف اللتين تركتهما من قبل. فور أن قرأت بداية الأولى، نظرت إلى التوقيع. أم ميخاليس كتبت إليه: آريان ساريذيس. أغلقتها على الفور وأعدتها إلى مكانها.

- أول مرة ذكر الاسم أمامى صحّحته له، أرياذني.

- لا، آريان كما أقوله لك هو الاسم الصحيح، الاسم من ناكسوس مسقط رأس أمي. أحد الإنجليز الذين يسكنون فى حيِّنا أكد لى أن أمى تنطق الاسم أفضل بكثير من الكثير من المتعلمين.

- وما اسم أبيك؟ ثيسيوس؟

- لا اسمه ذيونيسيوس. لكن لماذا تضحك؟

كيف أشرح لك؟ تخيلت هذا الإنجليزى هائمًا فى أحلامه من كل تلك المصادفات الغريبة وبدا لى الأمر كوميديًا. أصلحت الأمر بعد ذلك قائلا إننى عرفت يومًا شخصًا يدعى ذيونيسيوس، وكان أنفه دائمًا أحمر اللون من فرط إسرافه فى شرب النبيذ.

- أبى أيضًا يسرف فى الشراب لكنه يفضل الأوزو.

نعرف دائمًا متى يفرط فى الشراب، إذ يصبح شريرًا ويتشاجر مع الجميع.

أبى كان يعمل جارسونًا وهو نقابى قديم، كان قد أصيب برصاصة فى فخذه عندما قاموا بإضراب ذات مرة. كانوا يعيشون حينها فى إحدى المناطق الشعبية فى القاهرة، بالقرب من القصر الملكي. أربعة أولاد وبنتان، توأمتان. الأم تزوجت صغيرة فى السادسة عشرة من عمرها.

- أقسم لك يا سيميونيذس، ليس لأنها أمي؛ إنها فى الخامسة والأربعين لكنها ما زالت تبدو صبية. كانت حبلى فى العشرين من عمرها ونجت من قصف الإنجليز بواسطة أحد المتظاهرين المصريين الأشداء. لا تستطيع أن تنساه حتى الآن.

قد بقيَ قليل من الماء فى الدلو. لم يظهر أى من الأولاد. لا بد أنهم يسكنون فى إحدى المزارع خلف الغابة. بعد قليل فتحت علبة لحم معلب وأكلت. بللت بعضَ البقسماط بماء الدلو. بدأ الهواء يسخن ويرتعش على الرمال والصخور. نعست. وضعت رأسى على الوسادة وتقوقعت على المقعد الخلفى فى السيارة الفيات. قبل أن أغط فى النوم قمت قليلا بالنقد الذاتي: «لم تحسن فعلا يا مانولى فى طرحك للأمر بهذه الطريقة إلى فاني. كان لا بد أن تسأل أولا: فعل أم فن؟ لكنك لم تجرؤ، كنت تعلم الإجابة مسبقًا. ليس هناك وقت لإجابة أخرى. لكن تلك هى حروب البسطاء التى تحتاج إلى كتاب وشعراء كى تعبر عنهم؛ كى يأخذ الجميع فكرة عن عظمة وجدية الأمر؛ وإلا فجهود كثيرة ستذهب سدى. هذا ما كان يجب أن تقوله، ربما سيحدث فيما بعد، لكن الإلزامى هو شيء آخر. ومن يمنع

أن يحدث هذا أو ذاك؟ لا أحد. وحده الإنسان هو من يستطيع أن يقوم بالأمرين بشكل جيد. لكن عليه أن يختار. تذكرت جان ريشار بلوك فى باريس، فى الفترة الإسبانية: « هناك مشكلة لا تحل تقريبًا. ما الأفضل؟ أن تعيش أم أن تصف الحياة؟ أن تلقى بنفسك فى أى شيء يمر عليك أم تقف كى تصفه؟ الأمر أكثر إثارة بكثير عندما تطارد الأحداث؛ لكن حينها كل الأشياء تجري، ولا تحتفظ بشيء. أن تقف على الخريطة، هو الطريق الوحيد كى تنقذ الزمن من الغرق الكوني؛ لكن حينها كل الأشياء تنزلق، ولا تشارك فى أى منها».

استيقظت عند غروب الشمس تاركة خلفها ريشة من اللون القرمزى فوق اللون الرمادى الذى اتخذه البحر. كانت أسراب الذباب الذهبى تطن. يتوقف ثم يبدأ من جديد. سمعت صوتًا بداخلى يقول «على العكس تمامًا». تعرفت على رنة لأثر ألمانى أم هيئ لي؟ فجأة من داخل الأطلال قفزت شعلة. تصفيق ثم ضحك. الأولاد البدو سرقوا الإناء والعدة وراحوا يصنعون الشاى بأنفسهم. كنت ما زلت أفكر فى الكلمة الألمانية. قفزت من الفيات ورحت أصيح. هبطت طائرة بمستوى طيرانها بدويٍّ عند الشاطئ فى منطقة العربات الصدئة. بدأت بإلقاء سلسلة من القنابل. لكنها كانت أصغر من بيض الكتاكيت. هرولت نحو البيت المتهدم فهو ساتر جيد. فتحت يديّ فوقعتُ ببطنى فوق أحد الأولاد. بريق أخضر، ثم صوت قرقعة فى الهواء. الهواء الذى أطفأ المصباح الممدود فى لوحة بيكاسو. كنت أعرف أننى إما مصاب أو أننى مريض. هذه الدماء والصرخات والاضطراب. كل مرة

تصيبنى الحمى يأتينى كابوس المصباح: تحرقنى الحمى، لسانى يلتصق بسقف حلقى وبعدها أتمدد، وزجاج المصباح فوق صدري. كان لديَّ نفس الإحساس فى ألبانيا والآن بالقرب من أبولونيا. وداخل قورينة القديمة. أى أرض قبر، كل أرض قبر.

(٢)

ساعى المكتب يحمل لوحة الأوسمة من الحرب الأخرى، أشار نحو روبى كى يسلك الدرب بين الشجيرات الاستوائية ليتجاوز فرع الشؤون الشرقية، ويخرج نحو الباب الحديدى الصغير الذى يطل على الضفة الشرقية للنيل. يبدو أنه فى انتظار شخصية هامة لذا كانت هناك حراسة على البوابة الرئيسية للسفارة. سَلم التقرير للملحق " أخيرًا : كم كان سيتأخر إذا قدمتموه بالحجم العادي؟". فى طريقه للخروج كاد أن يتعرقل فى الليدى طومسون. كانت متعجلة وتضع عطرًا ثقيلا: "روبرت! ماذا تفعل هنا؟ اذهب سريعًا، سيعلق سيادته لكم المشانق". سيادته هو زوجها. من الشئون المعنوية. جدير أن يلحظ المرء داخله الإحساس الصافى للأمور دون أن يتأفف. قطع العلاقات مع سيادته الأسبق، هو الواجب إلخ.. إلخ.. إلخ.

. نادته الليدى طومسون بصوت مختنق وهو فى طريقه نحو الدرج، دكتور ريتشاردز: هل لديك أية أخبار عن البائسة نانسي؟

. لا، ليس كثيرًا. لكنها تتعافى، تتعافى...

عدّل الحارس عند البوابة الصغيرة من وقفته واحمّر وجهه. شيء ما ضايقه، لكن ماذا؟ نوافذ المبنى المقابل كانت مغلقة. لم يكن هناك مارة ولا حراس ولا حتى سيارات الليموزين فى الشارع الموازى لضفة النهر. غير هذا مر أحد الحقراء الذين يجمعون السجائر حاملا صندوقا. دق الحارس حذاءه العسكرى وسلاحه على الأرض وعلى وجهه علامات التساؤل. أول دستور للأسكتلنديين بالمملكة. سبعة أشهر فى جحيم الرمال، كان يتفهمه، كان يتفهمه جدًا.

خلف المتراس المبنى كانت الضفة بحشائشها الكثيفة تنحدر بنعومة، وإن كانت تتوقف عند حدود البوابة الحديدية الصغيرة الخارجية، كان بستانيو السفارة يعتنون بها جيدًا لزوم الذوق والأناقة وما تحتاجه الدبلوماسية. لكن فى الليل، كم كانت حشية رائعة للحب. محكمة عسكرية وتوابعها. يحتاج الأمر لاثنين، واحد للمراقبة، لكن، هذا ما يفقده رونقه. وحيد؛ وحيد تحت عين الرب. يملأ سمعه بهدير النيل الخالد؛ وأصوات سائقى المراكب النيلية فى الليل؛ الزئير الباهت للمدينة الحديثة تحت أضواء الحرب الخافتة. سرت فى بدنه قشعريرة سعادة قابلة للتحقق.

هبت ريح شمالية. فى دكان جزيرة الروضة، الفلوكات ذات الأشرعة كانت تميل. باخرة نيلية كانت تفرغ حمولة كرات ضخمة من القطن. حول ضفاف الجزيرة تنعكس السماء على سطح الماء. نخيل البلح يميل ببطء والهواء يشق أوراق أشجار الكينا مثل مشط يجرب خطوطًا وفروقًا فى شعر رأس. أخذت روبى الرصيف ثانية بجوار البوابة الحديدية للسفارة،

رأت سيارة ليموزين حكومية تقتحم المدخل. حراسها كان يحملون أسلحة فى أكواخهم الخوصية. أما هو فمر من الساحة الصغيرة للناحية العكسية. وقف له البواب. بناية ضخمة بها درج رخامى وتماثيل منحنية من الجص تحمل الشرفات الأمامية. لم يصدر صوت عن المصعد عند إغلاقه وراح ينزلق مثل جناح. أخذوا له مكانًا، إذ اقتطعوا جزءًا من المنور والمطابخ لذا كان ضيقًا. كان بالكاد يتسع لرجلين واقفين. كان بيتر يقطن فى الطابق الرابع الذى كان قبل ذلك غرفًا للغسيل وللخدم لكن صاحب البناية ضمها وجعل منها شققًا للسكن يؤجرها بمبالغ كبيرة فى وقت الحرب. دقت روبى على جرس الطابق الرابع؛ تخيلت الضابط ويلسون بكرشه الضخم داخل صندوق. سوف تصعد الدرج، كانت تتباهى دائمًا بأن لها قلبًا قويًا. أعلى باب الشقة المجاورة كان هناك صليب مرسوم ملسوع بنار شمعة وصقور. كيف لم تنتبه إلى هذه الرسوم من قبل؟ لا بد أنها وضعت هنا فى عيد الفصح السابق. أدخله بيتر وأوصد الباب خلفه بسرعة. كان يرتدى (روبًا) من صوف الجمال وكوفية زرقاء؛ فى غرفة المكتب كانت مدفأتان كهربيتان متقدتان ورغم ذلك ظل البرد قارسا. الملاريا ذكرى من ميكينيس. على منضدته كالعادة قاموس يونانى إنجليزى مفتوح.

- عزيزى روبي، لديَ خبر سيئ عن كورت.

- أعرف، قالوا لى بالأسفل.

- كيف قالوا لك؟

- لم أشأ أن أسأل. لكن الخبر وصلنى بأنه مات فى أحد المعسكرات فى كينيا.

- لكن ذويه هم من قتلوه، أريد أن أقول: الآخرون، النازيون.

- لا أريد أن أسمع.

- لقد سلخوه يا روبي.

- بيتر، باسم الرب!

- سامحني. إننا نفعل ما نستطيع.

- أعلم.

- لم يقبل أن يرحل من هناك بأى شكل. وكأنه كان يطلب الموت على أيديهم.

- أعرف، أعرف، أعرف.

صمت.

- هل هناك أى أخبار من السفارة؟

- لا شيء. الدب الكبير سيعلق لى المشنقة.

- هل رأيته؟

- لا، قال لى ويلينجتون.

. هو على حق.

. ليته تركنى فى أورشليم لبرامجى وللمستمعين. هل الحال أفضل الآن؟

. كان ويلينجتون يعتقد أنك ستكون مفيدًا هنا.

. لتعلم أن هذا كذب. لقد استدعونى بعدما اتهمنى وينتر.

. أليست للأمر علاقة بمكافحى الفاشية الرومان؟

. بواحد منهم، لكن أبدًا لم نتحدث عن الوضع فى اليونان والمقاومة وهذه الأشياء. كان شخصًا عاديًا، ولم يكن لديه أى حب للاستطلاع.

. أصدقك. لكن وينتر هكذا ...هو كما تعرفه.

الطبقات الدنيا لا تفهم أسلوبنا فى الحياة.

. والآن يطلبون منى أن أكون وينتر.

. إنك تبالغ. يطلبون منك تقريرا كل خمسة عشر يومًا عن الوضع النفسى للمدينة، كما تفهمه أنت. لكن أنت تعطيهم مقاطع من رواية.

. لكن كيف تستطيع أن تفهم نبض مدينة لا تعرفها ولا تعرف أهلها. عندما يكون لديك تاريخ للمعطيات، تأتى الاستنتاجات وحدها، مثل المعادلات الرياضية. الاحتمالات هى من أجل المتخصصين.

. آسف يا روبي. لكنك حتمًا ستقع فى مشاكل. هل تريد أن تسمع الملاحظات على تقريرك الأخير؟ كتب الدب الأكبر: "مجنون، مجنون تمامًا، خلَصنى من هذا الشخص". الملحق التجاري: "موضوع ليس له علاقة بالمطلوب، لكنه مكتوب بشكل رائع". مسئول العلاقات الشرقية: "لا علاقة له بالمطلوب. ربما نستخدمه فى وقت لاحق". الملحق العسكري: "قمامة!" ملحق الاستخبارات "شيق، شيق جدًا. أريد نسخة من هذا".

. هل كان التقرير الذى كتبته عن نابليون؟

. نعم يا روبي. لماذا أنت غير موضوعى لهذا الحد؟

من يهتم بمناوشاتك الغرامية مع سكان الحى الذى تقطن فيه؟

. ألم تر الضابط دايفز من الاستخبارات؟ لكنه ولد جذاب. لماذا لا تود التعرف إليه؟

. كن جادًا يا روبي. إننا فى حالة حرب، اعذرنى إن كنت أذكرك. يكفينى صداع هذا الـ نابليون.

. حسنًا، ماذا عنه؟

. النموذج المثالى لما نسميه مرتزقا.

. وأنت تقبل أن يرسلوا إليه الذهب والعتاد. بالطبع، أفهمك. لا نستطيع أن نكون جميعًا مثل كورت ستيتلين.

ـ هل يدنو الآن صاحب فكر إليوت من الرومانسيين؟ اللعنة؛ ماذا سنرى حتى تنتهى هذه الحرب؟

ـ قال روبى ضاحكًا: أيها الحمار الأحمق، يا حمار، وأمسك به من خلف رقبته برفق.

ها هى رذيلة كورت، هوس وسادية جنسية. كان يجب على روبى أن يستشعر هذا عندما سمعه يتكلم عن الشاعر شوينبرن. حسنًا فلديه هو الآخر نقطة ضعف! لم يكن يقبل أن يأتى على الشاي، لأنه لم يكن فى استطاعته أن يرد الدعوة. كان يقطن فى حجرة غسيل فى زقاق فى شارع البلاقسة. حجرة منعزلة على سطح بناية وكان يسد ثقب الأرضية بقطعة من الخشب الجبيبى على شكل مضرب. أثاث؟ كان أشبه بتقشف الرهبان: حصيرة من الخوص، قالب من الطوب كان الوسادة، موقد كحول، آنية للشاى والسكر وفنجانان فارغان، قطعة من اللوف يثبت بها عنق الصنبور منخفض المستوى؛ فى الركن دفاتر الموسيقى يعلوها التراب وفوقها أرغن صغير. غرفة أشبه بصندوق إسمنتي. بلا نافذة أو منور. زنزانة سجن. كان ينام بباب نصف مفتوح. يقتله البرد فى الشتاء والحر فى الصيف. رغم ذلك كان يقول إنه سعيد. كان يتجول مرتديًا الجلابية لكن لم يكن يخرج أبدًا حافى القدمين. كان يرتدى صندلا من هذا النوع الذى كان يصنعه الأرمن. كان أشقر طويل القامة ونحيفا جدًا وذا حنجرة بارزة فى عنقه، ودائمًا على وجهه جروح من أثر الحلاقة. كان يسير بميل فى السوق المزدحم، كى يفتح طريقًا يميل بكتفيه وهو يجر قدمه اليسرى. يتحدث الفرنسية، فقد كان هذا

نوعًا ما حلا دبلوماسيًا رغم أنه كان ينطقها بشكل غريب. فى الليلة التى تعرفتُ إليه فيها كان على ناصية البقال فى شارع البلاقسة: "هنا يعيش المرء كأنه فى حلم". تقابلت نظراتهم فى اللحظة التى كانت تسرق فيها آريان ساريذيس قطعة صابون للغسيل من على الرف وتضعها فى جرابها. تبسم كورت وقال بالفرنسية "ألف ليلة وليلة، هنا حتى التصرفات القبيحة تبدو دائمًا مغلفة بضباب أسطوري". خرجا معًا واتجها نحو الزقاق. "هل انتبهت لهذا الضوء الذهبى الذى يعطى لكل الأشياء بُعدًا مثاليًا؟ مصباح جاز سوّده الدخان يبدو كأنه مصباح علاء الدين. ألا تتفق؟ انظر كيف يحيى الرجال بعضهم بعضًا، هل سمعت ضحكاتهم التى تخرج من القلب، كيف تبرق عيونهم المليئة بالفطنة والشهوانية كأنهم يعيشون مستيقظين فى أسطورة سحرية"، توقف أمام طاولة الحلوانى وأخذ بأصابعه النحيفة حبة لوز وأكلها، فقال له البائع العربى بسعادة "خذ واحدة أخرى"، فقال "يا له من شعب، كيف يحبون الحلوى الملونة والألوان الزاهية، نكاتهم المضحكة التى يسهرون بها حتى بعد منتصف الليل تحت الأنوار القوية بصحبة الموسيقى الشرقية التى لا تتوقف أبدًا دون أن تنتبه من أين تأتي". عندما خرجوا إلى الأحياء العليا رفع عينيه إلى السماء. كانت ليلة قاتمة. "ثم هذه البساطة غير المتكلفة فى الحب"، ثم أسهب قائلا، "العطور، البهارات، الشراب الحلو، وجوه النساء نصف المغطاة، وهو أمر حكيم وأكثر إثارة، انظر إلى هذه المنارات. رموز مثل قضبان تمجد القانون الأوليّ للحياة".

فجأة، عندما لم يعد روبى ينتظره، كانت الساعة بعد الثامنة مساءً، جاء سليمان وقال له: "هل سمعت الجرس؟ إنه هذا الألمانى الغبى الذى يرتدى

الجلابية". أدخله سريعًا إلى الصالون الأحمر ذى الستائر المخملية. "أعلم أن الوقت غير مناسب. لكن سأكون شاكرًا لفنجان من الشاي". لم يكن قد أكل شيئًا من البارحة. لكنه كان مقتصدًا بشكل غير معقول. كان يقول إن رشفتين من اللبن وقطعة من السكر تعطيه السعرات الكافية حتى يعيش للغد. أعجب هذا سليمان الذى حتى هذه اللحظة كان يُظهر له بالجرائد التى لا يفهمها، كراهيته له.

أثناء الحديث تذكر كورت آريان. فقد رآها فى نفس المساء تغير منزلها فى نفس الشارع؛ ستكون جارة لروبي. لكن كيف يكون اسمها آريان وتسكن حتى الآن فى هذه المتاهة.

- آه، وأنت أيضًا تطلق عليها متاهة؟

- أفلا يناسبها؟ هذا المربع السكنى فى شارع البلاقسة وحتى شارعكم هذا، لا بد أنه من أقدم الأماكن فى القاهرة. كم من الأوربيين يستطيعون العبور منه؟

- أنا أستطيع. أما عن مدى قدمه فحوائط منازله تشير إلى أنه لا بد ألا تكون أقدم من فترة احتلال نابليون.

- وما هذا الأمر الغريب أيضًا؟ هذا نابليون المصري. ألا يكفيها أولادها الستة، فتحوى نابليون هذا ويتبعها أينما ذهبت كأنه معلّق بذيل فستانها!

- مجرد مصادفة يا عزيزي. لقد أسرك اسم آريان لا أكثر.

ـ الألمان لا يتسمون بقوة ثقافتهم اليونانية. كنت أدرس الرياضيات عندما أخذونى إلى الحرب.

ـ كم كان عمرك؟

ـ سبعة عشر عامًا. لحسن الحظ تمت الهدنة. كنت فى سلاح الإطفاء. لكن ما رأيته كان كافيًا كى أكرهها. صرت نباتيًا وصوفيًا واعتنقت مذهب العرى وأشياء أخرى لا أدرى ما هي. هل سَمعت عن فان دير فوجل؟ لقد شكلنا مجموعات من أولاد وبنات من سن اثنى عشر عاما فأكبر يجوبون ألمانيا سيرًا على الأقدام بلا أى هدف ولا قائد. أقوى من فيهم كان يتقدم ليفتح لهم الطريق. قطيع من الطيور المتجولة. لا نتمركز فى مكان ولا نعترف لا بدولة ولا بأسرة. نعتنق أفكارنا نحن فقط، الصحبة قبل أى شيء. لقد عشت هذه الحياة أربع سنوات تقريبًا. بقينا بعد ذلك أربعة أصدقاء واستمررنا لعشر سنوات أخرى. لم يوقفنا سوى شبيبة هتلر النازية التى لم يكن فى خططها أن تحتوى كل مجموعات الفان دير فوجل. تمكنت من الرحيل، رست بنا سفينة فى هامبورج. كتاب رمان بولان عن غاندى جعلنا نرى الهند كأنها الجنة التى نبحث عنها.

فى بور سعيد لم نكن نرغب فى النزول لنتجول فى المدينة. على الأقل أنا لم أكن أعرف أى شيء عن مصر، ولم أكن مهتمًا. وهناك وتحت وطأة الحرارة الشديدة وفى هدوء الظهيرة رأيت شخصا فوق منارة ترك لديّ انطباعًا كبيرًا. كان يذاع توقيت الساعة بصوت بشري. نزلت من الباخرة لأتعرف على هذا الشيء ولم أرحل بعدها.

- صوت بشري.

- هذا الصوت والشمس. ابتسامة الرب الخالدة.

- وكيف تدبر أمورك ماليًا؟

- فى البداية كنت أظن أننى سأقضى وقتى مثلما فى ألمانيا. أعيش على الموسيقى. لكن فى القاهرة فهمت أننى لست حرًا. كنت أفضح الأوربيين. أمسك بى راعى الإبراشية اللوثرية كى يعظني، ذهبت معه إلى كنيسته، كنيسة القديس أندريا فى البلاقسة وهناك علمت أن آلة الأرغن تالفة منذ سنوات ولم يكن هناك فنى كى يصلحها. عرضت عليه أن أجرب وإذا نجحت يضع لى راتبًا مقابل أن أعزف لهم كل يوم أحد. اشترطت عليه أنه من هذا اليوم لن يسمع هنا فى هذه الكنيسة إلا باخ. وهكذا منذ عام ١٩٣٢ أتقاضى جنيهين فى الشهر. أربعة وعشرون جنيهًا كل عام، تقاضيت فى أربع سنوات نحو مائتى جنيه. هذا بالإضافة إلى الزى الرسمى الذى يحتفظون به فى الكنيسة وأرتديه باكرًا عندما أذهب إلى الكنيسة فى أيام الآحاد حتى لا ينفضح أمري.

- قال بيتر مخمنًا تعبير وجه روبى المكفهر، أفهمه فى أعماقي: مهما قلنا، كلنا وقعنا برتوكول الشرف مع دولنا ولا يمكننا أن نخرج عن بند من بنوده. كان ألمانيا متعصبا. كان يعلم أن الحرية التى نعرضها عليه تُشترى بخدمات.

- إنك لا تعرفه جيدًا يا بيتر. ربما يكون متعصبًا، لكن ليس للدرجة التى تتخيلها. عندما كنت أحدثه عن الوحشية الهتلرية كان يسمعنى بلا مبالاة غريبة. لم يبد عليه أى نوع من الشعور بالذنب. "أفهمهم جيدًا" هو عاشق للموت مثلما أنا عاشق للحياة. إذا سلمونى هتلر وقالوا لى إنه باستطاعتى أن أقتله بلا عقاب كى تنجو هكذا ملايين الارواح، كنت سأفتح له الباب وأتركه يرحل. ليس من حقنا. "إن حياة الإنسان مقدسة". ولكى تفهم يا بيتر. ذات مرة قَبل أن يأخذنى حيث يسكن فى شارع البلاقسة كى يعزف لى مقطوعة لباخ على آلته الموسيقية الصغيرة. أجلسنى على الحصيرة الخوص، وانحنى فى ركن الغرفة حيث موقد الكحول ليعد الشاي. وفجأة رأيت، مرعوبًا، صراصير كبيرة بشوارب فى حجم أصابع اليد تخرج من تحت أخشاب الأرضية. قفزت مذعورا كى أدهسها. وقع تحت قدمى ليمنعني. "لا تفعل، قال لي. اتركهم يعيشون، أليست لهم أرواح؟". لا أدرى لكن يمكنك أن تفهم أن الشاى الذى أعده كانت له رائحة غريبة. أعطانى دفترًا به المقطوعة ولم أفهم أى شيء منه أو من عزفه.

لمعت عينا بيتر بمكر وتأهب ليتكلم. لكن أذنيه راحتا فى إصغاء لحركة مفتاح فى الباب. وجهه المصفر صار وردى اللون، إذ أدرك أن أحدًا يفتح الباب. امرأة عصبية غير مرتابة اقتحمت الغرفة.

- بيتر، عزيزي، قالت بلغة يونانية.

وقف روبي. كانت امرأة سمراء بعينين واسعتين نابهتين وترتدى حذاء بكعبين عاليين كى تبدو أكثر طولا. جواربها الرمادية الشفافة منحتها

سيقانا مغرية. رداؤها الأسود المغزول ملتصق على جسدها الضئيل. كانت ترتدى عقدا مزدوجا من اللؤلؤ الحقيقي. بشرتها ما زالت تحتفظ بلونها القمحى الذهبي. طلاء الشفاه كان يبرق على شفتيها الكبيرتين وتظهر أسنانها البيضاء من خلالهما. شعر روبى بالغيرة على نحو ما. كان بها شيء شبقى شرس هذه المرأة.

- لا بد أن تخبرنى بموعد قدومك. الأومليت الباردة لا تؤكل.

اكتسى وجه بيتر بتعبير المستسلم لقدره.

- دكتور روبرت ريتشاردز، حدثتك عنه، رد باليونانية أيضًا. من هنا السيدة دورا ميتراكي، حرم الوزير السابق. نحن جيران.

- نعم، هكذا يا بيتر، بدأت هى الأخرى بالإنجليزية وهى تضغط على يد روبى قائلة: لقد كان دخولى غير لائق، أليس كذلك؟

- رد. لا، لا على الإطلاق. روبرت أكثر من صديق. كنا فى أكسفورد نتقاسم نفس الحجرة.

- قال روبى بتحفظ متكلف، أظن أن لدى زوجك شقة أخرى فى البناية الجديدة فى شارع قصر النيل. أعرفها إذ قيل لى إنه يتجمع هناك كل أعضاء الجمعيات الخيرية.

- قالت وهى تتفحصه وعيناها نصف مغلقتين. بالضبط. شقة قصر النيل هى بمثابة مكتب سياسي.

ـ قال بيتر، لماذا لا تجلسين؟

ـ سأجلس قليلا. لم تجبني بشأن الطعام. ستأكل معنا يا دكتور ريتشاردز، ليس شيئًا عظيمًا. لدينا إسباجيتى وأومليت بالفطر وسلاطة، والحلو رمان بالسكر والكونياك. لكن بيتر عثر على زجاجة نبيذ كابرى لونه أحمر داكن، روعة.

ـ شكرًا يا سيدتي. لن أقبل إلا إذا أعددت أنا الإسباجيتي.

ـ ماذا تقول؟ هل ستدخل مطبخي؟

أغلق بيتر القواميس.

ـ هيا بنا، قال: دعونى فقط أحضر مدفأتي.

دورا وروبى تقدما نحو المطبخ.

ـ هل فسرت لى هذا اللغز، قال وهو على عتبة باب بيتها: لا بد أنك هنا من أسبوع تقريبًا، كيف وجد إذن على بابك صليب عيد الفصح؟

ـ برافو! كم رواية كتبت حتى الآن؟

ـ أحاول أن أكتب الأولى. لكن ماعلاقة هذا بذاك؟

ـ قوة ملاحظتك. لكن سأقول لك حتى لا أعذبك: هل تعلم أنه من الأفضل فى مثل هذه الأوقات ألا نكتب أسماءنا على الأبواب؛ حتى لا يدق زائرونا على باب بيتر ويضايقونه، فنقوم بهذا الشيء كى يعلموا أين نحن.

الطاولة كانت معدة لشخصين. فوضعت دورا سرفيسًا لشخص ثالث. السيد ميرتاكيس سيأكل فى الخارج؟ دخل روبى إلى التواليت كى يغسل يديه وفتح بحرص دولاب الأدوية فلم يجد فيه ولا فى أى مكان عدّة الحلاقة. وخلف الباب كان (بُرنُس) واحد معلقا.

نبيذ الكابرى كان حقا رائعًا. انتعشت حالتهم المزاجية بعد أن تناولوا الفاكهة وقرروا أن يتخلوا عن الرسميات.

- سألنى روبى عن الصليب، بدأت السيدة ميرتاكيس.

- تعجل بيتر فى الإجابة قائلا: من أجل الوقاية. أستطيع أن أثق به يا دورا، وقاية من الشبكة التى نصبها الإيطاليون فى أثينا. كان يصر أحدهم أنه إذا رسم أحد الصليب على باب المكان الذى يختبئ فيه لن يدق الضابط الإيطالى عليه.

- قال روبي، لكن هذا كان قبل تسعة أشهر على الأقل.

- سألت دورا، وكيف تعرف هذا؟

- فى أورشليم قال لى رائد. لكن بشكل مختلف، حقيقة: فى الشقة المجاورة كانت تسكن سيدة مع صديقها وزوجها قد أرسل أحد الإيطاليين للانتقام منها. حتى إن الجار لم يكن ليصيبه شيء، لكن السيدة كانت تشير له بعلامة خطر عند منتصف الليل إذا ما كانت هناك خطورة، فكان يعجل هو بحرق كل أوراقه. لكن الدخان وشيَ به.

- قاطعته دورا قبل أن ينهى حديثه: سأعد القهوة. أكمل حديثك، أسمعك جيدًا من المطبخ.

راح بيتر يرتعش ثم قال:

- هذه النوبة تنتابنى دائمًا بعد الأكل مباشرة.

نزع مدفأته من مقبس الكهرباء وغادر ليستلقى فى شقته دون أن يقول شيئًا لدورا التى خرجت بعد قليل بالقهوة، كانت هادئة وشيء من الإرهاق يبدو على أطراف شفتيها.

- سألت، هل كان اسم الرائد الذى تتحدث عنه يا سيميس؟

- إذن هذا حقيقي؟

- هو من أرسل الإيطالي. الآن تأكدت. كان غيورا بشكل رهيب.

- لكن كيف نجوت؟

- سقط... وتصنّع بأنه يجمع عملات ذهبية. لقد اشترينا الجنرال الإيطالي. لكن الآن بيتر المسكين ما زال تحت أثر الصدمة. أتفهمه يا روبي، لكن كيف عرفت؟ إنه يوم الثلاثاء، يوم نحس كما تعلم.

جلست على الأريكة ومالت بشعرها الأسود للخلف وشبكت ساقيها. أشارت بإصبعيها المصفرين تطلب سيجارة وعيناها تقريبًا مغلقتان.

. ألا تُدخن؟ كان يجب أن أفترض هذا وإلا كيف أن خديك متوردان هكذا.

حل المساء وراحت دورا تتثاءب وتتحدث بلا اهتمام. حيّاها روبى وغادر. سار فى شوارع جاردن سيتى متوقفًا بين الحين والآخر أمام القصور محاولا أن يخمن أى حركة فى الداخل، أى شيء يدل على قليل من حياة، خلف الحواجز والنوافذ الزجاجية المغلقة. مر من حى الوزراء حيث أشجار النخيل والمجسمات الضخمة المرعبة. هدوء تام، المتحف الجيولوجى مغلق. توقف عند محطة قطار حلوان لبعض الوقت يشاهد طلاب مدرسة الفرير عند خروجهم يرتدون زيهم الأسود وعلى صدورهم ميداليات معلقة بشرائط ملونة بألوان العلم الفرنسي. أحد الطلاب خرج بدون غطاء الرأس يصفر غاضبا بصفارة نحو بعض الأولاد الذين كانوا يصرخون فور خروجهم وابتعادهم عن المدرسة. سيارات الليموزين أخذت أبناء الأغنياء وغادرت بهدوء.

وصل روبى إلى الناحية العليا فى الشارع الذى به الجامع حيث كان منزله. صعد إلى الطابق الثالث. مزايا وعيوب التدخين. طلب من سليمان أن يُعد الشاي. من نافذة الحمام الصغيرة كان يستطيع أن يراقب الناس فى المتاهة فى شارع الجامع. لم يكن فى مزاج سيئ لكنه كان فى حالة شعورية حزينة دون أن يدرى لماذا. آه، كورت وساديته وهوسه الجنسي. لم يشأ أن يتذكرها الآن فربما يذهب الأمر به بعيدًا. مجرد نصب تذكارى لا أكثر. جيل مضحًّى به من أجل الحرب. طيور متجولة، حفنة مسافرة من الريش البني،

تسافر داخل سحابة معبأة تارة داكنة اللون وتارة أخرى بيضاء اللون. مواد خام من أجل الفصائل الهتلرية. تمت خطبتهم للموت. وهل هذا الجيل يُضحى به الآن؟ لا أحد يدرى ماذا سيخرج من كل هذا.

"الله أكبر!" انحنى روبى لينظر إلى المؤذن الكفيف الذى صعد على شرفة المنارة ليُعلم الناس فى الحى بموعد الصلاة وقت الغروب. ذهب المؤمنون للوضوء من قنينات الماء أمام الجامع. خرج من الأزقة الضيقة شخص على رأسه طاولة مغطاة عليها علب الزبادي. مر وقت لا بأس به وصوت المؤذن المنغم يُسمع فى المتاهة مثل صوت حنين مبحوح. خرجت النساء على عتبات بيوتهن ينادين أولادهن بصوت غنائى "طلبة، حسن، فلفل، أين ذهبت؟"، من الشرفة أيضا ينادين: "ماركو، نيقولا، فرجينيا، تعالوا هنا". كان مثل أول صافرة للقطار الذى يتأهب للرحيل. خرجت الخفافيش فجأة كأنها ولدت فى الهواء وراحت تحوم بين الشرفات بصبر أعمى. صوت إحدى بكرات المحلات أحدثت دويًا أثناء غلقها. لون السماء صار أزرق داكنا، وصارت ألوان الملابس المعلقة فى الشرفات والبلكونات تغير ألوانها تارة نحو الوردى وتارة أخرى نحو البنفسجي. روائح نبات الريحان فاحت. الكلاب تنبح بلا توقف. النساء نادين على أولادهن مرة أخرى. مشعل المصابيح خرج من شارع البستانى إلى الحى يرفع شعلته الزرقاء. المناطق التى كان لا يصلها ضوء المصابيح كانت تغوص فى الظلام الداكن. النوافذ المفتوحة فى البدرومات والأدوار الأرضية كانت تأخذ ضوءًا ذهبيًا من مصابيح الكيروسين التى تشعلها النساء بالداخل. العجلاتى قابع على ركبتيه على الرصيف يحارب كى يشعل مصباحه دون جدوى، فكانت تصدر صفيرًا ويصدر منها دخان ثم تنطفئ! أسدل الليل ستائره بسرعة.

(٣)

هذا البيت المهجور فى المتاهة له قصة طويلة عجيبة، سمعتها آريان من أم نابليون التى كانت تأتيها لتقوم بالغسيل؛ كانت بعدها تجلس وحيدة كل ليلة لترتب تسلسل الأحداث.

منذ سنوات فى إحدى المرات النادرة التى يسقط فيها مطر غزير فى القاهرة، سقط سقفه والمياه والحجارة والأعمدة الخشبية البالية وانجرفت داخله ونُزعت مشربيته الوحيدة. حينها أرسل شيخ الجامع الأحول إلى أقرب كراكون ليبلغ عمّا حدث، لكن شيئًا لم يحدث، إما لأنهم لم يفهموا ما حدث أو لم يكن من تخصصهم، أو أنهم أهملوا الأمر، لم يظهر أى أحد من قبل السلطات. بعد شهور ظهر شيخ الحارة الذى كان على خلاف مع شيخ الجامع؛ إذ وبخه لأنه لم يخبره بالأمر حينها. قال له إن المنزل يعتبر وقفًا، ولا بد أن ينتبه حتى لا يتعدّى عليه أحد، لأنه فى حالة إذا ما حدث هذا سيواجه مشاكل مع الحكومة. أجابه الشيخ وقد كان محقًا بأن هذا ليس عمله، وإن كان سيفعل هذا فلا بد أن يتقاضى أجر حارس حكومي، ثم كيف يقوم بحراسة مكان كهذا لا يصلح إلا مأوى للقطط الضالة؛ وفى الحقيقة

أنه فى الشتاء كان الوضع يعطى انطباعًا بأن القطط تقوم بحفلات ممارسة الحب. بعد ذلك امتلأ هذا المكان الخرب بالجرذان الكبيرة مثل التى تظهر فى البيوت الأخرى فى المتاهة، وراحت تدخل إلى المنازل الأخرى وتتجول فى منازل المتاهة، إلا أن الفئران فى هذا البيت المهجور كانت قطعانا. بعد ذلك وفى الصيف كان أحد الشباب يبحث عن غرفة من أجل جارته، تسلق من النافذة وراح يشتغل طيلة الليل حتى فتح الباب الموصد. اتفقا بالإشارة أن تأتى المرأة فى الوقت الذى يغيب فيه زوجها للعمل، تخدع حماتها وتأخذ معها زجاجة فارغة للتمويه بأنها خرجت لتشترى الكيروسين. وفور أن تصل عند البيت المهجور عند زاوية الشارع تدفع الباب الموصد وتغلقه خلفها. لم يكن أحد يراهما. أمام البيت كان هناك حائط عال بعض الشيء يخفى خلفية المسجد. ليس معروفًا كم استغرقت قصة هذا الفتى؛ ولكن فى يوم ما وجدت المرأة آخر ينتظرها هناك ثم غيره وغيره وهكذا، كانت المرأة جميلة وعاقرًا، جُنَت تمامًا. اختفت بعد ذلك ثم بدأ زوجها يسمع كلامًا من هنا وهناك حول سوء سلوكها. وبدلا من أن يذهب إلى هناك ويحطم هذا الباب اللعين أخذ قادومًا وقطعها إربًا. والآن سكان المنطقة وحتى العابرين صاروا يجدون خلف هذا الحائط متنفسًا ليقضوا مثل هذه الاحتياجات خلف النوافذ الموصدة والأخشاب البالية فى ذلك المضيق. ذات مرة طفح الكيل بسمعة المكان ورائحته التى كانت بسبب الأخشاب التى تتشرب بكل أنواع السوائل المتعفنة. طلب الشيخ من أحد تلاميذه العميان من المنطقة أن يجمع أصحابه وينظفوا هذا المكان قليلا. كان الشيخ يناديه "قَفا" ولو أنه كان يحفظ ويرتل السور الأولى من القرآن، جمع إذن أصحابه الذين كانت تتراوح أعمارهم

بين عشر سنوات إلى اثنى عشر عاما، أما هو فقد كان قد تخطى الرابعة عشرة من عمره. شرح لهم بأنهم إذا قاموا بعمل جيد ربما يقنع الشيخ أن يغض عنهم البصر ويتركهم يرتعون فى المكان ويكون مكان تجمعهم، لقد كانوا يتحدثون فى هذا الأمر منذ شهور. هذا الأمر كان يخدم تحفظات نابليون الذى كان أكبر المنافسين للشيخ سلطم على زعامة المجموعة. أزاح الأولاد القمامة والأخشاب والأشياء المتعفنة نحو العمق، قاموا بتسوية الأرضية عند المخزن، صنعوا من بعض أخشاب الصناديق وبواقى أجزاء من المشربية المنهارة بابًا، ووضعوه على المدخل كبوابة حراسة وتناوبوا عليه الحراسة. ذات ظهيرة مر والد نابليون ورأى ابنه يقف مشدودًا يحرس الباب. قال له اذهب لتجد أصدقاءك. فلم يتحرك. الأب الذى كان يحب كثيرًا الهراء والمقالب، رفع كتفيه بلا مبالاة ودفع الباب فوجد المكان نظيفًا ومرتبًا.

- هل تعرف أن تحت هذه الأرض هناك عفريتًا مدفونًا؟

أجاب الطفل بنعم رغم أنه كان أول مرة يسمع بشيء كهذا.

- من الأفضل ألا تحفروا هنا حتى لا تتأذوا ويخرج العفريت ليأكلكم.

- لن نحفر.

- وإذا رأيتم أحدا يحاول الحفر هنا عليكم أن تأتوا وتخبرونى فى التو.

- فى التو طبعًا.

ضربه أبوه على رأسه حتى لا ينسى الأمر وأغلق الموضوع. لكن فى

كل مرة تجتمع العصابة كان أحدهم يجد سبيلا ويفتح الموضوع للنقاش. ليس من أجل الحوار حول إذا ما كان وجود العفاريت حقيقة، فهذا أمر مؤكد بالنسبة لهم. لكن إذا كان لا بد أن يحفروا أم يتركوه نائمًا في مدفنه. كان فلفل شقيًا جدًا، أما نابليون الذى كان مولعًا بالقتال فقد وضع لهم الخطة، كيف أنهم سيحضرون سيوفًا وشبكة وفور أن يخرج من تحت الأرض سيأسرونه كي يصبح خادمًا لهم ويأتمر بأمرهم. راح بلبل يحلم بالمهلبية وفطائر الجوز والكازوزة. لكن قوطة كان صاحب مرض. كان لديه ورم تحت ذقنه قوى وفي حجم حبة الطماطم، ولهذا كان ينادونه قوطة. قال إن هذا الأمر سيجلب لهم النحس، وأنهم سيموتون قبل موعدهم. استشاط نابليون غضبا، فكيف يجرؤون على مناقشة أمر والده؟ ألاّ يعرفون من هو يونس محروس؟ التفت ونظر إلى الكفيف وانتظر حتى يسمع ماذا سيقول. فقال الشيخ سلطم بشكل رسمي، إنه تم إغلاق الموضوع: "ما دام يونس أمر بهذا، فاخرسوا إذن"، انتفخ نابليون من فرط الفخر. لكن لو تصادف وجود نيكوس بن آريان في اجتماعاتهم كان الحوار يبدأ تارة أخرى من البداية. وكان الطفل يسأل أمه عن تلك الحواديت عن العفاريت. نهض نابليون ومد إصبعه في وجهه موبخًا إياه باسمه: "نيكوووو!".

.راح الأولاد ينادونه ويرددون اسمه بالمعنى العربي الدارج !

غضب اليوناني الصغير بتوحش وراح يركل ويلكم، لكن العدد كان كبيرًا عليه فآثر الهرولة. هبت العصابة تهرول خلفه مرددين: "نيكو، نيكو!" النساء الجالسات على عتبات بيوتهن أو خلف الشبابيك يصنعن التنديد بعبارات

الأطفال: "يووه! ما هذا الكلام الذى يتفوّه به هؤلاء الأشقياء"، قلن وهن يخفين ابتساماتهن خلف أكفهن. فور أن خرج الأطفال من أزقة المتاهة إلى شارع الجامع توقفوا عن الهرولة والصياح وراحوا يلتفون حول الصبى اليونانى فى صمت مثل حراس، ثم راحوا يداعبونه بنكات حتى وصلوا به إلى عتبة منزله، فى الطابق الثانى من البناية تسكن عائلة ساريذى منذ سبع سنوات.

سأل الشيخ سلطم شيخه عن العفاريت على أى حال. فرد عليه الشيخ الجليل غاضبًا من السؤال "بالطبع توجد العفاريت، لكن فى ذلك البيت المهجور خلف الجامع؟"، "لماذا، وهل رأيت شيئا، سمعت شيئا؟"، "لا، ولكن يونس هو الذى يقول". "إيه، ولكى يقول يونس هذا، يعنى أنه يعرف شيئًا، فقد كان يختبئ هناك حتى تلتئم جراحه فى أيام الثورة".

"لكن الثورة كانت قبل أن أولد بعشر سنوات. كيف لم نسمع شيئًا عن العفاريت إلا الآن؟". نزل الشيخ بعصاه على أصابعه: "هذا من أجل أن تتعلم فيم تسأل. أى شيطان يتملكك اليوم؟". لكن عقل الشيخ سلطم المتحجر كان يزن الأمور بشكل أكبر مما كانت تتخيله آريان التى جلست لتستمع إليه وهو يحكى لها. قال سلطم لشيخه "سؤال آخر وسوف أنتهى من الأمر: هل ينبغى ألاّ يدخل نيكو هذا البيت المهجور؟"، بصق الشيخ بعيدًا وقال: "نصارى، خنازير. ما هذه الأسماء التى يسمون بها أبناءهم؟ ماذا عساى أن أقول!"، عليكم أن تحذروا من أمه. الولد يذهب للمدرسة ويذهب أيضًا إلى الكنيسة، وكل هذا يعبث بعقله.

هذا الصباح هبت ريح الشمال القوية وكانت لها رائحة عفونة. ارتعد

الأولاد من البرد فى ملابسهم البالية. لم يكن أى منهم يرتدى سروالا داخليًا تحت جلابيته. كان نابليون كعادته يرتدى بنطال بيجامة باليا ومتسخا فلم تظهر عليه آثار الضرب بالسياط. هذه الليلة وضع على صدره العارى إطارى دراجة مرقعين. طلب فلفل من إحدى عماته أن تعيرهم مصباح كيروسين، لم يشعلوه على كل الأحوال. وقوطة تسول بعض قطع الفحم من إحدى الورش فى الحي. كان لونه شديد الصفار بشكل كان يثير الأسى بين الناس. أما بلبل فقد أشعل المصباح وأشعل سلطم الفحم وبمساعدة فلفل أشعلا النار. راحوا يسعلون وتدمع عيونهم من الدخان حتى صار الفحم جمرًا. التف الجميع حول دفء الحرارة وراحوا يعدون غنائم اليوم. كان نيكوس قد سلم حصته قبل المساء إذ لم تكن آريان تسمح له أن يبقى فى الشارع بعد الغروب.

- قال نابليون وهو يسلم حزمته، ثلاثون جنيهًا وبعض الفكة.

- ثم قال بلبل، خمسة وعشرون ونصف جنيه.

- فى هذه الأثناء كان سلطم يرتب حزمة نيكو.

- قال بلبل بنبرة انتصار، خمسون.

لم يتأثر أحد. همهم أحدهم ثم لملم بلبل جلابيته تحت ركبتيه وعبس وجهه.

. قال سلطم، حسنًا: نيكوس، ثلاث وعشرون. ثلاث سمر بالقطن، مما يعنى ستة؛ خمس ماتوسيان، ثلاث كيراتزى فردية وواحدة بالقطن؛ خمس ماتوسيان، واحدة كوتاريللى وواحدة من ماركة حلمي. ما هذا، لا أعرفها.

. قال نابليون وهو يمسك الكرتون، ماركة مجهولة. لا بد أنها سجائر أجنبية من الجيش.

جمع سلطم حزم الآخرين بعد أن قام بالعد والترتيب. كان يتحسس ويقرأ المكتوب على الورق بأصابعه ويردد بثقة الماركات التى يقرأها؛ كل الماركات كانت مقبولة فيما عدا الإنجليزية. لم يكن جيدًا أن ينحنوا هم ليجمعوا من الأرض علب الإنجليز حتى وإن بدت ممتلئة.

غنيمة اليوم دخلت تحت الطوب الذى كان أريكة فى يوم ما. جمعوا العدد. ستة آلاف وأربعمائة جنيه وعملتان فضيتان. العملات الصغيرة كانت مع الحزم الأخرى من أيام الفقر. والآن ماذا سيفعلون بكل هذه الأموال؟ لا شيء، سيزيدونها يومًا بعد يوم بالعمل الشاق. إنك تسير فى الشارع بشكل مختلف ممتلئًا بالشجاعة والثقة مثل الباشوات والأثرياء عندما تعلم أنك تخبئ كل هذه الثروة.

. قال سلطم لبلبل. كم مرة قلت لك؟ لا بد أن تجمع وحدك ولا تأتى بما يجمعه لك الآخرون.

قوطة وفلفل أخفضا عيونهما. كان الجميع يعلم ما العلاقات الدنيئة لبلبل الذى حرك مؤخرته كى يعدل من جلسته على الأرض، وألقى برأسه للخلف مقررًا بذلك ألاّ يتكلم.

. حرك نابليون كفيه نحو النار بحثًا عن الدفء وفرك كفيه على صدره بسعادة ثم قال للشيخ سلطم، حسنا يا شيخ سلطم، ماذا ستحكى لنا الليلة؟.

أخذ قوطة عقب سيجارة من الأرض وأشعله من الفحم وسحب منه أنفاسًا ثم سلمه إلى بلبل الذى ما زال متذمرًا ثم أعطاه بدوره على الفور إلى فلفل.

. الليلة سنحكى عن السلطان الذى كفر وكيف عاد إلى الإيمان والطريق المستقيم، ثم أخذ يحكى وهو يهز جسده ببطء: كان الخليفة الحكيم شديد الثراء والسطوة. لكن دخل جسده عفريت فأخذ يضايق المؤمنين قائلا بأنه لا يصدق هذا الكلام عن النبى الذى نهض فى الليل وامتطى البراق إلى مكة ومنها إلى أورشليم ثم ذهب به الملاك إلى السماء السابعة ثم عاد إلى أورشليم ومنها إلى مكة ووجد فراشه ما زال دافئًا. لكن فى يوم ما كان يلعب الشطرنج مع وزيره فظهر له سيدنا الطشطوشي. وطلب منه الإذن أن يلعب معه، وإذا فاز على السلطان عليه أن يأمره. خسر السلطان وطلب سيدنا الطشطوشى منه أن يغطس فى جرة مليئة بالماء. فعل السلطان ما أمر به، ووجد نفسه فى قصر عظيم وأنه صار امرأة جميلة بشعر طويل وأنوثة طاغية. تزوجت بابن الملك وأنجبت ثلاثة أولاد، وبعد ذلك عاد السلطان حيث كان وخرج من الجرة وحكى لوزيره ما حدث له. عندها ذكّره برحلة النبى المقدسة وبالإسراء والمعراج، وهنا فهم الملك وعاد إلى رشده وإيمانه والطريق المستقيم.

صاحت العصابة فى صوت واحد بإعجاب، الله!

- ثلاثة أولاد، قال نابليون وهو يتحرك من مكانه. ثم قال لنيكو مداعبًا، يبدو أن هذا قد أعجبك.

- قفز فلفل ناهرًا إياه وقال، لماذا تضايقه الآن، هو على الأقل لا يتلوث مع الإنجليز.

وفى لحظة كان يمسك كل منهما بالآخر من عنقه ويتقلبان على الأرض. سقط قوطة وبلبل على الأرض حتى يخلصوهما. كان سلطم ينتظر متجمدًا فى مكانه وغار خداه على وجهه مثل عينيه.

- فلفل، تعال إلى هنا وقل ما عندك.

- لقد رأيته يصعد مع ذلك الإنجليزى إلى شقته.

- وما العيب فى هذا، قال نابليون محاولا التبرير.

- لقد وعدتنا.

- لم نفعل شيئًا. إنه يأتى بالشاى والبسكويت ونتحدث قليلا. كنت جائعًا. لكننى أنتبه، أنا لا أفعل مثل هذه الأشياء مثل بعضهم هنا.

- قال الشيخ سلطم بنبرة ظلامية، أحضروا لى قدمه.

لم يستطع نابليون أن ينجو من العقاب. أحضروا العصا وراحوا يضربونه واحدًا تلو الآخر، كان الكفيف يضرب بغيظ شديد ولم يخطئ فى ضربة واحدة.

ـ راحت أمه تصيح من الخارج، يا طلبة، أنت يا نابليون.

ـ قال فلفل الذى كان يمسك بالعصا. إنها تريد صحبتك، لا بد أن يونس سيذهب لينام عند زوجته الأخرى.

ـ قال له نابليون، وما شأنك أنت أيها الواشي؟ كانت يداه تحترقان، كم كان يكره الكفيف الآن... بدا له العالم كله كأنه بئر من الوشاية وكما أن الحياة عاهرة ولا شيء آخر، هذا العالم لا تستطيع أن تجد فيه صديقًا حقيقيًا. كان عقله لا يفكر إلا فى كل شر. لم تكن أمه تنادى عليه من أجل الصحبة، لكنها كانت تريد أن ترسله ليشترى لها اللحم كى تطعم أباه وإلا سيذهب للأخرى التى كانت ستطعمه الحمام المحشي، ولن يقضى الليلة معها. كان يحزن عندما يرى أمه عابسة الوجه فكانت تبدو عجوزًا. أنجبت أولادًا كثيرين ليونس، لكن أين هم؟ لم يعش لها غيره. لكن عندما يبقى يونس فى البيت كانا يخرجانه إلى الشارع. حتى وإن كانوا فى الصيف كان يسرح فى الشوارع. لكن كيف ينام فى الشارع؟ حاول ذات مرة ولكن الجرذان عضته حتى إن أحدها عضه من إصبع قدمه حتى قطعه. حلال عليه، فهو زوجها وكانت تريده وتحبه. لكن كيف تنفق عليه فى ليلة أجر ثلاثة أيام من العمل فى الغسيل وتتركه هو ينام جائعًا دون كسرة خبز فى البيت؟ حياة عاهرة.

قال بلبل إنه متنازل عن ضرباته. هذا من حقه. لم يكن هذا يعنى أنه سيتلقى كلمة شكر.

- قال الشيخ سلطم بأداء ترتيلي، لقد قررت المحكمة أن يثبت أنه رجل.

- لوزة، نجف، وردة أم فلة؟

- صرخت أمه وقد هبت للداخل وأمسكت به من خلف رقبته. اللعنة عليك، ألا تسمع؟

- قال سلطم دون أن يتحرك من مكانه: قررت المحكمة «كيداهم».

- ماذا أقول لك، جزت على أسنانها قبل أن تقول «أيها الأعمى» ثم أكملت «هيا اخرجوا من هنا أيها الملاعين أليس لديكم بيوت تذهبون إليها؟ وأشاحت بيدها فأطفأت المصباح».

حسنًا، لم يكن الأمر محض مزحة: كانت هناك كيداهم، وباشا أيضًا. نافذة المطبخ فى بيت ساريذى كان تطل على الناحية الغربية نحو فنائهم. لكن آريان ألغت النافذة إذ قامت بوضع خزانة الأطباق أمامها. السبب؟ كانت تزعم أن السبب هو ألاّ يدخل الذباب ورائحة روث البهائم وتملأ البيت. فقد قرر سائق عربة السرايا أن أفضل مكان لإلقاء الروث من الإسطبل هو هناك تحت نافذتهم، كى يبعد قدر الإمكان عن أنوف الحرم. فى الصيف وأيام الخماسين كانت الرائحة لا تطاق. ولهذا اضطرت آريان أن تكتفى بالنافذة الشمالية فوق البوتاجاز وأوانى الطعام التى كانت تطل على منور البناية. وهكذا كان الهواء يدخل المطبخ؛ عندما كان يسوء الجو كان يدخل منه المطر فكانت مشكلة أخرى، فتضطر أن تغلقه وتفتحه بالعصا ماسحة الغبار، ولم يكن الأمر مريحًا على الإطلاق. إذا ألصق أحد عينيه فى

الركن الذى لا تغطيه خزانة الأطباق، لاستطاع أن يرى من فتحات النافذة الحشائش المقصوصة بعناية ونخلة كبيرة وشخصا قصيرا وبدينا وشارعا صغيرا مغطًى بالحصى الأبيض، ووردا كبيرا أحمر ربما يكون أكبر ورد أحمر فى العالم.

ـ ستذهب الآن إلى السراية؟

ظهره العارى انحنى؛ كان على وشك الضحك؛ لكنه لم يكن ليتحرك من عند الجامع. كان لا يزال يرتدى الإطارات على نصفه الأعلى، لم يكن فى عجلة من أمره ليأكل بواقى الطعام التى وضعتها آريان له فى المقلاة.

ـ من على السطح كان يستطيع أن يرى أفضل. انتبه حتى لا تسقط.

السراية كانت تطل على الشارع السفلى الذى كان اسمه الدواوين، لأن الترام الذى كان يمر من هناك كان ينتهى عند الحى الذى به المبانى الضخمة والأشجار الكثيفة والشوارع الهادئة. كان هناك حائط كبير بلون القرميد يخفى السرايا عن عيون المتطفلين. أمام البوابة الموصدة كان يجلس على دكة رجل مخصى أسود عجوز عاقدًا ساقيه، يحرس المكان على الدوام، يلعب بالمسبحة أو يحيك جوارب. يرتدى جلابية بيضاء وحذاءً منزليا أحمر وطربوشا تركيا قصيرًا. على الجانب الآخر عندما تعبر خط الترام كانت هناك صيدلية يونانية تضىء أنوارها فى الليل، وفرن إيطالى مشهور بالخبز المصنوع بخميرة البيرة، ومطبعة حكومية. كل هذا كان يعرفه نابليون. المعضلة كانت: كيف ستكون له علاقة مع كيداهم؟

. لكن كيف تعرفها؟ هل هى كبيرة أم صغيرة، جميلة، عرجاء، هل تستطيع أن تنشئ علاقة معها؟

. لا أحد يقول لي. العربة التى تذهب ببنات الباشا إلى المدرسة كانت ستائرها مسدلة دائمًا. هل يمكن أن أتسلق العربة وأذهب معهم إلى هناك؟

. يبدو أنك غير جائع اليوم.

. هل يذهب نيكوس إلى الكنيسة كل أحد؟

. هل ستأخذ الطعام أم ألقى به إلى القمامة؟ تعال فأريدك أن تنظف لى تحت الأسرَّة. ظهرى يؤلمنى ولا أقوى على الانحناء.

كانت قبل ذلك تطلب من البنتين التوأمتين أن تقوما بهذا، لكن منذ اليوم الذى حصلتا فيه على وظائف صارتا تتكبران. الأرضية كانت من الإردواز. كان البلاط يتشرب البرودة ويحتفظ بها. بعض الغرف كانت تتجمد من الصقيع فى فصل الشتاء. لم يتحسن الأمر إلا عندما صار ميخاليس يعمل فنيًا وستماتيس صار موظفًا، وراح كوستيس يعمل باليومية فى الصيف فى مصانع الدخان عندها فقط ابتاعوا أربعين مترًا من المشمع فى فترة التخفيضات وفرشوها على الأرضية فخففت وطأة الصقيع. لكن كان لابد أن تمسحه بقماشة مبتلة حتى لا تتسلل الرطوبة تحته ويتعفن المشمع. فهم الولد من أول وهلة آريان التى وقفت مفتخرة به كأنه ابنها.

. ماذا يكتب لكم ميخاليس عن الحرب؟

- الآن يضربون الألمان والطليان على رؤوسهم. بعد ذلك سيأتى دور الإنجليز.

- لا، لن تكفيهم الطلقات.

- ومن أين لك أن تعرف يا أبله. هل هذا ما يقوله له أبوك؟

الطفل الذى كان منحنيًا على الدلو راح يعصر الخرقة القذرة فى مياه الدلو. لقد قام بعمل رائع.

- يا أم ميخاليس، أين أخفيته؟

- من أخفيت؟

- يونس.

- لم أخفه أنا، لقد قلت لك قبل ذلك. أنا فقط جذبته من قدميه إلى بسطة المنزل وأوصدت الباب خلفه. كنا نسكن فى الدور الأرضى حينها فى شارع البلاقسة، وعندما حل الليل جاء أصدقاؤه وأخذوه.

- قال إنك قطعتِ من ثيابك حتى تضمدى جرحه.

- أهكذا يقول؟ قل له إنه كان يحلم. لقد كان على وشك الموت يا ولدي، لم يكن بمقدوره أن يرى أو يسمع شيئًا.

مرت اثنتا عشرة سنة ولم تزل تتذكر ذلك اليوم كما لو حدث بالأمس.

جسد مسجًى على الأرض وقد سَد مدخل البيت. كان يئن وينزف دمًا غطى جلابيته. ماذا ستفعل؟ سيفقد الرجل دمه إذا ظل هكذا. خارج بوابة البناية الخارجية كان صوت العربة المصفحة يدق وصوت مدافعه تنبح مثل كلب مسعور يلهث. حتى وإن رآها أحد الجيران تسحب الجريح للداخل؛ أى مجنون منهم كان سيجرؤ أن يهرول لمساعدتها؟ هذا فضلا عن أنها لن تفتح الباب لأحد، فهناك خطورة أن يندس أحد كلاب الإنجليز إذا ما فتحته. يا للعار! هل هذا وقت للتفكير فى هذا؟ فى تلك اللحظة رفعت فستانها؛ كانت بطنها كبيرة. كانت التوأمتان تكبران وتنتظران ثلاثة أشهر حتى تخرجا للحياة وتعطياها أكبر فرحة فى حياتها. أخيرًا بنت، بنات، رحمة من الرب أن يمنحها بنات يملأن عليها البيت، يعتنين بالأولاد عندما تكبر، وبأبيهن أيضًا ويساعدنها فى كبرها هى أيضًا. لكن علَى العذراء تمنحهن الحياة والصحة، هذا كل ما أبغيه. لكنها حتى هذه اللحظة لم تكن تعرف ماذا تحمل فى بطنها. وجدت حزام قميص النوم، كيف وجدت الوقت والسرعة حتى تحله ثم بعد ذلك قطعته، كان الرجل جاحظ العينين ينظر وينظر وقد توقف أنينه. دعه ينظر. الأمر المضحك أنه كان يضع الكحل فى عينيه مثل النساء. من يدرى لماذا. ماذا لو فى نفس الليلة علم زوجها ذيونيسيس بالأمر، آه لو علم، يا للكارثة! تعبيرات وجهه الأصفر، وعرقه الذى سيصبه. جبان، عديم الرجولة، مدعٍ. ليس لديه سوى الكلمات الفضفاضة، النضال، الحرية، الأخوة، كلام كلامٍ كلام وفقط. من يجبره على قول هذا الكلام إذا كان لا يؤمن به؟ يا ربي، يا للكارثة، وهكذا فجأة. كل ليلة لسبع سنوات الآن، تنام فى أحضانه. بذر داخلها كل هذه الأطفال. ولم يظهر لها العفونة التى تتحلل

داخله. رجال، آه من الرجال... ما قيمة الجمال وقوة البنيان؟ فالرجال هم رجال وكلهم متشابهون والاستثناءات فيهم نادرة جدًا. وعاشت معه ثلاثا وعشرين سنة وكم من السنين تبقى لها معه، مع هذا الفاسق الثرثار المتفاخر عن كذب، ذى الشارب المبروم والعينين الجاحظتين السريع السباب وبداخله لا شيء سوى أحشاء عفنة. ورغم كل هذا لم تخنه ولم تشِ به، لم تُظهر حقيقته لأحد، ولم تعرف أبدًا أى رجل غيره. امرأة عفيفة مثل اسمها الذى سمّوها به فى ناكسوس، آريان، آرياغنى والذى يعنى الأكثر نقاء وطهارة. سنوات الآن وهى تمنعه من لمسها وإن كانا فى نفس الفراش رغم محاولاته وتحايلاته وتوسلاته ولمساته، لكن آريان لم تكن تتجاوب معه فقد كان يلهو مع أخريات من النساء الساقطات، كان يعود للبيت تفوح رائحته بعطور النساء، لتنعم به العاهرات! رجل كهذا عديم الرجولة. وبعد سنوات ولد نيكوس إحدى بذوره فهل ضعف قلبها ولان؟ ربما شعرت نحوه بالأسى؛ لكنها كانت تفكر فى حالها. فكرت ذات يوم بأن رجالا كأولئك الذين فى مخيلتها لا يوجدون، حتى هؤلاء الذين هم أفضل من ذيونيسيس، وأفضل منه بكثير بعد فترة يصيبهم العفن. وبما أن الرب منحها هذا الرجل الذى لم يكن لا أفضل ولا أسوأ من غيره، ستتعامل على أن الأمر عادى وأنها لا تراه، وستعيش معه ما تبقى لها من العمر كرفقة، إذ إن الشيخوخة لا بد أن ينتبه لها المرء ويستعد لها باكرًا فى هذا العالم الذى نعيشه، ومع هذه النوعية من البشر.

آه، نعم، كانت تتذكر جيدًا، فى نوفمبر من عام ١٩١٨ كانت الهدنة وفى أوائل عام ١٩١٩ اشتعلت هتافات «يحيا الوطن». امتلأت الشوارع

بالطرابيش الحمراء والأعلام ذات الثلاثة أهلة. فى الصباح جاءت إليها إحدى جاراتها العرب، والتى اعتادت أن تخرج من البيت بعد أن يخرج زوجها للعمل وقالت لها: «هلمى يا أختي، الإنجليز فى ميدان عابدين افترشوا خيمهم وحملوا بنادقهم!»، لكن آريان كانت تغسل سراويل الأولاد الذين كانوا يلعبون فى الحجرة التى فى عمق المنزل؛ كانت قد وضعت حبوب الحمص تغلى على النار، أين تترك كل هذا وتذهب لتشاهد ما يحدث فى الميدان، وإن كان القصر فى عابدين على بعد خطوات من بيتها. بعد قليل سمعت دوى طلقات الرصاص، كانت مثل أصوات الألعاب النارية فى عيد الفصح. أطلق الإنجليز الرصاص فى الهواء لتفريق المتظاهرين. وبالفعل بعدها حل صمت عميق. وفجأة سمع صوت هتافات من بعيد، مثل أصوات شجار وشغب. وبعدها صوت رصاص مرة أخرى. ثم صمت عميق. توقفت عن السمع فقد كان عليها أن تنتبه لأعمالها. جاءت لها الجارة مرة أخرى تلهث ووجهها مصفر مثل عملة برونزية، جلست وطلبت منها كوبًا من الماء ثم قالت. « يا أختي، ما اسم هذا الشاب ذى السوالف الذى كان يأتى عندكم بعد الظهيرة؟» كانت تقصد ثيموستوكليس طالب كلية الطب الذى اضطر للمكوث فى مصر بسبب الحرب. كان فنيزيلوس بالنسبة له خادما للحلفاء وقسطنطين عريسا للقيصر، والحرب ما هى إلا أكبر عملية نصب إجرامية فى هذا القرن، ولا بد أن تتوقف بأى شكل. كان يأتى إلى المنزل ويتحدث مع نيونيسيس، وكانت آريان تسمعهما وتصدق ما تسمع عن الاشتراكية وأخوة الشعوب وتجار الموت لشهور طويلة قبل الهدنة، كان ثيموستوكليس هو من أثار الحلاقين الطلاينة والجارسونات اليونانيين ليقوموا بمظاهرة

فى القاهرة حاملين أعلام الحلفاء وضغطوا على كل الشباب من طبقتهم كى ينضموا إلى التظاهرة، وراحوا يهتفون بالسلام باليونانية والإيطالية. ذهب ذيونيسيس وعاد منتشيًا بهذا الإنجاز؛ كان قد نسى مريوله الكبير الذى يرتديه فى العمل. سألت جارتها عن الشاب ذى السوالف فأجابتها «يا أختى لقد حمل حقيبته التى عليها الصليب الأحمر وجثا على ركبتيه فى الشارع يطبّب الجرحى» . «هل هناك جرحى، لمَ لمْ تقولى لي؟» نظرت إليها الجارة بدهشة، وقالت «هناك جرحى وقتلى أيضًا. اخرجى كى تسمعى الأصوات؛ صراخ ونواح. لكن الكل يتحدث عن شجاعة صديقكم ...»، إنه ثيموستوكليس المحرك لمظاهرة الحلاقين، الآن يتجشأ السم مثل راديو برلين. راح ذيونيسيس يهز رأسه : «هكذا إذن يا سيدتي. هذه المرة الألمانى أقوى بكثير. إن ثيموستوكليس يعرف ماذا يفعل». رجال، رجال. لا يستعرض رجولته أبدًا إلا مع ابنه ميخاليس ويصب عليه سيولا من الأكاذيب: «أنا الذى تراه أمامك ياغبى فى الحرب الأخرى»، يا للقرف «من الأفضل أن تنتبه إلى أعمال بيتها ولا تفكر فى هذا الشأن. حسنًا فى اليوم التالى للمظاهرات انحدرت الجموع من الناس عبر شارع المحلات مثل النحل وملأوا الميدان. هدرت الأصوات من الجوامع. الإنجليز وضعوا مدرعة خلف القصر وراحوا يطاردون الجموع من المتظاهرين. لكن المتظاهرين ملأوا شارع البستان والشوارع المجاورة وانزلقوا نحو الأزقة الضيقة، وتوقفت المدرعة فى شارع الدواوين ظنًّا أنهم قد تفرقوا. لكنهم خرجوا من الأحياء الأخرى نحو القصر فنزحت المدرعة مرة أخرى نحو شارع البستان وراحت الجموع تختفى مرة أخرى من أمامها. لم يطلقوا الرصاص الحى

بعد، لكن عندما بدأ الشباب فى قذفهم بالحجارة وزجاجات الكازوزة الفارغة، راحوا يطلقون الرصاص صوب الأقدام. وفجأة: توقفت المدرعة فى شارع البلاقسة حيث كان الحى يمتلئ بالمتظاهرين». «لا، لن تدخل. فالشوارع ضيقة جدًا ولن تستطيع السير فيها»، هكذا قال المتشجعون منهم. لكن الإنجليز ناوروا جيدًا فإذا بالبقالين والقهوجية والعطارين والنحاسين وصانعى الطرشى والميكانيكية والخياطين وصناع وبائعى الحلوى والحدادين يسحبون أغراضهم داخل المحال ويجرُّون عدّتهم وطاولاتهم للداخل وغرق المكان فى الصمت والظلام، حشروا فى الداخل مع المتظاهرين الذين كانوا من أحياء أخرى. قال الشجعان منهم: «خسارة لم نفكر قبل قليل بعربات الطماطم لنقلبها أمامهم لنعطلهم». غرست عجلات المدرعة فى الطين المزمن لشارع السوق الضيق، راح الموتور يطن والعجلات تدور فى الطين إلا أن المدرعة استطاعت أن تجد طريقها فى النهاية. راحت المدرعة تسير وتضرب بهدوء الأبواب والنوافذ وتدوس على كل ما يقابلها. وصلت إلى الناحية الأخرى والسوق الآخر للأحياء العليا أمام الصنبور العمومي. انكمش المحصل داخل الكشك الخشبى الصغير الضيق الذى يتسع له بالكاد جالسًا. النساء اللاتى يحملن جرات الماء النحاسية وأوعية الكيروسين اللاتى اعتدن على الشجار حوله اختفين تمامًا. حتى السقا لم يتوقف ليملأ قربته وهرول بعصاه صائحًا كعادته: «يا قوي، مدنا بقوتك يا الله يا قوي!»، الرصاص ثقب كوخ السقا وقربته فراح الماء ينزف منها على الأرض أحمر. وبعد بعض من الوقت قالت آريان إنها ستذهب، فقد حل الشر على أى حال. راحت وأغلقت على الأطفال فى غرفتهم. اقتربت

من النافذة وألصقت عينيها على فتحاتها. من هناك وعلى الجهة المقابلة لها كانت تراهم يصنعون الكفتة العربية الصغيرة بالفول والمقدونس والبصل ثم يلقونها فى الزيت المغلى فكانت الرائحة تخلب العقل و تفتح الشهية. كل صباح كانت ترى الفتى يطحن فى الهاون الحجرى الذى كان يصل حتى وسطه الفول المسلوق بيد رخامية. اعتاد يونس أن يعمل مرتديًا سرواله الداخلي؛ كانت آريان دون أن تجول بخاطرها أفكار خبيثة تسرح وتتوق إلى عضلات ذراعيه وصدره. وها هو يونس لا يعمل اليوم، كان يرتدى جلابيته ويجلس وحيدًا. عيناه تطلقان شررا؛ كان يروح ويجيء من الهاون إلى المطبخ مثل وحش كاسر فى قفصه. فى هذه اللحظة سمع صوت موتور المدرعة التى دخلت مرة أخرى إلى البلاقسة من الجهة الأمامية لكن دون أن تطلق الرصاص. ربما يكون قد نفد منهم الرصاص، أو ربما كانت تناور. بعدها سار كل شيء بسرعة البرق. رأت يونس فور أن مرت المدرعة وهو يهجم رافعًا شيئًا إلى أعلى ثم سمعت على الفور صوت يد الهاون يدق فوق سطح المدرعة المعدني. وعندما صار صوت موتور العربة بعيدًا، لملمت آريان شجاعتها وفتحت أبواب النافذة قليلا كى ترى ماذا حدث للرجل. وها هو ساقط على ظهره فى الشارع ويضع يده على صدره واللون الأحمر غطاه كليًا. لم يكن أحد حوله. كان يجب أن يعتنى به أحد على الفور فلو عاد الكلاب سيهرسونه تحت عجلات المدرعة.

كم سنة مرت... عندما ولدت التوأمتان لم تعد الشقة فى الطابق الأرضى تسعهم فانتقلوا إلى شقة أخرى فى أحد الشوارع المظلمة. كان منزلا قديما لأحد الأتراك. شبه أطلال. لكن الشقة كانت بها أربع غرف كل

منها لها مشربيات وأرضيات خشبية، كانت خطرة فقط فى بعض المناطق المنتفخة. كل هذه السنوات كان يونس مختفيًا وفى نفس الوقت حاضرًا على الدوام. وعندما كان يتصادف أن تلتقى عيونهم كان ينظر إليها دائمًا بشيء من التساؤل، شيء من الرجاء. مثل هذا الطفل ذى البيجامة المتسخة والذى ينتظر دائمًا أى عمل من أعمال المنزل ستأمره ليقوم به.

(٤)

حلت أعياد الكريسماس فى طبرق. لكن لم أكن أعلم شيئًا عن الزمان ولا المكان اللذين أوجد فيهما. ولا حتى إنه على بعد ميل من المشفى البولندى كان يعسكر اللواء اليونانى الأول. كل هذا علمته بعد أن وجدنى ميخاليس بيومين أو ثلاثة. أظن أن رأسه الحليق كان أول اتصال لى بالواقع بعد أن دارت شخوص لا حصر لها واقعية وخيالية حولى وهو أمر أرهق عقلى كثيرًا. رأس ميخاليس الحليق الجامد يضحك فوقي.

ـ لقد نجوت بأقل خسائر ممكنة يا وغد.

قال لى إن إصابتى لم تكن كبيرة. ستترك لى جرحًا غائرًا من تلك الجروح التى تعجب البنات، والآن سنذهب بمجد الأبطال إلى أثينا.

ـ قلت له، تكلم جيدًا، أشعر بالدوار ولا أستطيع متابعتك.

ـ لماذا تعتقد أنهم أعادونا من «أوجلة»، سنذهب لتدريبات الصعود والهبوط ثم سنقضى أعياد الفصح فى اليونان.

ـ تحدث بشكل جيد أقول لك. رأسى يشتعل، أشعر أن مصباحًا يشتعل داخله. أين نحن؟

قال لى إن هذه هى المرة الخامسة التى يزورنى فيها وكم أننى كنت محظوظًا إذ إن هذا المشفى الذى أحضرونى إليه من بنغازى وصل فى نفس اليوم أحد الجراحين البولنديين وهو من أنقذني.

ـ استوقفنا البدو. كنت أظن أننا سنكون على بُعد خمسين ميلا تقريبًا. الطريق مربك حقًا أثناء الليل. لكن عندما رأيت الفيات مقلوبة فهمت ما جرى.

ـ البدو! سألت.

ـ لا شيء، دعك منهم. ألم أقل لك ألا تشعل النار؟

ـ وهل تركت السيارة الملعونة تصدأ مع مثيلاتها فى ساحة الخردة؟

ـ بالطبع لا، جررتها حتى أجدابيا. ماذا عساى أن أفعل أكثر من هذا؟

قلت فى نفسي: ما هذا الشغف بالسيارات لدى هذا الفتى؟

أنا لن أترك رفيقى المصاب فى أيدٍ غريبة. هل تدرى بمَ فكرت؟ قال وأخفض عينيه بحزن.

ـ فى الحقيقة لم أكن أظن لا أنا ولا أى أحد أنك ستنجو. عندما وصلت إلى السرية سألت: هناك ملازم يدعى سيمونيذيس، فقيل لي: انتهى أمره. والآن عندما عدنا ووصلنا إلى طبرق تذكرت ما قاله البولندى وذهبت كى

أسأله، قلت فى نفسى فمن يدرى؟. لا تتخيل مدى فرحتى عندما قالت لى المرضة لي: ربما يعيش وربما لا، "فيفتى فيفتي". كان الأمر أشبه بالبعث بالنسبة لى وإن لم تكن تشعر بى عندما كنت أناديك. كنت تهذى كثيرًا. وضعوا الثلج على رأسك. كانت حالتك صعبة جدًا يا صاحبي. عندما جئننا كانت أعياد الميلاد حلت. هل تعرف أحدا يدعى غاريللا؟ جئنا فى أعياد الميلاد إليك وكانت المرضة تحاول جاهدة أن تطعمك؛ هل تتذكر؟

- غاريلاس، من السرية الثانية؟

- نعم، لقد أرسلوه برسالة. عندما كانت تطعمك المرضة دفعت الطبق بيدك فسقط الطعام على وجه المرضة. كانت على وشك البكاء، ألا تتذكر شيئًا؟

- سألته. وأين غاريلاس الآن؟

- لا أدري، فى الإسكندرية ربما أو القاهرة أو أورشليم. لكنهم رتبوا مع الحراس عندما نذهب من هنا أنك سوف تذهب للنقاهة فى المستشفى اليونانى بالإسكندرية. كم أنت محظوظ.

محظوظ! منذ اليوم الذى وطئت فيه أقدامى الشرق الأوسط وأنا أحمل خططًا كبيرة، أتخذ دومًا قرارت بطولية، والقدر الساخر دائمًا يأتينى بالعكوسات. لكن أى قدر؟ لماذا لا أقول إن شخصيتى هى السبب فى كل هذه العكوسات. كل ما أريده يأتى على عكس احتياجات النضال فأضطر دائمًا أن أفعل شيئا آخر. هل أنا متمرد أم متردد؟ سيعرف الشخص التافه الوضع بأنه توافه ثقافية مترددة للطبقة الوسطى.

- من هى نانسي؟

- نانسي؟ لماذا تسأل؟

- كنت تناديها كثيرًا كما كنت تصرخ باسم آخر، انتظر .. ماذا كان....

- لا أذكر أحدا يُدعى نانسي.

- قال غاريلاس عن الآخرى، ما اسمها، إيلا، إيما، شيء كهذا...

- حسنًا؟

- لا شيء. قال إنك تعرفت إليها فى أورشليم.

- ربما، لكن قل لى فيم يهم هذا الآن. هلا قلت لى متى سأخرج من هنا؟

- لماذا تملكتك العجلة الآن يا سيميونيذس؟ ألست شاكرًا بأنك نجوت؟ انظر إلى تلك المرضة كيف تنظر إليك متبسمة. قل لها كلمة لطيفة فأنت تتحدث الفرنسية. لقد اعتنت بك وسهرت عليك طيلة الأسبوعين الماضيين.

كانت المرضة بولندية طويلة وقبيحة ولها أسنان كبيرة صفراء اللون. كنت أراها فى كوابيسى ترتدى ملابس عروس وتصعد سلمًا خشبيًا وترفع مصباح الجورنيكا عاليًا. وأنا كنت أنتظرها على رأس السلم أرتدى حُلة عرس أبي، لكننى لم أكن أرتدى صديرية القميص فكان صدرى عاريًا. عندما انحنت واقتربت منى بوجهها وأسنانها سمعت صوت صهيل خيل تهدر فى رأسي. رحت أدفع المصباح المشتعل بكلتا يدى وعندها خلعت هى حذاءها الأبيض وجواربها وراحت تدوس على بطنى بقدمها العارية كى أتقيأ. وبعد

قليل أحضرت حوضًا كى تنظفني. ألقت على رأسى الماء فانطفأ المصباح. ثم قالت: " أيها المتذمر، كم تحب المداعبة" .

. أيها الشاويش، قالت بالفرنسية ثم اقتربت بابتسماتها المنفرة: هذا أول يوم يفيق فيه فدعونا لا نرهق مريضنا.

. تطلب منى أن أغادر، أليس كذلك؟

. انتظر لحظة يا ميخاليس. هل حقًا سنقوم بالهبوط؟

. هكذا يقولون. إنهم الروس يا أخى هم من أمروا، وتعلم لديهم رهبة ما...

. قالت مرة أخرى بحزم هذه المرة: أيها الشاويش.

. حسنًا إذن. ألقاك غدًا. آآه.. كنت على وشك أن أنسى. لديك خطاب. جاء عن طريق بريد الحذاء العسكري، أفهمت؟

دس فى يدى حزمة ورق مطوية وربت على كتفى ورحل وهو يرمى التحية العسكرية لباقى المرضى فى العنبر.

عندما تركتنى المرضة وحيدًا فتحت الحزمة ببطء. كانت تحتوى على رسالتين. كتب لى فانيس من القاهرة أن أتعامل بجدية مع كل ما يتهموننى به من فلسطين. السلطات الإنجليزية فتحت لك ملفًا وتطلب القبض عليك، لذلك إذا عادت السرية إلى مكانها السابق سأجد وسيلة كى أتخلف فى الإسكندرية أو القاهرة. الرسالة الأخرى كانت من نينا الطبيبة، كتبت لى

بطريقة ملتفة كي تقول إن ثمة شخصا يهدى إلي نصف زجاجة من العرقي: فهمت: رابيسكو تقول إن الشتاء صار خطيرًا، الشتاء؟ آه، لابد أن أحترس من وينتر. أضافت شيئًا أكثر غموضًا لم أستطع أن أفك شفرته: "الحمل يسير بشكل طبيعي. السيدة عادت. قُتل صديقها. تبحث عنك لكن لا أحد يعرف أين أنت". السيدة، يعنى نانسي. لابد أن رون قد قتل. لا يعرفون، يعنى أن إيمى لا تعرف. لكن من هى الحبلى؟ هل لا بد أن أربط هذا بتهديدات وينتر؟ شيء مثل: ملفك ينتفخ؟ لا. وإلا لماذا بدأت خطابها بجملة: "فى حالة إذا لم تجبني.."، هل ضاع خطابها؟ ومن أين تعرف إيمي؟ ولماذا تبحث عنى نانسي؟ مشكلات. يبدو أن عقلى لا يعمل بالكفاءة المعتادة.

السرية احتفلت برأس السنة فى العامرية على بعد ثلاثين كيلو مترا غرب الإسكندرية. فى نفس اليوم فى طبرق كانت البولندية تفك الأربطة عن رأسي. طلبت منها مرآة. قالت "انتظر حتى أحلق لك ذقنك أولا" مرت بالماكينة العالية على ذقنى ثم بعد ذلك وضعت رغوة صابون كثيفة مع ماء ساخن ووضعته على وجهي. لم تجعلنى أنهض من الفراش. فقط رفعتنى قليلا بوضع بعض الوسائد خلف ظهري. قالت لى "غدًا سنقوم بخطواتنا الأولى فى الحديقة". هكذا أخبرها الطبيب أن فى الأيام الأولى سوف أشعر بالدوار أثناء السير مما قد يفقدنى توازنى ولا بد من توخى الحذر. جلست نصف جلسة ووضعت أحد ردفيها على طرف الفراش ووضعت يدها برفق على جبهتى وباليد الأخرى مررت ماكينة الجيليت وراحت تحلق ذقني. شفتاها كانتا ترتعشان قليلا، لكن فى الحقيقة كانت يدها متزنة أفضل من أى حلاق، هادئة تمرر الموس برفق وعناية حتى إن بقية المرضى على الأسرة الأخرى

راحوا يقذفون بعض الكلمات بالبولندية. ربما بعض المداعبات الثقيلة لأنى لاحظت أنها تنفث زفيرًا ثقيلا به شيء من الغضب وتتحاشى النظر إليهم. وأنا أيضًا لم أنظر لهم. لم تكن علاقتنا جيدة. منذ اليوم الأول الذى بدأت أتبادل معهم بعض الكلمات، فهمت أن أغلبهم معادون للسوفيت، وكأن حائطًا من الجليد وضع بين فراشى وبقية العنبر.

انتهت الممرضة وشعرت بشيء من التحسن بعد أن أزالت كل هذا الشعر الذى نما على وجهي. وعندما جاءت بالمرآة نظرت إلى وجهى وكأن شيئًا هدم داخلي. جرح عميق يبدأ من حاجبى الأيسر ويحفر فى جبهتى ويمتد حتى رأسى المحلوق. كان الجرح واضحًا ولونه أحمر، أحمر جدًا. سألتها وأنا أعطيها المرآة، "هل سأظل هكذا طيلة حياتي؟"، فأجابت وهى تعيدنى للخلف مرة أخرى "من قال لك هذا؟ سينمو شعرك ولن يبقى على جبهتك سوى أثر التقطيب مثل تجعيدة بسيطة ستغطيها أيضًا شمس الصحراء التى ستلون كل شيء ولن يظهر أى شيء. يمكنك أن ترتدى البيريه حتى ينمو شعرك. ما رأيك؟" "بيريه"، قلت "فى باريس فى فصل الشتاء كنت أرتدى البيريه"، تذكرت أول بيريه اشتريته وغرقت فى حزن مليء بالضباب والغيوم والنور الباهت. كان المطر غزيرًا فى شهر ديسمبر أمام محل القبعات فى بوليفار سان جيرمان، كانت معى صديقة لم تبقَ معى سوى أيام الأعياد الخمسة عشر. هى من اختارت لى اللون الأصفر وقالت لى "حتى تكون شمس وطنك ملتصقة برأسك". كم كانت مجنونة.

وضعت الممرضة على ركبتى حزمة من الورق الملون والشرائط وقالت

لى "عام ١٩٤٣ سعيد عليك" . "أتمنى أن نقضى نفس اليوم من العام القادم فى أوطاننا"، خجلت من نفسي. فلم أقل لها أى أمنية منذ الصباح أو كلمة شكر من أجل الهدية. "افتح الهدية، افتحها حتى تقول لى إذا أعجبتك". طبعًا، بيريه، جاء من أحد المحلات الحديثة فى الإسكندرية، بيريه ليس عسكريًا. كانت قد طلبته منذ عشرة أيام من رئيستها فى العمل التى كانت فى إجازة. وكانت الأيام تمر وهى متخوفة من ألاَ تصل الهدية فى يوم رأس السنة، إلا أنها أخيرًا وصلت ليلة الأمس! وصل موكب سيارات إلى الميناء ومعه كان هناك حوالى عشرة ضباط وعساكر وكتبة للخدمات اللوجيستية البولندية. أحضروا معهم البيريه. دعت الممرضات الزوار أن يقضوا معهن ليلة رأس السنة. هنا فى الحديقة أعدوا المائدة إلا أنهم الآن ذهبوا إلى الكنيسة.

- قبل عشرة أيام؟ هل كنتِ متأكدة من أننى سأنجو؟

- وددت بشدة أن أحضر لك هدية ودعوت الرب أن يشفيك حتى لا أُحرم من هذه الفرحة.

ماذا أقول لها؟ شعرت بغصة فى حلقي. أمسكت بيدها كى أقبّلها، إلا أنها شدت يدها بسرعة وغادرت.

عند الظهيرة دخل الضباط مع العساكر إلى العنبر، وبدأت القبلات والتحيات العسكرية ودق الكعوب على الأرض والضحكات والانحناءات والمغازلات، شعرت أننى على أراضٍ ألمانية. أهدونى أنا أيضًا وردًا أصفر

اللون يشبه الأقحوان اسمه سوشي. لكن عندما رأوا أننى لا أجيبهم بالبولندية تبسموا بأدب وتركوني. فى الخارج نصبت المائدة، سمعت أصوات ضحكات وقرع الكئوس، وبعد قليل خلا العنبر من الجميع. نقلوا المعوقين على المقاعد المتحركة. اختفت المرضة البولندية. لا بد أنها قالت لهم ألا يحركنى أحد من على الفراش، إذ إنه لم يقترب أحد مني. شعرت بوحدة الغريب. أين ميخاليس وغاريلاس وفانيس؟ كيف يحتفلون الآن بعيد رأس السنة؟ ما أمانيهم للعام الجديد؟ وكيف أمى فى كيفيسيا وألكيس؟ ستقضى نانسى اليوم غارقة فى الذكريات، لكن إيمي؟

كنت سأنهض من الفراش لأذهب أنا أيضا إلى الحديقة لكن كبريائى منعني. لحسن الحظ تذكرونى وأرسلوا لى صينية الطعام مع ممرضة رشيقة. كانت تنتظر أن أنتهى من طعامى بفارغ الصبر حتى تلحق بالآخرين. قالت لى إن الأطباء ذهبوا بإحدى السيارات إلى أحد بيوت البغاء فى درنة تاركين مسئولية المشفى للمرضات. قالت لي، "فودكا، فودكا بولندية، هل تريد كأسًا من الفودكا لتحتفل؟"، لكن رأسى كان يتأرجح بالفعل دون أن أشرب شيئًا. رجوتها أن تنزع عنى الوسادة من خلف ظهري، ملت نحو الحائط، غطيت أُذُنَيَّ حتى لا أسمع الأصوات ونمت. مع البيريه.

من لم ير بولنديين سكارى يحتفلون برأس السنة لا يدرى ماذا تعنى العربدة. عندما انتهت الفودكا التى أحضرها الزوار، انتهكت المرضات احتياطى الأدوية، أخرجن جالونات الكحول النقى وراحوا يشربونه رجالا ونساءً دون أى إضافات من العبوات مباشرة. نزع أحدهم زر الكهرباء

وغرقنا فى الظلام. شيئًا فشيئًا راح العنبر يمتلئ بأزواج من المرضات والضباط والضابطات والمرضى، سقطوا على الأسرّة وراحوا يتقلبون على الأرض، على الرخام البارد. إحدى المرضات قصيرة القوام نصف عارية لا أحد يدرى لماذا فتحت كل النوافذ. دخل الصقيع داخل العنبر محملا برائحة البحر لكن أحدا لم يشتك من هذا. خارج النافذة كان القمر أصفر اللون مرهقًا مشوهًا مثل قطعة عملة بيزنطية على سطح صراف أسود. اقتربت البولندية وجلست على طرف الفراش.

ـ قالت، هاللو، ألم يصبك الضجر من هذا البيريه؟

ـ أجبتها، هاللو.

مررت يدها من تحت الأغطية واستمرت وبعد بضع لحظات:

ـ لا شيء؟

ـ لا شيء.

ـ لكن لا بد، لازم. يحتاج الأمر إلى نوع من التنفيث. أخشى أن تصاب بنزيف دماغي.

ـ يبدو أن القذيفة أو المشرط قد لمس عصبا فى الدماغ. أنا لا أشعر بشيء.

سحبت يدها ببطء وبنفس اليد مسحت على شفتيّ وخديّ.

ـ قالت، أنت شخص رقيق ومهذب، أشكرك. أعرف أننى دميمة. رأيتك

وأنت في الحمى كيف تنفر مني. سمعتك تحت تأثير المخدر وأنت تتحدث الألمانية مع امرأة وترتل لها بعض أبيات الشعر. سأذهب وأرسل لك إحدى الجميلات من اللاتى جئن اليوم.

. ناديتها وقلت. لا تغادرى من أجل الرب. أنا حتى لا أعرف ما اسمك؟

.ليست بك حاجة لأن تعرفه. ليس هناك داعٍ.

. هل تستطيعين أن تذهبى بى إلى الحديقة قليلا؟ أعرف أن الحركة ليست جيدة بالنسبة لي.

هرولت لتحضر لى البالطو والخُف. رفعتنى بحرص شديد، غطتنى جيدًا ووضعتنى فى أحضانها وخرجت بى ببطء للهواء النقى والصمت. راح قلبى يدق بقوة وبلا انتظام. دار رأسى بي. مررنا من الحديقة وخرجنا نحو الطريق العام. قادنى حدسى أن ألتفت برأسى نحو الميناء والبحر الذى كان يهتز وارتفع موجه تحت ضوء القمر المائل. يبدو أننى أصبت بالإغماء فى أحضان المرضة.

كان مجرد تهوّر فى بداية السنة الجديدة، أم أنها قد تقدمت فى السن؟ بعد أيام قليلة تم حل المشفى البولندى فى طبرق. جاءت الأوامر بالنسبة للمصابين أن يتم نقلهم بطائرة مائية إلى الإسكندرية. فى أثناء هلع التجهيزات أولتنى المرضة جانبا من العناية. ذهبت إلى مكتب الخدمات الإنجليزى وأحضرت لى ملابس وأغطية وحذاء وحقيبة ملأتها بالسجائر والشوكولاتة والبسكويت وأربع دست من الواقى الذكري. قلت وأنا

ألقى بالصندوق على الحشية "هذا ليس له لزوم" . فقالت لى "من فضلك لا تتصرف كالأطفال، أنا متأكدة أنك سوف تحتاجها. تعرف أن دعواتى مجابة. لا تنس البيريه" .

وصلنا الإسكندرية عند الفجر، بدون مرافقة أو مفاجآت. فى الميناء البحرية انتظرنا سيارة الإسعاف كى يوزعونا على المستشفيات المختلفة. لم تتركنى البولندية للحظة. جاءت إلى المستشفى اليوناني، سلمت الأوراق إلى المسئول، صعدت معى كى ترى كيف ستترتب أموري، بدلت لى ملابسى وألبستنى بيجامة جديدة، ضبطت أمر الفواتير وأعطتنى المتبقى من الرواتب المتأخرة من القاهرة. تأكدت من أن هناك قنينة ماء وكوبا بجواري، طلبت أن يحضروا لى مزهرية، وعندما لم يتبق شيء لتفعله ألصقت جبهتها على زجاج النافذة وشردت فى الليل الذى بدأ يحل. قالت، "أنتظر حتى يجهزوا إيصال الاستلام ثم سأرحل". الغرفة كانت تحتوى على سريرين. على السرير الآخر كان هناك رجل عجوز خفيف الشعر مصاب. كان ينظر إلى السقف بعيون كريستالية لا تهتز. قالت المرضة البولندية "لقد تأخروا" ثم خرجت. عندما عادت ذهبت مرة أخرى نحو النافذة وقالت وهى تنظر للخارج "كل شيء على ما يرام، سأرحل. كنت أود أن أتركك بصحبة أفضل من هذه، لكنهم قالوا لى إنه من الصعب أن يبدلوا لك الغرفة اليوم. انتبه لرفيقك بالغرفة، قالوا إنه أصيب بتسمم، لكن الحقيقة أنه حاول الانتحار". عادت فجأة ثم أخذت رأسى بين يديها ونظرت إليّ بعينيها اللتين بدتا لى غاضبتين، قبلت جرحى ثم خرجت مسرعة بعد أن أغلقت الباب خلفها.

ـ قال جاري، إنهن ملعونات، دائمًا يحشرن أنوفهن فى كل شيء.

ـ هل ضايقتك البولنديات فى شيء يا رفيق؟

ـ بولنديات، يونانيات، شيطانات. ألسن نساء؟ عشت سنوات فى مرسيليا وأفهم الفرنسية.

ذهبت نحوه ومددت له يدي.

ـ قلت أنا الملازم سيمونيذيس من سلاح المشاة.

ـ وأنا فوتيروس، بحار، فرصة سعيدة.

ـ هل تعرف شاعرًا يُدعى ماناراس؟

ـ لا.

أى بحّار فى مرسيليا لا يعرف المعلم؟ غريب.

ـ قلت له من المسئول عن البحارة؟

ـ لا أذكر. إذا أردت أى كتاب للقراءة لديَّ هنا فى الدرج.

أراد أن ينهى الحديث. لم تكن لديه رغبة فى الكلام. تركته وخرجت كى أتعرف على الوضع هنا. كان لا بد أن أجد شخصًا يساعدنى فى الاتصال بالسرية.

عندما عدت إلى الغرفة، كنت قد عرفت أشياء كثيرة. عرفت متى ستغادر السرية إلى البحيرات المرة، أين روميل، تسونيروس، كانيلوبولوس، ما

آخر بيان للسوفييت، لماذا توقف زحف الحلفاء فى بنزرت. كما عرفت أيضًا أن فوتيروس هو واحد منا ونشاطه كان فى الجناح الإسباني، وبالفعل حاول الانتحار بالحبوب المنومة. أحد أولاد عمومته البحارة من الذين وصلوا بالمركب أرسل له خطابًا من السويس أنه رأى زوجته فى كازابلانكا فى أحد بيوت البغاء. كان يحاول العثور عليها منذ عام ١٩٣٩ عندما تاهت منه فى مرسيليا، وظل يبحث عنها. لم يحتمل أن تكون زوجته عاهرة فحاول الانتحار.

الغرفة كانت مظلمة. ضغطت على زر الكهرباء فوجدته فى نفس الوضعية ينظر إلى السقف.

. يبدو أن الحرب تسير على ما يرام، قلت من أجل أن أقول شيئًا وحسب.

. الحرب تسير على ما يرام، والرفقاء يؤدون واجبهم على أكمل وجه، لكن الإنسان بداخله خراء ولا يتغير.

. هيا يا صديقي، بربك لا تيأس.

. لو أعرف فقط لماذا فعلت هذا. لم تظهر عليها أى علامات أنها كذلك، لو كنت أعلم لوضعت رأسى تحت المقصلة. كانت تبدو أنها إنسان صالح، كشخص أعرفه جيدًا، مني، منا، لا أعرف كيف أصف هذا؟ شيء ما كُسر بداخلها. أخريات يسلكن هذا الطريق لسن هي، لكن هي، كيف؟ هل كانت الصحبة والنصح يغيبان عنها؟ لا. عدت من رحلتى بالهدية كالعادة فوجدت

المنزل خاويا. قالوا لى إنها رحلت، أخذت ملابسها ورحلت. بقيت فى مرسيليا ودرت فيها على قدميّ بحثًا عنها ولم أجدها فى أى مكان. ذهبت إلى ميناء بيريبا فى اليونان وبحثت فى كل ثقب فى المدينة ولم أجدها. ذهبت إلى جزيرتها مسقط رأسها، لم يرها أحد. طفت بموانئ البحر المتوسط، وكلما وجدت يونانيا أعطيته صورتها وعنوانى ليكتب لى إذا ما رآها. ظل الوضع هكذا لأربعة أعوام. أربع سنوات فى حياة كهذه لا بد أنها قد تغيرت. أتساءل كيف تعرف إليها ابن عمى الصغير. هل ذهب ليتعرف إليها، هل تحدثا؟ لم يكتب لي.

ـ لأنك تحبها يا صديقى حدث لك هذا وابتلعت الحبوب.

ـ أعرف. فهمت ذلك فيما بعد. كل هذا يدور فى رأسى منذ يومين ولا أستطيع النوم. أحبها وتحبني. لم ينقطع هذا الحبل أبدًا. عندما تقول هذا يبدو الأمر مضحكًا، مثالية. لكن أعرف أن الأمر كذلك، أشعر به فى دواخلي. لذلك أقول لك إن داخل الإنسان خراء ولا يتغير. وليفتك الرفقاء عقولهم فى القراءة والحكمة.

ـ لكن الرفقاء بشر أيضًا يا فوتيروس!

ـ فى البدء هم محاربون. هذا هو الواجب. يُغطِّى العفن الإنسانى فى هذه الحالة حتى يفنى.

بدأت أتساءل ربما يكون الذنب ذنبه.

ـ هل أهنتها ذات مرة؟ هل كانت تغار عليك؟

. نعم كانت تغار، هو أمر طبيعي... فأنا أعمل بحارا. لم أكن أقول لها كل شيء، لكن عندما كانت تسأل كنت أحكى لها الحقيقة. لا،لا، ليس هذا. أنا أعرف ما الذى جعلها ترحل. خجلت أن تنظر إليّ فى عينيّ عندما فهمت العفن الذى بداخلها.

. إذن هناك ثمة سبب. لماذا تزعج نفسك بالتساؤل؟

. حاولت الخطيئة ومنعوها. لم يحدث شيء. حتى وإن أرادت وإن فعلت، لم أكن لأعرف شيئا على أية حال. هذا ما سيقتلني. ليس لديها سبب لترحل.

. إن لم ترتكب الخطيئة، فعن أى عفن بداخلها تتحدث. هل الأمر كان فى ذهنها؟ فى هذه الحالة إذن، كنت تخونها أنت بجسدك وهى بعقلها ولا تجد أنك أخطأت فى شيء.

. ليس هذا كذاك. فالبحار مسموح له. كانت تفهم هذا جيدًا وتزنه.

. ربما لم تكن تقبله، لا بد أنك غبت عنها فترات طويلة، ثلاثة أشهر مثلا. هى بشر ولها احتياجات.

. هذا ما أقوله لك من البداية. الإنسان هو كتلة من الخراء.

أصابنى الدوار. هل لم أكن أفهم ما يقوله هذا المعتوه؟ تحججتُ بتعب السفر حتى أقطع هذا الحوار.

في اليوم التالي طلب فوتيروس سيجارة. كانت هذه علامة جيدة، إذ إنه لم يكن يقبل أن يضع شيئًا في فمه حتى الآن. بدأ رذاذ المطر خفيفا في الصباح الباكر وبدا العالم الخارجي نظيفًا مغسولا براقًا في الهواء الرمادي. جو يوحي بالجلوس بالمنزل حول مدفأة الخشب ودفء أسريّ. كلانا ألصق جبهته على الزجاج. الغرفة كانت تطل على مقابر العرب. قال: "انظر إلى تقاطع الشوارع، الميدان المشجر. يصنعون لهم بيوتا صحية بنوافذ كبيرة وبلكونات وفناء. بيتنا في مرسيليا كانت به شرفة كبيرة وحديقة خضروات صغيرة".

في البداية كانت الباخرة الإسبانية تحمل ذخيرة بوذاساكي إلى برشلونة وملجا وإلى سانتاندير وإلى أي ميناء أخرى يطلب منها. لم تكن قد ظهرت بعد "غواصات موسوليني الخفية" كي تغرقها. ولكي يشتري هدوء باله أحضر زوجته من بيريبا إلى مرسيليا. تصادف أنه كان هناك أحد اليونانيين يؤجر منزله الصيفي في ماريتيج على مبعدة نصف ساعة من الترام وأهداهما الأثاث. جعلا حجرة من البيت من أجل العابرين الذين يصادف طريقهم خط المنظمة الدولي. كانت زوجته تطبخ وتغسل لهم، كانا يجنيان بعض المال إزاء هذا ويوفران بذلك بعضا من تكاليف الحياة. أما هو فكان كلما يقذفه طريق البحر نحو ميناء مرسيليا يهرول نحو الترام ليأخذ طريق البيت الصغير. بجوار البيت كانت تمر قناة مياهها عكرة، وعلى ضفتيها أشجار توت قصيرة فكان يذكرهما المكان بجو أعياد الربيع في وطنهما. في البداية واجهت زوجته بعض الصعوبات فلم تكن تتكلم اللغة الفرنسية، لكنها شيئًا فشيئًا تجرأت فتعرفت إلى جاراتها وإلى صاحب

البيسترو عند محطة الترام، وضبطت أمورها بشكل جيد. عندما كان يتأخر عليها فى العودة كانت تستقل الترام وتذهب إلى المسئول فى شركة النقل البحرى فكانت تهدأ هناك. فى نهاية عام ١٩٣٧ وجد فوتيروس أن أحد الموظفين من الشركة قد استقر فى بيته. كان البيت بمثابة حلقة الوصل فى الذهاب والإياب بالنسبة للعابرين اليونانيين. الموظف تم تهريبه بشكل غير قانونى من اليونان، وكانت الشرطة فى مرسيليا تحت سيطرة العصابات التى تم إبلاغها بأنه مطلوب. لكنه كان معتادًا على مثل هذه الأوضاع. كان قد نظم حياته وعندما يطلب منه العمل كان يخاطر. كان يخرج دائمًا ليلا. ملاحظات وطلبات فى النهار وزوجة فوتيروس كانت تهتم بالأمر. كيف تسير الأمور، كان يسأل وتجيبه بدورها، رائع. لا تتخيل كم هو جاد ويعرف أمورا كثيرة. يرهقنى السير لإحضار طلباته لكن لا ضير، حلال عليه طالما أن هذا لمصلحة النضال. فيقول لها: يسعدنى أن أسمع هذا منك. وماذا عن الجارات؟ تضايقت عندما سألها، وقالت له إنهن يُلسِّنَّ ويقلن ما يشأن، لا يهمنا أمرهن على أية حال: فكل ما يقلنه ليس حقيقيًّا، أليس كذلك. ثم قال لها: إن الحمقاوات يكرهن الغرباء مثل خطاياهن. فى الليلة التالية طلب منه الموظف أن يخرجا لقضاء حاجة ما، وعلى الطريق سأله الموظف صراحة: لقد تعرفت إلى زوجتك، وأود أن أسألك إلى أى مدى تثق بها؟ وراح يسأل عن أدق خصوصيات حياتهما، فقال له فوتيروس إن كل ما يواجهه من صعوبات يحكيه لزوجته خاصة إذا ما تعلق الأمر بمرض ما: تفهمني. فلا أريد أن نقع فى مشاكل مثل تلك بسبب حماقاتي. حينها سأله الموظف إذا كان يعتقد أن لديها المقدرة أن تخونه مع رجل آخر. أجاب فوتيروس لا.

فقال له الموظف: لا تكن جازمًا إلى هذا الحد. فأجابه فوتيروس، اسمع ما أقوله لك يا رفيق: أنا لا أخشى من هذا الأمر على الإطلاق ولا حتى أفكر فيه مطلقًا. ربما ستقول إنها بشر هى الأخرى، فاللحم يصيبه التعفن أيضًا. ربما. لكن لا أريد أن أفكر هكذا لأننى لن أستطيع العيش بعدها. لن يفاجئنى الأمر مثل قطعة قرميد تسقط على رأسي. هل تستطيع أن تسير فى الشوارع محترسًا طيلة الوقت ألا تقع قطعة قرميد من أحد السقوف فوق رأسك؟ سوف تمتنع عن السير فى الشوارع من فرط قلقك.

فى شهر مايو، كانت المرة التالية التى توقفت فيها باخرتى فى مرسيليا، مدريد كانت لا تزال صامدة، أما على الجبهات الأخرى لم يكن الوضع كما كنا نتمنى. التحالفات التى تمت على الصعيد السياسى الحربى راحت تخنق الديمقراطية الإسبانية. البيت الصغير كانت تسيطر عليه حالة من العصبية، وهو ما وجده فوتيروس أمرا طبيعيا. فى الليل على الفراش سأل زوجته كيف تسير الأمور مع الساكن الآخر. كررت له مرتين: الأمور تسير بشكل جيد ثم قالت: لكن لعله يتوقف عن دمدمة الشكوى التى يطنطنها كل يوم. أى دمدمة؟ سأل فوتيروس. فقالت عن القراءة والعمل. أنا أعلم أن الناس يتكلمون فى أمور أخرى، أما هذا فيدق نفس الهون طوال اليوم. النضال، الإيمان.. إلخ، إلخ. لما لا يسكن عند آخرين؟ عندها استشاط غضب فوتيروس وأخرج زفيره من أنفه بقوة. حتى الآن لم يكن قد رفع يده عليها. لكن يبدو أنها قد اعتبرته مصدر قوة لها. أما هو فلم يفعل ذلك إما لأنه كان متفهمًا أن غيبته فى العمل تؤثر عليها، كانت تلهيه طيلة أسبوع إجازته بالغناء والملاطفة وطبخاتها الجيدة. غادر فوتيروس لعمله مرتاح البال بأن

كل شيء يسير كالساعة. تأخر في عودته هذة المرة، وعاد في يناير وقد مر الخريف كله دون أن يتلقى منها أى خطابات، لكنه كان معتادًا على تأخر الخطابات. من يدرِ في أى ميناء كانت حزم الخطابات المتأخرة تنتظره وهو لم يمر عليها. كما أن استخدام التلغراف لم يكن فكرة سديدة. فكر في أن سكن الموظف لديهم لا ينبغى أن يلفت الأنظار إلى منزله. لم يمر على الشركة فقط وقع بالحضور. كان الثلج يتساقط في مرسيليا والرياح شديدة وتجمد الماء في القناة. وجد الموظف وحده يطبخ الفاصوليا باللحم. قال له إنها رحلت، أخذت ملابسها وغادرت ذات ليلة، مر شهران من حينها.

لم يصدق فوتيروس أذنيه. حتى جلس الرجل وراح بصبر شديد يحكى له التفاصيل: من البداية وحتى ساء الوضع، بدأ كلامه قائلا بمدى صعوبة أن يجد المرء الإخلاص في هذه الأيام، وكيف أنه كان مضطرًا أن يضعها في اختبارات. ومن هنا جاء الواجب أن يعرف معدن الشخص الذى يتعامل معه بالتفصيل، وإلى أى درجة يمكن أن يثق به. بدأ بالتدريج طبعًا حتى لا تتفاجأ ثم علا الإيقاع فيما بعد، وسألها عن خيانات فوتيروس. كانت تعرفها، هكذا جاءت إجابتها وأنها تسامحه، وهل فكرتِ ذات مرة أن تعامليه بالمثل؟ أبدًا، مع أى أحد. لكن الرفيق لم يكن من النوعية التى تشبع بالإجابات المتعجلة. كان يعرف كيف يدخل إلى أعماق الإنسان ويعرّى أعمق المشاعر به. بعد بضعة أيام سألها نفس السؤال. جاءته نفس الإجابة. ثم قال لها، أنا لا أسألك إذا كنت ستنامين مع رجل آخر، أنا أسألك هل مرت بذهنك فكرة أنك تنامين مع رجل آخر؟ وأجابت أبدًا. فباغتها قائلا: إذن لماذا عندما تجلسين أمامى على الأريكة لا تربطين حزام روبك وتظهرين لى فخذيك؟

احمرَّ وجهها ولم تدر ما تقول، لو كان قد حدث ذات مرة عن طريق الخطأ، أو أنها ربما لم تنتبه، إنها لا تعتبره رجلا غريبًا وأنها تعامله كأخيها. لكن الرفيق كانت له خبرة بالنساء فقال لها إن هذه الإجابات ربما تَنْطَلى على شخص آخر، فالنساء تعرف دائمًا مَن الرجل الذى أمامها حتى فى أحرج اللحظات. عندها حاولت أن تظهر غضبها وقالت له إنه ليست لديه مبادئ، وأنه قاس جدًا فى تعاملاته مع الناس، وأن هذا الحوار هو النهاية بينهما ما دام يضع مثل هذه الأفكار فى رأسه، وأن المرأة إذا ما أرادت ليست فى حاجة أن تقول شيئًا، فالرجل يَشعر بهذا. ضع يدك على قلبك وقل الصدق؛ هل شعرت أنت حقًا بشيء كهذا؟ لم تنتظر سماع الإجابة، إذ دخلت غرفتها وأغلقت الأبواب خلفها.

مر أسبوع والغضب مرسوم على وجهها. بعد ذلك راح الرفيق يلمح لها ويداعب رأسها بطرق متعددة حتى يطرح الموضوع مرة أخرى. قال لها إن هناك رجالا لا يفهمون ويحتاجون أن تخبرهم المرأة بوضوح. لا، بل يفهمون قالت، يفهمون من أشياء عديدة. كيف، سألها ولذلك لا يقررون. سألته لماذا؟ قال لها لأن المرأة يمكن أن تكون ماكرة وتلعب به ثم ترفض فى اللحظة الحاسمة. قالت له، هذا يعنى أنك من أجل أن تضاجع امرأة لا بد أن تفتح لك ساقيها وتقول لك هيا، أليس كذلك؟ قال لها، نعم. فرفعت الخنزيرة فستانها وجلست على الأريكة وفتحت ساقيها، وقالت له: هيا أيها الغبى سأموت وأنا أنتظرك. عندها نهض الرفيق وقال لها. لا يا سيدتي. لقد أسأتِ الاختيار. نحن لسنا كذلك. نحن ندوس على هذه الخباثات كى نناضل بضمير نظيف. لا نخون الرفقاء الذين يأتمنونا على شرفهم، بل نحمى

عائلاتهم ونحترم السقف الذى قدموه لنا. هيا غطٍّ نفسك بسرعة واغربى عن وجهى قبل أن أرفع يدى عليك.

. يا لها من هاوية، قال بأسنان مطبقة.

. ماذا قلت؟ كان الرفيق محقًّا. كان عليه أن يختبرها. لم يفعل هذا ليتسلى. وكل ما فعله من أجل النضال كان محمودًا. هى التى أخطأت. ألأن غيبتى طالت شهرين فتحت ساقيها لرجل آخر؟ يا للعاهرة. والدليل أنه أحسن صنعًا أنه عندما فضحها رحلت. لو كانت منا. من لحمنا كما نقول، حادث كهذا كان سيفيقها. كان ليجعل منها رفيقة مخلصة لأنها كانت ستعيش وتعمل حياتها كلها من أجل أن تمحو أخطاءها. هذا ما أراده الرفيق، قال لي. لكن الشيطان الذى بداخلها سيطر عليها وانظر ما آلت إليه: كازابلانكا. أحقر درجات الخسة والعار. لقد رأيت هذا كثيرًا وأعرف ما أقوله لك.

. سألته، ماذا كان اسم الموظف؟

لم يشأ أن يجيب.

(٥)

شقة عائلة ميرتاكيس كانت فى بناية فى شارع قصر النيل فى الطابق الثالث. راح روبى يفكر فى المبلغ الوهمى الذى أضاعوه فى الهواء تلك الأيام من أجل شراء شقة كهذه. فى تلك الأيام كان شراء خطط تشرشل لفتح الجبهة الثانية أسهل من أن تشترى شقة فى الشارع الرئيسى فى القاهرة. أين يجدون تلك الأموال؟

فتح له الباب رجل أسود ضخم يرتدى بابيون وجاكت أبيض ثم ساعده كى يخلع البالطو. ظهر بيتر، وكأنه كان ينتظر أن يدق الجرس. كان يحمل كأسًا كبيرة من الويسكي. أمسكه من كوعه وأدخله إلى الصالون الذى كان تقريبًا بلا أثاث. الأرضية من خشب الجوز الفاخر، ستائر من الحرير الرقيق وكروشيه ذهبى على النوافذ، منضدة متحركة عليها الويسكى والثلج والصودا وقطع من الجزر والكرفس النيئ. مدفأة مزركشة غير مشتعلة وعلى رخامتها مزهرية من الكريستال التشيكى بها ورود بيضاء وحولها منافض سجائر حمراء وفوقها سجادة قديمة من بخارى بألوان بنية وذهبية باهتة. الحائط المقابل كان عليه تموجات من الصدف. كان هناك درج

فى الأرضية الخشبية وفوقه أريكة من عصر لودوفيكوس الخامس عشر وفوقها كانت متمددة دورا ميتراكيس. خلعت حذاءها ووضعته بشكل مرتب ومغرٍ أمام أرجل الأريكة المذهبة، غطت ساقيها بتنورة سوداء وظهر طلاء أظافرها من تحت الكلسون الغامق؛ استندت بكوعها الأيسر على الوسائد، ومدت ذراعها الأيمن العارية القمحية اللون للسلام بتقبيله. شبكت فى حزامها وردتين من المزهرية. وبما أنه لا توجد مقاعد فى الصالون كان كل من أراد أن يتحدث معها يستند بساق على قاعدة الدرج. كان هذا الصالون مصمما لامرأة واحدة. هكذا، تحت قدميها كان هناك جنرال يرتدى ملابس مدنية فى الخمسين من عمره من متمردى ١٩٣٥، رجل رشيق وجذاب وصل من أثينا وقبل أربعة أو خمسة أيام من وصوله وصلت شهرته بميله نحو التيار اليساري، خلفه كان يقف يوزع ابتسامات مجاملة لربة البيت برلمانى سابق من إقليم أجيو. كان السيد ميرتاكيس نموذجا للبرلمانى اليوناني، أصلع بعينين ثاقبتين وشفتين رشيقتين، كان يتحدث بصوت خفيض مع برلمانى آخر من إقليم الكيكلاذيس. سكرتير السفارة اليونانية كان يثرثر، ضابط احتياط مصرى يعمل فى مبنى المحافظة فى فرع لمطاردة الخارجين عن القانون (يقال إنه مرتشٍ) مستمر معهم فى حوار حيوى وهو يصب الويسكي. عالم آثار يونانى بشعر أبيض أنيق، معروف بحبه للثقافة اليونانية وديجولي، كان يتثاءب فى اتجاه السجادة المعلقة فوق المدفأة وهو يستمع إلى ما يقوله الضابط.

البناية كانت بها تدفئة مركزية وعلت درجة الحرارة فى الشقة حتى إنهم فتحوا باب الشرفة التى دخلت منها أصوات العاصمة: أبواق سيارات

التاكسى المتزاحمة فى شارع عماد الدين، إيقاع دق الطبل وصوت مغوٍ للساكسفون من كباريه مجاور، صوت صهيل وسباب من سائقى الحناطير، إسهال الكلام من محطة الـ BBC آت من أجهزة الراديو من محلات الدخاخنية وماسحى الأحذية فى ميدان سوارس.

ضغطت دورا بظهر كفها بمودة على شفاه روبى وعرفته بحرارة على الجنرال وطلبت من بيتر أن يعرف صديقه إلى الآخرين. تفادوا الفرنسى بمراوغة، زميل روبى فى جامعة الجيزة وسكرتير السفارة الذى كان يعتبره واجبًا أن يطرح موضوع عزرا باوند عندما يوجد مع إنجليزى مثقف. حيوا السيد ميرتاكيس من بعيد وذهبوا نحو الحائط الذى يحمل أجمل لوحة فى الصالون لجارية ملونة بالتمبرا.

. قال بيتر: لوحة دورا لماتيس. لا تفترق عنها أبدًا. تخيل مدى المعضلة بالنسبة لضابط حملتنا فى أثينا. أظن أنه كان هدية من ضابط فى الوقت الذى كانت تعمل فيه ملحقة فى باريس. كان عشيقها بالطبع. فى وقتها. الآن لا أدري، ربما من الصعب. نعم بالتأكيد كانت مغرية جدًا قبل عشر سنوات. متوحشة لم تكن تسعى سوى للحب. الآن نضجت وصارت أكثر جدية فى الفراش، لكنها الآن فقدت لذة فقدان الذات واللا مبالاة.

. الجارية التى صارت مدام ريكاميه.

أريد أن أقول لك عن دهائها السياسي. أما عن الآخر فأنت كنت أفضل حظًا من بنجامين كونستان. أراهن أن من أحضر الورد هو الجنرال.

- صحيح. فأنا من أحضر الويسكي.

- تُرى، كيف كان سيرسمها ماتيس إذا تعرّف إليها؟

- لا أدري. لكن أظن أن الرسام الذى كان سيعطى البورتريه الحقيقى لدورا هو، ستضحك...

- ديرين؟

- لا، غوستاف مورو. كان سيرسمها ككائن أسطورى مثل أبى الهول، أو مثل سالومى أو ثيوذورا. جمال شيطاني، وحيدة، ظلامية، طموح وقاسية متوحشة الرغبات فى ضوء عنابى خافت وثراء أرستقراطي؛ شبقة.

- عزيزى بيتر...

- لا، ليست بى حاجة إلى شفقتك. أعلم أننى ألعب معها لسنوات الآن لعبة خطيرة. لنرَ إلى أين ستذهب بنا. الشقة الصغيرة فى جاردن سيتى مثلا. من المفترض أن زوجها لا يعلم شيئًا عنها. احترس إذن. لكننى واثق أنها لم تطلبها منى لتسهل لقاءاتنا بقدر رغبتها فى مراقبة علاقاتي. وضعت فى رأسها أن تجعل من ميرتاكيس على الأقل نائبا لرئيس الحكومة بعد التغيير الذى سيتم. وهى قادرة على أن تنجح فى هذا. انظر، لقد أحضرت الجنرال. لقد وقع فى شباكها هو الآخر. نظريًا، كان لا بد أن يكون الآن فى الجبال. لم أندهش عندما رأيته، لكنه سيتابع تحركاتي؛ تعرف أننى لا أحب هذا. هو نفسه مزيج من اللباقة الفرنسية والإقدام اليوناني. لم يكن طموحًا على الإطلاق. ووطنى بالضرورة. أراه قائدًا للأركان أو جنرالا. هو سيقبل

أى شيء، يكفيه أن يحارب. لكن لندن تعتزم أن ترشحه لمنصب الملحق العسكرى فى السفارة اليونانية فى موسكو. إنهم يستغلون يساريته. لو قَبِل فسوف ينتهي. سينعزل تمامًا. يخدع نفسه إذا كان يطمح أن يؤثر على ستالين من أجل أن يدعم اليونان...

- إذن لماذا...

- قاطعتهما دورا قائلة: بيتر، روبي، تعاليا إلى هنا لتسمعا.

- بعد قليل صار بيتر يهمس.

اقترب الآخرون وراح الجنرال يحكى بصوت محايد عن مقابلة أريس مع إيدى بعد تفجير جسر السكك الحديدية على نهر غورغوبوتاموس. قائد البعثة البريطانية قدم لـ أريس فيلوخيوتيس حقيبة مملوءة بالجنيهات الذهبية هدية على نجاح العملية فى الليلة الماضية. لكن أريس لم يأخذها، وطلب بدلا منها أسلحة ومعدات. فى النهاية قبلها معربًا عن تحفظاته: "لا تبحثوا عنا بعد ذلك وتمارسوا علينا ضغوطًا وحصارا اقتصاديا على بلادنا، مثلما كنتم تفعلون مع من سبقونا، ولو أننا سددنا لكم الديون نحو ست مرات حتى الآن، نحن مدانون لكم على الدوام وفقًا لحساباتكم".

- علقت دورا، يا له من شخص حازم هذا الـ أريس.

- قال ميرتاكيس، إنها مراوغات يونانية. كان يجب عليه ألا يأخذ الجنيهات الذهبية لكن ما دام أخذها كان عليه أن يصمت.

ـ صاح الفرنسى معترضًا. وكأنه أدرك الآن وجود الإنجليز، قال وهو ينغم بلكنته آخر الكلمات ثم صمت.

ـ قال روبي، إنه محق فى هذا الأمر.

ـ قال بيتر متحفظًا. على أى حال وإن كان الموقف ليس سريًا، إلا أن له دلالة.

ـ قال الجنرال، سري؟ لقد سمعت الكلام من فمه... ثم أكمل وهو يعلم أن أحدًا لا يصدقه، كان زيرفاس موجودًا أيضًا.

ـ قالت دورا بسرعة بدهة، فقط إذا سمعناه من سياندوس سنقبل أنها حكاية أصلية، وضحك الجميع.

جاء الخادم الأسود بالمنضدة المتحركة مرة أخرى وعليها المقبلات المملحة: جبن وزيتون ومخللات وخبز. وفى المنتصف قنينة كريستالية كبيرة.

ـ صاح الجنرال، أوزو! أين وجدتموه؟

ابتسمت دورا فقد نجحت المفاجأة التى أعدتها.

ـ قالت له، هو أوزو قبرصي. من يريد؟

أحضروا الأكواب لكن لم يشرب منه غير دورا والجنرال والبرلمانى من الكيكلاذيس. أما الباقون ففضلوا الويسكي. روبى لم يأخذ لا هذا ولا ذاك. بعد قليل طلب بيتر الإذن ليغلق باب البلكونة فقد بدأ يشعر بالبرد.

- قالت دورا، لكن بشرط، ألا يشعل ميرتاكيس سيجارا آخر.

نهض الضابط كي يصب لها المشروب. حينها ابتعد النقيب منسحبًا وصعد على الدرج. ثم حرك شعره بحركة شرهة وراح يرتل بصوت رفيع:

- حاربنا في...

يبدو أن الأضحوكة كانت معروفة لأن أحدا لم يضحك. ثم سمع بعد ذلك الفرنسي يقول بلكنته الفرنسية نفس الكلام. إلا أن النقيب أكمل بلكنة فرنسية أيضًا قائلا: "*إن ساعة الحوغية أقتغابت. وإن النضال مستمغ دون أى قلق فى طغيقه المقدس وماض يدهش صفحات التاغيخ*".

- قالت دورا باحتقار وهى تمد أصابعها نحو الجنرال ليعطيها سيجارة. كان هذا خطابه بالأمس فى الـ BBC غوغائيا وقحا.

- قال البرلمانى من إقليم إجيو متسائلا، «لماذا ذهب إلى لندن، كى يتفاهم مع يورغيوس ويطيحون بـ تسوذوروس. لقد أرسله ساكليلاريوس، سوف ترون.

- كل يوم يمر يزيد من قوة دولتهم. وما يقولونه عن التفويض من أجل التحرير. هو محض حماقة وفرقعة كلامية. عندما يكون لديك الجيش والأسطول تفعل ما تشاء. الحكومة تكتمل كما يقول وفقًا للاحتياجات. عندما جاء كان هناك احتياج لإكمال الحكومة، والآن عندما جئنا نحن لم يعد هناك احتياج؟

هذا ما قاله ميتراكيس فى نفس واحد، راح وجهه يحمر وهو يبحث عن شيء فى جيب جاكته الداخلي.

ـ صححته دورا، الأمر ليس عندما جئنا نحن. الفضيحة هو أنه لا يمثل إلا نفسه، بينما يبقى خارج الحكومة الحزب الأكبر والأكثر ديمقراطية.

ـ قال الجنرال، سامحينى يا دورا العزيزة وابتسم كى يلطف الأجواء. «عندما يقترب غلينوس من بو جورج»، جحظت عيناها وهو ما جعله يقول فى التو: «لكن لماذا نقلب فى هذه الأمور الآن؟ الجرم الأكبر هو أنه زرع خديعة أن الحرب تنتهي، وأن الحلفاء تجمعوا فى لندن كى يرتبوا الأوضاع فى أوربا بعد الحرب. هل تدرين ماذا يعنى هذا؟ أليس هتلر متمددًا من بريست وحتى روستوف؟ هذا يعنى أنه لن يجرؤ سوى المحاربين».

ـ حاول سكرتير السفارة أن يقاطعه، لحظة، لحظة..

ـ سأل الجنرال بيتر متجاهلا الدبلوماسي، ما السبب فى رأيك الذى جعلهم يعودون إلى السرية الأولى؟ حاربت برجولة فى العلمين. ما السبب إذن؟

ـ أجاب بيتر ببرود. الأمر ليس سرًا أنهم سيقومون ببعض تدريبات الهبوط عند البحيرات المرة.

ـ هذا ما نعرفه. لكن بيننا الآن أيها الرائد.

ـ لنقل إنه طبقًا لفهم تشرشل أن جوف هتلر كله يوجد غرب اليونان.

. مع أن روميل لا يزال يسيطر على طرابلس وبنزرت؟ وعندما يكون جيشنا الثانى ما زال يقرض أصابعه فى فلسطين؟

. لحظة. أسطولنا، حاول الدبلوماسى أن يقول.

. قال بيتر ببرود تام، حماسك فى الكلام يفيد بأنك تعلم أكثر منا لماذا يحدث كل هذا. لنسمع إذن.

جيشنا فى العلمين لم يأخذ تفويضًا بإطلاق النار. لكنه ثار لنفسه. انتصر على الألمان وهذا النصر كان تحت قيادة الضباط والجنود الشجعان أصحاب القرارت الحاسمة. هذا لا يمكن لأحد أن ينكره. يومًا بعد يوم قواتنا المسلحة فى الشرق الأوسط تتعمق أكثر فأكثر فى ماهية ومعنى هذه الحرب. ولكى تعرف لماذا تراجعوا، هم تراجعوا من أجل أن يغطوهم عند مستنقعات الكبريت لكى يحدوا من تقدمهم ويحكموا اللجام ويسيطروا عليهم. خطاب الأمس لم يكن غير ذى قيمة أو ليست له علاقة بأمر عودة الكتائب. كلاهما يتجه لنفس الهدف.

. قال بيتر، أنا معجب كثيرًا بحماسك سيادة الجنرال، لكنك تحدثت عن لجام وسيطرة. لكن هل نسيت خارطة الأطلنطي؟ أود أن أؤكد لك أنه ليس هناك إنجليزى حتى الأكثر معارضة وتمردا...

. لا أريد كلامًا فضفاضًا سيادة الرائد. فى ميناء مرسين رأيتهم ينتقلون، وقبل الأمس هنا، هنا فى القاهرة، رأيتهم يتجولون بملابسهم الرسمية، وجوه خونة معروفين. لماذا يريدونهم؟ هل سيضعون هؤلاء فى نفس الإطار مع المنتصرين فى ألبانيا والعلمين؟

. أضافت دورا، بالأخص عندما يكون هناك بالطبع كل هؤلاء القادة والضباط الفينزويليين دون أى استخدام.

. قال روبي، لنر الأمر بهدوء. أليس من الأفضل أن يكونوا هنا بين أيدينا بدلا من أن يستخدمهم الألمان، أو يستخدمهم ويوظفهم فيلق من المعادين للبلشفية؟

. رد عليه الجنرال بلطف، دكتور ريتشاردز. لقد ترك ذووك أبناء بلادك هذا الفيلق يتشكل بالفعل تحت أنوفنا. ماهى الفرقة المقدسة؟

. قال الفرنسي، لكن معذرة، أظن أن الجنرال ...

هنا أومأت دورا إلى الخادم الأسود الذى دفع بابًا مجلدًا بنفس لون الحوائط وبدت خلفه غرفة مضاءة بها منضدة منصوبة، الأثاث ثقيل وثمين، الأطباق الخزفية وأدوات السفرة كلها فضية.

. صاح روبي، أووه.. المزيد؟

. توجهت دورا نحو المنضدة بعد أن نزلت من على الأريكة وانتعلت حذاءها.

الساعة تعدت الحادية عشرة عندما نزلوا. قال روبى الذى كان يمضى ليلته بالشاى والبسكويت، «والآن علينا بتمشية جيدة لنهضم». لكن بيتر تردد قائلا، البرد ورطوبة الشوارع والإرهاق.. فى الحقيقة إن الويسكى والحوار والعشاء الفاخر جعلتنى أنجو من النوبة على غير المتوقع. لكن

هذا ليس سببًا حتى أستفز النوبة فتعود. لكنه فى النهاية قَبِل ألاَ يركب التاكسي. التف جيدًا فى البالطو ووضع كوفية بشكل يحمى رقبته وصدره وأنزل قبعته التى لديه من أيام أكسفورد حتى حواجبه. لكن ثمة أمرا آخر تمت إثارته: أى شارع سيسلكان؟ قصر النيل يمينًا، من ناحية الثكنات الإنجليزية ومنها يصلان إلى جاردن سيتى على اليسار أم من شارع عماد الدين إلى ميدان القصر ثم يصعدان شارع البستانى ليصلا إلى الثكنات؟ اختار بيتر طريق عماد الدين لأن وقت رش الحدائق من المحافظة لم يحن بعد. بيتر أراد شارع قصر النيل لأنه يحب الإضاءات الكهربائية فى تلك المنطقة التى تنعكس على الإسفلت. مرت ذكرى على ذهنه وجرًت فى ذيلها مزيجا من الشفقة والرقة. كانت لديه كلبة لولو يخرج بها للتمشية وهو يمسك برباطها. كانت الكلبة تسحبه دائمًا فى عجلة لتصل إلى حديقة البنك الأهلى كى تشم نوافذ البدروم الحديدية.

قال بيتر إنه لا يرى أن الجنرال سيصمد كثيرًا. الفاشيستيون يكرهونه، لأنه ضغط علينا كى نعطى إمدادات عسكرية للسرية؛ أما الجيش فيريده ليفرض النظام فى اليونان بعد الحرب. الفينزويليين يحقدون عليه لأنه سبقهم وأقام دولة تاركًا إياهم خارج اللعبة. اليساريون يتهمونه بأنه فاشيستى برداء مموه، وأنه عبد للأجانب ومماطل. سينهار مع أول اضطراب.

- قال روبي، أنا يعجبنى الجنرال.

- كيف يعجبك، أتعنى كرجل؟

- أووه، كثيرًا.

- صاح بيتر: روبي... ونظر خلفه.

- أنا أراه رئيسًا للوزراء. إنه يعجبنى حقًا وقد فهم هو هذا. وكذلك دورا. كان يعاملنى بشكل مختلف. أما أنت فكان يعاملك بشيء من الحذر والشك. وهذا دليل أنه ما زال مغرمًا.

- لكن هى ليست واقعة فى حبه. رأيت الطريقة التى تداعبه بها. تعمل كل شيء لغرض وبحساب دقيق. سوف تعصره كالليمونة ثم تتخلص منه.

- لكن من الممكن أن يستخدمها هو أيضًا. فهو يبدو رجلا يعرف تمامًا ما يريده.

- إنه رومانسى فى أعماقه. لو لم تكن تعرفه ومتأكدة منه تمامًا لم تكن لتحضره. ليس مستحيلا بالطبع الآن وقد رآها فى مكان وأجواء مختلفة أن تكون جذوته قد اشتعلت. مثلما حدث لي.

- مغرمًا كان أم لا، على أية حال كان هو الشخص الوحيد الذى يرى الأمور بوضوح، فيما يخص الكتائب والفيلق المقدس وعمل السياسى للمخابرات وأجهزة الخارجية.

- قال بيتر. هذا ليس كلامه ولا أفكاره، لقد قرأها فى جريدة « المحارب»، ثم نظر خلفه.

- ومن يضمن أنه ليس هو الذى يكتبها فى « المحارب » ؟

ـ لا تنظر خلفك كثيرًا، هل لديك علم أننا مراقبان؟ أكمل، أكمل. بل كتبها آخر لأن «المحارب» تم إصدارها قبل أسبوع من وصول الجنرال للقاهرة.

ـ من يتتبعنا؟

ـ ثمة خيال، يبدو وكأنه صبي.

مرّا من أمام كاتدرائية القديس أنطونيو ومشيا فى الشارع المظلم. من حين لآخر وعلى مسافات متباعدة كان يظهر خيال بريق غريب. التفت بيتر فجأة وهرول للخلف.

ـ صاح بيتر لقد أمسكت به. إنه عارٍ تقريبًا ابن الحرام. هل لديك قداحة؟

ـ سعيدة يا خواجة روبي، قال نابليون بهدوء شديد.

ـ دعه يا بيتر، إنه صديق. كيف تخيلت أنه يراقبنا؟

غضب بيتر جدًا وقال «يحتاج الأمر لقدر وفير من الوقاحة حتى يجر أحد فى الشوارع أصدقاءه المريبين كما تجر العروس ذيل فستانها».

ـ أو مثل نجم ذى ذنب يا بيتر. أنت مخطئ وأسأت فهمنا يا بيتر. فى الحقيقة لم أكن أعرف أنه يتتبعنا. لكن هذا البائس ربما فعل ذلك بحثًا عن صحبة. ربما كان يشعر بالملل. حدث قبل ذلك أن وجدته خلفى فى الطريق كى يرسم طريقًا يمشى فيه بدلا من أن يهيم فى الشوارع من هنا وهناك. اسأله إن شئت.

ـ اسأله أنت ماذا يريد؟

أجاب الصبى أن الليلة سينام أبوه مع أمه، وأن أمامه الليل كله يحوم في الشوارع.

عرض عليه روبى أن يذهب إلى شقته، سيفتح له سليمان. لكن الصبى رفض الأمر برمته وبشكل قاطع، لقد منعه أصدقاؤه، لأنهم يقولون إنه يفعل الرذيلة مع الخواجة. شعر روبى بحمرة على وجهه ولم يترجم ما قاله الصبي. فقال له إن الخواجة الآخر لا يريده أن يسير خلفهما، ولهذا عليه أن يغيّر مساره نحو الرصيف الآخر. فأجاب الصبى أنه لو كان معه قرش لكان سيعرف كيف يقضى وقته حتى الصباح. كيف، سأله روبي. قال الصبي، بوظة. أخرج قرشًا وأعطاه إياه وهو يرتعش.

- تصحبك داهية، قال بيتر عندما رحل الصبي. لا تظن أننى أعانى من بارانويا المطاردة. هؤلاء صعاليك الشارع هم الأنسب للمراقبة. فهم لهم نفس لون الأرض ولا يظهرون. كنت ترى كل شيء أمامك ومع ذلك لم تكن ترى شيئًا. لا بد أن يجذبك أحد من ملابسك، يطلبون الشفقة والعطف أو يوسخون بأيديهم القذرة زجاج التاكسى حتى تنتبه لوجودهم. لكن لا يذهب عقلك أبدًا فى إذا ما كانوا يراقبونك.

- لماذا يتتبعونك يا بيتر؟

- اسمع. الحكاية المضحكة لأريس والجنيهات الذهبية قد أرسلها لنا فى نفس الوقت إيدي. فكر قليلا فى أن هذه النكتة ربما تساوى برنامجا سياسيا كاملا. اليوم أو غدًا. هل ستسعد إذا ما خسرنا اليونان؟

- سأحب أن أدور ليلا فى شوارع بلاكا بصحبة من يعجبنى، وألاّ أرى الازدراء على وجوه الزملاء فى المجلس البريطاني.

- هذا هو روبى دائمًا وأبدا.

- هل تريدنى أن أصدق أن هذا الصبى نابليون هو عميل لفيلوخيوتيس؟

- أنا لا أقول هذا. بل أقول إنهم إذا كانوا بارعين فى عملهم لكانوا قد أرسلوا مع الجنرال أحد الزعماء. إنهم يحملون فى أيديهم ورقة رابحة: مطلب الوحدة وإنهاء الحرب فى اليونان والشرق الأوسط. هم مسيطرون على الشعوب. لكن ينقصهم السياسيون الذين يثق بهم الحلفاء. الجنرال يمكنه أن يكون هذا الرمز. إذا تعرض تشرشل بالطبع لضغوط سوف يفضله بالطبع بدلا من سياندوس أو غلينوس أو سفولوس. نظريًا الجنرال ما زال ينتمى إلى حزب أصدقاء الحرية ولديه وسام شجاعة إنجليزى من الحرب. الآن أرى لعبة دورا بوضوح. أحضرته كى يهددنا ولكى نفضل ميتراكيس عنه؛ كشرٍّ أصغر. لكنها تلعب بالنار.

- لم أكن أعرف أنها عشيقتك منذ ١٩٣٦. قال روبى وهو يضحك.

- بالفعل منذ ١٩٣٧. لكن بفواصل. لكن كيف عرفت؟

- استنتجت الأمر. يجب أن أقول أن رباط الحب. الكره المعقد سينكشف بعد سبع سنوات. أنك فى الحقيقة شخصية معقدة. لا بد أن تكون سعيدًا بما سوف يصل إليه طموح سيدتك. دعك من أن مكتب الشؤون السياسية الخارجية سيسعد جدًا بهذا.

ـ الآن دخلت فى المستويات السياسية العليا. لكن تذكرت أن أسألك شيئًا. هل تعتقد أن اتهامات وينتر نحو كالويانيس لها أى أساس؟

ـ إن وينتر مهووس. لا أعلم ماذا يكتب لكم فى تقاريره، لكن نانسى كتبت لى أن شدة الارتياب والاجتهاد على إلصاق القرائن بكالويانيس ترجع إلى غيرته الشديدة. فيما يبدو أن كليهما كان يحب نفس المرأة فى أورشليم. كالويانيس اختفى منذ فترة ونانسى تعتقد أنه ليس فى فلسطين.

ـ إذا ذهبت أنت هل بمقدورك أن تجده؟

ـ آه من فضلك. أبعدنى عن هذه الأمور. لا أريد أن أحشر نفسى فى تلك المتاهة.

اقتربا من ميدان عابدين عندما اقترح روبى أن يبدلا الرصيف، لكن عربات رش المياه قد مرت قبل قليل من شارع عماد الدين ورفض بيتر أن يبلل حذاءه. على مبعدة توقف ليشم الهواء، من إحدى المناطق القريبة كانت تأتى أصوات مثل جموع تتناقش بحدة.

ـ هناك رائحة عجين تبغ حامض. من أين تأتي، سأل؟

ـ حاول أن تشم ما هذه الرائحة.

ـ قطران مخلوط بالعرق بالطبع.

ـ برافو. دائمًا حاسة الشم لديك قوية. إننا أمام محل خمور محلي. هل تعرف البوظة؟

ـ أليس هذا هو مشروب الطبقات الدنيا الذى يصنعونه بعد غلى خبز الشعير.

ـ من القمح والدخن (البشنة) والماء، أو من الشعير والماء والدقيق. طريقة صنع البوظة لم تختلف منذ أن مر هيرودوت على مصر.

باب حانة البوظة كان مغلقًا. أحد العربجية دق على نافذة بجوار الدكان وهو يشد زمام أحصنته. أعطوه سلطانية من نبات العرعر مليئة بسائل سميك. جلس على الأرض فاتحًا ساقيًا وهو يمسك السلطانية بكلتا يديه دون أن يترك الزمام من يده. راح يحتسى رشفات كبيرة دون أن يصدر صوتا، ثم بعدها تجشأ وهو ينظر نحو السماء. نهض وحل لجام الأحصنة وأعطى الباقى لهم ليشربوه. انحنى بيتر ورأى من النافذة الصغيرة قاعة ضيقة وطويلة مضاءة بمصابيح كيروسين معلقة وبها منضدة بدت له كبيرة، جلس على ضفتيها نحو مائة من العرب والزنوج يمسكون بالسلطانيات التى أمامهم ويتحدثون ويحركون أيديهم بشكل تهديدي.

هناك فى إحدى أركان تلك الطاولة الكبيرة كان يجلس نابليون.

ـ اقترح روبى على بيتر الدخول الذى أصدر صيحة رعب.

ـ إنى أمزح، هيا بنا. هل حكيت لك قبل ذلك مغامرة كورت فى هذا المكان؟ ذات ليلة انحنى كورت لينظر من تلك النافذة، التى خيل له أنه ينظر من نافذة إحدى السفن التى كانت تجلب العبيد الزنوج من الساحل الأفريقى إلى مزارع كارولينا. من يدرِ أى مشاهد ظلت فى ذهنه من طفولته:

السلاسل والكرابيج ونواح الزنوج الحزين. ظن أن الجلابية التى يرتديها سوف تحميه وعندما فُتح الباب لشخص آخر دخل هو. دفع ثمن البوظة وأخذ السلطانية وجلس فى عمق القاعة حيث كان هناك مقعد خالٍ. لم يضع البوظة فى فمه. دفعه جاره على الطاولة بكوعه فى جنبه وقال له شيئًا. سأله من يجلس أمامه ماذا يفعل هنا. «جئت تتجسس على الفقراء أيها الإنجليزي»، ثم صار الجميع يصيح. حاول كورت أن يشرح لهم بالعربية أنه ألمانى لكنهم لم يميزوا. هو خواجة تنكر كى يسمع تأوهات الفقراء من الحياة. جذبه أحدهم من الجلابية وشقها ولم يكن يرتدى شيئًا تحتها إذ كان الجو صيفًا. أنزل أحدهم سرواله الداخلى ووضعوه على عارضة الطاولة وراحوا يتحرشون به، تدري؛ بالوسطى. أفرغوا السلطانيات فوقه وراحوا يزلقونه على البوظة عاريًا. حالة هياج ورياح ثورة. انتفاضة العبيد تركت السفينة جامحة فى المياة المفتوحة على الساحل الأفريقى الغربي. أصابهم سعار. ظن كورت أن هذه هى آخر مشاهده فى الحياة، وراح يحاول أن يتمسك بآخر مشاهد فى هذا العالم، بالروائح والطعوم ليأخذها معه أينما سيذهب. بعد ذلك شعر أن أحشاءه تصعد لأعلى وغمره شعور بالخفة. ربما قد يكون من روائح الأدخنة هناك أو أن أحدا ضربه بشيء ثقيل على رأسه فأصابه بالدوار. شعور بالصفاء والامتنان، شعور حب للكون صعد به للأعالي، عذوبة، بعيدة عن الخير والشر. قال لى إنه شعر بأسمى معانى الحياة. شعر بنفسه تذوب فى الوجود بلا حدود ممزوج بشعور أنه أتيحت له الفرصة أن يكفر عن جرائم البيض. هذا الدين الذى كان يحمله منذ طفولته ويدفعه الآن داخل تشنجات مسرات السماء.

- قال بيتر، شيء لا يُصدَّق ومقرف فى نفس الوقت.

«أهـذا مـا تظن؟ على قـدر فـهمك»، قـال روبـى فـى أعمـاقـه. «هـذا مـا سيجعلك تذهب إلى بيتك وحيدًا». سيكون الصبى ينتظر متقوقعًا فى أحد الأركان. ربما أحد الزنوج سيداعب كتفه خلسة. أووه، نعم. لمَ لا يتركنى ويذهب وحده. سيهرول روبى إلى شقته ليبدل ملابسه. سيرتدى جلابية زرقاء لديه وزوجا من البلغ الصفراء ويعقد عمَّة على رأسه. سيدخل إلى تلك الخمارة ويجلس بجوار الصبى ويمسك بيده. ولن يهمه أن يكتشفوا أمره. ليشقوا جلابيته هو الآخر. لكن، ياللمفاجأة! على جلده الوردى سيظهر سوتيان دانتيل أحمر وكيلوت. إنها امرأة إنجليزية. سيقولون وقعت فى أيدينا امرأة إنجليزية، هيا بنا بالدور... واحد تلو الآخر. أوووه؛ نعم.

لحسن الحظ عندما رأى بيتر سيارات التاكسى مصطفة عند أول شارع البستان اعترف بأنه تعب وأراد أن يعود للمنزل. لم يكن الطريق بعيدًا على الأقدام بالنسبة لروبى لكنه قبل أن يستقل معه نفس سيارة التاكسي. صعد الدرج سريعًا. مميزات ومساوئ التدخين. لكن فى الصالون الأحمر - يا للهول - كان أحد جنود السلاح الجوي. ستاماتيس، ثانى أبناء آريان. كان أحد الأجلاف المتوحشين المبتزين. بالتأكيد جاء إلى هنا من أجل المال. من المستحيل أن يتخلص منه. ابتسامته كانت توحى بأنه جاء ليمكث. خسارة، يالسوء الحظ.

نادى روبى على سليمان وقال له إنه ليس فى حاجة إليه اليوم. دخل إلى غرفة النوم وكانت دافئة، إذ إن بها مدفأة صغيرة، كاد يدمع. راح يخلع

ملابسه ثم توقف. ذهب إلى خزانة الملابس وفتح أحد الأدراج وأخذ الكيلوت والسوتيان. وضعهما بعناية على اللحاف الحريرى بلون الشمبانيا المحشو بالريش. قال فى ذهنه، خسارة. تطلع إلى نفسه فى المرآة الكبيرة من أعلى إلى أسفل. يا للحظ التعس. شعر أنه كان على وشك أن يستمتع برباعية جديدة لإليوت، وفجأة اضطر إلى أن يقرأ عشر صفحات من «الجرثومي» لزولا.

على الجذع داخل الإطار كانت هناك مطبوعة حجرية للعذراء عليها إهداء من الجنرال ويفيل من الخلف. اقترب منها ورفع عينيه. كان يفعل هذا فى كل مرة سيرتكب خطيئة شهوانية. تحدث إليها.

. قال: سيدتي. يا سيدة الصمت، هادئة ويائسة. أترين. أترين الطريق الوعر الذى ينبغى على روح الإنسان أن تسير فيه، كى يشبع كلب الجسد الذى ينبح وينبح ولا يتركها تفكر فى شيء آخر؟

أغلق سليمان الباب بقوة ورحل. وستماتيس كان يطفئ سيجارته فى منفضة السجائر البرونزية ذات النقش الشبكي.

(٦)

بعد منتصف الليل بساعات انقلب الجو. إكليل البخار الذى التف حول القمر خلال الليل امتلأ وصار مثل يشمك مشدود. وصار القمر مثل هانم تركية تتبختر هائمة خلف الغيوم، يحوم فوق النهر العريض وصفوف الأشجار والنخيل، وتبرز الأهرامات فى العمق من داخل الغيوم مثل أقماع الحلوى المصنوعة من دقيق الخروب.

جاءت الرياح الشرقية من الصحراء العربية، واكتسحت الأسطح وبعثرت الغسيل المنشور، هزت أعشاش الطيور، خلعت اللافتات، هدمت أصص الزرع. كانت تمر بصفير من شارع البستان وتركل أى نافذة مفتوحة بصوت رعدى مثل قطع الدومينو. فى ميدان باب اللوق فى الخلف كانت تُسمع همهمة الريح فى ممرات السوق الفرنسي، الخضراوات والأسماك والطيور والذبائح ستحمل رائحة التراب فى الصباح، وأشجار الجاكاراندا ستبدو ذابلة مصفرة من التراب.

الديوك هى الأخرى فى أعشاشها التى ربطت من أرجلها فى أعمدة الشرفات تنفض الصقيع من ريشها وتصيح متوترة. بُحت أصوات الديكة من فرط المنافسة فى الصياح من الأحياء المجاورة.

تغيُّر الجو شعرت به آريان من قبل فى عظامها. الآن رياح الخماسين كانت تدق مباشرة على أبواب شرفات غرفتى النوم الشرقيتين. لكنها لم تكن فى عجلة أن تنهض. كانت تشعر بسعادة ما إذ صحت نبوءتها بتغيير الطقس وتلك الآلام فى مفاصلها أصبح لها الآن تفسير. فى الوقت نفسه كان هناك أمر يشغلها: هل أوصدت مصاريع النوافذ فى غرفة الغريب؟ أى فى غرفة الصبية الغائبين. نيكوس كان ينام على أريكة فى الأنتريه. من قبل كان ينام فى غرفة التوأمتين، لكن قبل بضعة شهور شهدت عليه البنات وهو يتلصص عليهن وهن يتعرين متصنعًا النوم. لم تقل آريان شيئًا للولد. حملت أريكته إلى الأنتريه، وفى المساء عندما انتهى من دروسه قالت له: «إن شئت نم على الأريكة لكن لو كنت تفضل أحد الأسرّة فى الداخل فيمكنك أن تنام هناك أيضًا فهى خالية». اختار الولد الأنتريه وآريان أصبحت الآن أكثر هدوءًا، حيث إنها من مكانها كانت ستحرس باب البنات. إذ فى وجود شخص غريب فى المنزل لا تدرى ماذا يمكن أن يحدث. الشقة كانت مليئة بالأسرة مثل ملجأ ليلي. كل منها له حكايته لكن هيهات أن تتذكرها كلها الآن، لديها أشياء أخرى تنشغل بها. أحيانًا فى الليل عندما يكون البيت ممتلئًا مثل بيضة بصفارين كانت تستيقظ وتصغى إلى الأنفاس: البنات من الحجرة المقابلة، الصبيان من الحجرة المجاورة وبجوارها ديونيسيس عندما لا يكون فى سهرة للعب الورق. كان ذلك أشبه بأوركسترا موسيقية.

الغريب وصل بالأمس، تم إبلاغه بدبلوماسية عن عادات البيت. أُعلن أنه عليه أن ينام كثيرًا كما أمره الأطباء، ولهذا سوف يستيقظ فى الثامنة والنصف عندما تكون البنات فى مكاتبهن وذيونيسيس بالفعل فى بداية نومه. فيما يخص الطعام والغسيل جعل ميخاليس يبلغها مرة أخرى أن ما يسرى على الآخرين سوف يسرى عليه. وسيدفع نصيبه من إيجار المنزل والتكاليف كما لو كان أحد أبنائها.

ابنها! يكفيها ما لديها من أبناء. هذا لا يعنى أن الضيف لم يكن يعجبها؛ كانت تبدو عليه الرزانة والجدية على وجهه وفى صوته، حسن النشأة والاحترام. لكن هذه العلامة على جبهته كانت تصيب آريان بالتردد بعض الشيء. ليبعد عنا الرب كل الشرور. لكنه قد أحضر الحرب حية بين جدران البيت، والذى صار خاويًا بسببها.

ألقت شالا فوق قميص نومها وخرجت إلى الأنتريه. بدا شيء من النور أشبه بغيمة رمادية باهتة مصفرة. والغبار بالقنطار. يوم الاثنين؛ كان اليوم الذى تأتيها فيه أم نابليون لتساعدها فى الغسيل. يجب أن تبلغها أن جهدها سيذهب سدى. لكن ماذا لو تحسن الجو فيما بعد؟

نافذة الأنتريه الشمالية كانت تطل على شارع البستان، المقابلة لها كانت تطل على الحى الآخر. الوسطى، والتى كانت أكبرهم، كانت تطل على الجامع. تستطيع من إحدى جوانبها فى العمق أن ترى جزءًا من جبل المقطم. لكن ليس اليوم. الشرفة الشمالية صنعت منها آريان مخزنًا وقنًّا للدجاج. هناك كانت تخزن كل الأشياء القديمة. زجاجة النبيذ الفاسد المتروك

فى الشمس كى يصبح خلا. كل شيء كان محسوبًا. التوأمتان يصيبهما الضجر من الفوضى فى الشرفة وكانتا تفضلان ألا يفتحاها على الإطلاق. لو أرادتا هواءً كانت لديهما أصصهما على براويز النافذة، كانت تظن أنها هكذا أفضل كى تحميهما. خصوصًا أن تمنعهما من النظر إلى ما تفعله تلك المخبولة فى المنزل المقابل المجاور للجامع. رغم أنهما كانتا تذهبان إلى العمل وحدهما، من يحرسهما؟ إيبيه؛ كانت آريان تفعل قدر ما تستطيع. أما ما لم تقدر عليه وكان يأكل عقلها فكانت تطرده من رأسها.

فوق حجارة الرصيف سُمعَ صوت خطوات . تاب . تاب . كان المؤذن الأعمى يذهب وحيدًا ليؤذن الفجر. الفحام خرج يجر خلف مؤخرته عربته، فرد ظهره متمطعًا وتثاءب. وهناك فى غيمة الفجر، يظهر مشعل المصابيح. نزل بخطوات متعرجة يقطع الشارع من مصباح إلى مصباح. أقدامه الحافية كانت تضرب الأرض بقوة؛ وقف؛ رفع عصاه؛ وبالخطاف كان يقلب إناء زيت المصباح ثم يطفئه. بينما كان مستمرًا فى عمله كان يترك وحشة رمادية. ألقى تحية الصباح على الفحام دون أن يتوقف، وفى شارع البستانى توقف.

كفيف الجامع كان يرتعش من البرد، أعمى، أعرج وزاهد.

الماء الذى كان يحمله للوضوء فى أوانى المؤمنين المرصوصة يفيض من الجرة ويبلل جلابيته. رأى الطفل فى زاوية الحائط ينطوى كالأريكة، فألقى عليه الماء بيده وأغرقه. انتفض الولد كشر وجهه وأخذ يتمتم. اغرب عن هنا يا نابليون، صفر له الأحول كأنه سوف يمر مرة أخرى وتظاهر بأنه

سيلقى عليه ما تبقى من ماء فى الآنية، ففر الولد مهرولا مطلقًا صرخات مدوية ومرعبة فاردًا ذراعيه مثل أجنحة الـ (سبيد فاير).

خرج ستماتيس من عمارة الإنجليزى حانيًا رأسه. توقف فجأة وأشعل سيجارة مظللا على الشعلة بكفيه. قلب آريان كاد أن يقفز من مكانه. امتلأ فمها باللعاب المر. طردته من داخلها. صار رجلا، وإن كانت نصائحها له كل هذه السنين لم تجد بداخله مكانًا، أى شيء ستقوله له الآن سيذهب مع الريح.

رأت نابليون يتوقف ويكمل سيره، وسلطم يخرج من الزقاق مع فلفل؛ وكأنهم كانوا يترقبون الولد. من يدرى ماذا كانوا يخططون له، بعد ذلك رأت ذيونيسيس آتيًا من شارع البستاني. «يبدو رابحًا اليوم» قالت بداخلها. كل هذه السنوات تعلمت كيف تفهم خطواته وتستنتج منها متى يكون رابحًا ومتى لا. سوف يتصنع التذمر متمتمًا كالعادة. من الأفضل أن تجهز له شراب التيليو. يشربه ثم يسقط نائمًا، ويتركها لأعمالها المنزلية.

ذيونيسيس رآها تحارب فى المطبخ وجاء. كان يبحث عن شيء يقوله لها وقد رسم تعبير وجهه القاتم. أشارت له آريان بلا صوت إلى الولد النائم فى الأنتريه. أشارت له بيدها طاذهب إلى غرفة النوم، سأنتهى من عمل مشروبك وسآتي». عندما ذهبت إليه بالتيليو وجدته بالفانلة الصوفية والسروال الداخلى الطويل وقد ربطه أسفل كاحله. خلعت قميص نومها فى صمت، وضعت روبها وانتظرت أن يفتح معها حديثًا. أطلق زفيره بامتعاض. أشعل سيجارة وأخذ الفنجان فى يده. آريان خرجت وأغلقت

الباب. كان عليها أن تعد الشاى لابنها، كى ترسله سريعًا إلى المدرسة. ثم حليب البنات. ثم تعد قهوتها.

فى التاسعة بقيت وحدها فى المنزل مع الرجلين: الغريب و ذيونيسيس. أوصت نيقوس أن يبلغ زوجة يونس ألا تأتي: «وإذا رأى سلطم، يخبره أن يأتى على عجل بعد أن تذهب البنات فلديها شيء تعطيه إياه». خرج الغريب من غرفته بالبيجامة يبحث عن مسمار فى الحائط كى يعلق مرآته الصغيرة ليحلق ذقنه. أعدت له آريان الشاي. قالوا شيئًا عن الطقس ثم رأته أمامها فجأة مرتديًا ملابسه المدنية فكادت لا تعرفه. كانا يتحدثان بصوت خفيض حتى لا يوقظا ذيونيسيس. شرح لها أن الستة أشهر إجازة التعافى التى حصل عليها توازى إذنًا بالتسريح من الجندية. ولن تكون هناك أى مشكلة إذا تعرف إليه أحد بملابسه المدنية، إلا إذا كان أحد الفاشيستيين وأراد فقط أن يسبب له مشاكل.

جلس سلطم على الأرض فى الأنتريه، وسَندَ ظهره على الباب الخارجى للمنزل، كان يصغى السمع للصوت الغريب. وضعت آريان فى يده سلطانية بها بطاطس أعادت تسخينها.

- أأحكى لك عن الأخبار الأخيرة؟ سأل المخبول.

- لا، لأنك ستوقظ زوجي. كنت أود أن تحكى لى ماذا كنتم تدبرون لنابليون.

كان سلطم يأكل بأصابعه ملطخًا شفتيه. طلب خبزًا.

- ستماتيس نام عند الإنجليزي، قال.

- سألتك عن شيء آخر، لا تتصنع الخبل.

- ونابليون ذهب إلى الإنجليزي.

- اللعنة عليك. ماهذا الولد، إنه لا يعرف هذه الأشياء. اتركوا الولد فى حاله.

- هل ينوي الضيف أن يمكث لديكم طويلا؟

- لماذا، هل تطعمه أنت؟ انتبه إلى شأنك ولا تحشر أنفك فى أمور الآخرين. إنه مصاب فى الحرب وسيمكث حتى يتعافى. أسررت الآن؟

أحضرت قهوتها من المطبخ، جلست على الأريكة الصغيرة وتهيأت لشربها منصتة إلى ثرثرة الأعمى. كانت هذه أسعد استراحة فى اليوم، ساعة القهوة. مسح الأعمى الصلصة من السلطانية بأصابعه.

- اسمعى الحكاية يا أم ميخاليس. ربما تجدين لها أنت معنى آخر. ذات مرة كان هناك فأر جائع جدا. بينما كان يبحث عن شيء يأكله، رأى قطًا. الفأر اختبأ خلف إحدى السقالات. رآه القط ونادى عليه: يا فأر. هيا، ما رأيك أن نذهب لنحرس الدجاج معًا؟ قال له الفأر، قال لى أبى ألا أثق فى أعدائى وألا أسايرهم. يا صديقى، قال له القط، أنا حاجّ، أحمل مسبحة كبيرة أصلى طوال اليوم وقد أقسمت ألا أؤذى فى حياتى فأرًا أبدًا. كما أننى أصلى طوال اليوم. ذهب الفأر لأمه وأخبرها بما حدث. قالت له يا بنيّ،

لا تذهب مع عدوك؛ لقد منعك والدك عن هذا. لكن يا أمى إنه حاج، فى عنقه مسبحة كبيرة، يَعُد عليها صلواته.

ـ آه، جميل؛ إذن تستطيع أن تذهب. فذهب فى التو إلى القط: اتفقنا، قال له، سآتِ معك. بعد ثلاثة أيام جاع القط. وأكل الفأر دفعة واحدة.

الحكاية تعني: لا تثق أبدًا فى عدوك. ولا تسايره.

ـ لهذا سيكون من الجيد أن تذهب من هنا الآن، قالتها آريان وقد احمرّ وجهها ثم أخذت السلطانية من يديه.

من أجل خاطر الغريب طبخت آريان لحما بقريا بالليمون وشرائح الزيتون الأخضر. كانت المائدة مُعدة فى عمق حجرة الأنتريه، تحت النوافذ الثلاث نوافذ. عليها قطعة من المشمع الأصفر المزين بالأغصان كانت تستخدمها كمفرش. كانت رائحة الصلصة لها وقع سعيد على أنف ذيونيسيس. لكنه فهم فى التو أن اللحم يوم الإثنين كان مطبوخًا من أجل خاطر الغريب فعبس وجهه. البنات كن يتناولن ساندويتشات الغداء من البوفيهات القريبة من مكتب عملهن، حتى لا يضيعن الوقت فى الذهاب والإياب إلى المنزل وكى لا يتعبن. نيكوس كان محشورًا بجوار آريان يأكل على عجل حتى يلحق بجرس الفترة المسائية. الغريب قال كلمتين عن الطقس، أما ذيونيسى فردّ عليه مهمهمًا وهو ينحنى أكثر على طبقه. أظلم الجو بالخارج وتغير وبدأ سقوط الأمطار. آريان قامت لتجهز سترة نيكوس. كانت مصنوعة من صوف الغنم، مليئة بالحبر منذ كان يرتديها ميخاليس،

عندما كان يذهب إلى المدرسة الابتدائية. فى نفس اللحظة وصل ستماتيس. فى زيه الأزرق الفاتح بدت عليه البقع الصفراء من الغبار وقطرات المطر التى نزلت عليه.

. أأبقيتم لى طعامًا، أم قضيتم عليه كله؟

استقبله ذيونيسيس فاتحًا يديه وفى إحداهما الشوكة وفى الأخرى السكين.

. اجلس يا ستماتيس، إن أمك قد أصابها الكرم المفرط اليوم.

آريان أخذت طبقها الذى كان ممتلئًا وذهبت إلى المطبخ. عادت بطبقها وطبق ستماتيس معدَين. لكن قطعة اللحم الكبيرة كانت فى طبق ستماتيس. نيكوس دفع طبقه بعيدًا. شَبعت، ثم استعجل حتى يلحق بالأولاد قبل أن يدخلوا الفصل. لكن آريان نظرت إليه بعين غاضبة وأعادت الطبق أمامه.

. كُلْ اللحم بلا خبز ثم اذهب بعد ذلك، قالت.

. إذن أنت جريح من حرب العلمين، قال ذيونيسيس، فقد شجعه حضور ستماتيس على الثرثرة.

. ليس بالضبط، قال الغريب. كان حادثًا غبيًا فى برقة. حشرت نفسى تحت القنابل التى كانت تُفرّغها إحدى الناقلات الألمانية. لم أكن حتى فى الخدمة وقتها.

. إذن ليس هناك وسام.

- وسام؟ لم أفكر فى هذا أبدًا. على ماذا حصلت أنت بعد الرصاصة التى أصبت بها؟

- آه، أأخبرك ميخاليس بهذا؟

- وبالطبع أنت فخور جدًا بها.

رفعت آريان كتفيها لكنها لم تقل شيئًا.

- يبدو أن الأم لها رأى آخر. كان ستماتيس يراقب الأمر بانتباه.

- أمك فى أمور مختلفة لها آراء غريبة.

لم تتكلم آريان. قامت، أخذت نيكوس من يده وذهبت به نحو الباب. هناك نزلت على ركبتيها كى تلبسه البالطو.

- لحسن الحظ أننى لم أكن مع جلبة المتظاهرين حين جُرحت، قال ديونيسيس باستهزاء. فلو كنت لربما كنا منفصلين من وقتها.

- لكن ما الفرق؟ سأل الغريب.

- الإضراب نظمته أنا. كان قد مر عام على الحرب الأولى. كنت أعمل عند ذلك السويسري، حلوانى وبار وله فرعان. فى سنوات الحرب كسب مالا وفيرًا. وعندما بدأت الجيوش فى الرحيل، فكر فى أن يوفر بعض المال. شيئًا فشيئًا، دون أن نفهم، كان يضع لنا مساعدًا عربيًا من أهل البلد. هؤلاء كما تعلم، كالحمير، يشكرونك على أى شيء تعطيهم. لا أريد أن أطيل عليك، واجهته بحدة. مسيو جاكيه، قلت له، ليس هنا مجال للمزاح، إن خبزنا وخبز

أولادنا فى خطر. إذا لم تطرد العمال العرب حتى يوم السبت، سنضرب يوم الأحد. تجمعنا يوم الأحد خارج الفرع الرئيسي، جرسونات نُزل، الساقون فى البار، ميتر دى أوتيل، يونانيون وإيطاليون. لكنه أحضر الشرطة وأحاطوا بالمحل. فى الداخل، بقى معه فقط أحد اليونانيين، يدعى ثوماس، اسم على مُسمّى، مقرب منه. خرج النذل على الباب ونادانى: «ذيونيسيس، تريث، ستراق دماء هنا». قمنا وذهبنا إلى النقابة لنرى ماذا سنفعل. هكذا مرت ثلاثة أيام. دار السويسرى على المقاهى العربية واستأجر شرقيين سُودا. حينها؛ تجمعنا ثانية أمام الفرع الرئيسى وصرخنا: يا خائن، يامُخَنث! أحد الإيطاليين أحضر معه سكينًا مضحكًا ذا حدين وصرخ: «إلى الأمام أيها الإخوة المسيحيون»، قالها وهو يتقدم نحو عساكر الدورية. خرج ثانية ثوماس بمسدس السويسرى فى يده. تجمد كل أفراد جماعتنا. أنا، كنت أعرف ثوماس جيدًا. عمّدت له أحد أبنائه وفى يوم الإضراب الأول كان رئيس العمل قد أرسله إليّ ليساومني. قلت بداخلي: لا؛ لايمكن أن يجد الشجاعة ليطلق عليّ الرصاص. وتقدمت. وحدي. حينها أطلق رصاصة على فخذى وسقطت على الأرض.

– لم تحاولوا أن تستقطبوا العمال العرب إلى إضرابكم؟ سأل الغريب.

– وماذا نفعل بهم: كى نفتح عيونهم؟ وأى فائدة كانت لذلك آنذاك؟

– كم هو واضح أنك قادم من الخارج، قال ستماتيس. هنا ليست اليونان. لا بد من الكرباج لابن البلد حتى يخافك وإلا ضعت.

– تمهلوا، قال الغريب. ربما أنا حديث العهد هنا، لكن أظن أنني أعرف تاريخ الحركة العمالية هنا. ألم يحدث في عام ١٨٩٩ أن نزل عمال التبغ في مصانع فافيانديس وميلاخرينو، عربا وأوربيين معًا وانتصروا في إضرابهم؟ وفي عام ١٩١١ ألم ينتصر عمال التبغ ثانية في الإسكندرية، لأنهم رفضوا أن ينقسموا محليين وأوربيين؟

– في عام ١٩١١ لم أكن قد ولدت، قالها ستماتيس هازئًا.

– سيدتي، قال ذيونيسيس لآريان. لماذا تنظرين إليه ساخطة؟ إن الولد على حق. ثم إن هناك فرقًا بين عمال الدخان والجرسونات. عمال التبغ.. كيف أشرح ذلك؟ إنهم عمال، أياد. لا يسألك رئيس العمل إن كنت طويلا أم قصيرا، قبيحا أم تجيد اللغات، وتعرف الإتيكيت. يعد بالألف ثم يحاسب: يدفع حسب عدد العمال. أما الجرسون فهو شيء مختلف؛ أتفهمني؟

– وكيف انتهت الإضرابات، سأل الغريب.

– بالتسوية. جاءني في المشفى شخص يدعى مستر براون، من المخابرات. كي ينقذ توماس، فهمت، كي لا أحرر ضده محضرًا. التكاليف واليوميات تكفّل بها صاحب العمل. حسنًا مع مستر براون هذا رتبنا الأمر ووجدنا حلا. العرب لن يتوقفوا عن العمل لكنهم سيكونون تحت إمرة الجرسونات. نحن سنُعَيِّنُهُم ونحن سوف ندفع لهم أجورهم، ونحن سنتخلى عنهم إذا لم يكونوا مناسبين للعمل. بالطبع كنا نأخذ بقشيشهم. صاحب العمل لم يكن يتعامل معهم. كانوا خدمنا.

- عقل عظيم براون هذا، قال الغريب.

- أتهزأ به؟ بالطبع كان عظيمًا. ودليل على هذا أن حلوله ما زالت قائمة حتى يومنا هذا. طبعًا فى المقاهى التى كان يملكها عرب لم نكن نتدخل.

لكن مَن من الأوربيين كان يذهب لمقاهيهم تلك؟ الحقراء فقط.

- ألا تقبلونهم فى النقابة؟

- أبدًا. لكنهم تعلموا وكوّنوا الآن نقابة لهم. بعض المتنورين طبعًا مثل ابنى ميخاليس يرون حتمية حدوث الدمج. لكن مادام ذيونيسيس ساريذيس حيًّا لن يروا أبدًا شيئا كهذا.

- هذه أفكار سياسية متطورة، قال ستماتيس مشعلا سيجارته.

فى صمت شدت آريان من أمامه الطبق الفارغ، لكزته بكوعها كى يفسح لها مكانا، وضعت الطبق على طرف المنضدة، وبطرف كفها جمعت الفتات.

- أنت يا سيدتي، ماذا تقولين؟ كان ذيونيسيس يناغشها.

آريان نظرت إليه بعينيها السوداوين ولم تقل شيئًا.

عينان لا تتحركان عندما تنظر إليك. عينان توبّخان. اشتد المطر وساد الظلام. الولد ذو البالطو الصوفي، هل سيمر بذهنه أن يحتمى من المطر داخل إحدى البنايات على الأقل كى لا يبتل؟ آه يا ستماتيس يا ولدي، آه يا كليوبى وأورانيا، آه يا أباهم أنت من علمهم هذه الأشياء. لماذا حمير؟ ولمَ

الكرابيج؟ هناك حيث الألم والعرق والدموع، هناك ليس للإنسان وجود؟
لماذا تحفرون خندقًا يفصل بين الناس؟ إلى أين ستؤدى بكم هذه العقول؟
أرتعش. لا أريد أن أحيا. كى لا ترى عيناي. سيأتى يوم. أرى الناس فى
الموانئ وحولهم حزم من الحقائب والملابس والمراتب. وخلفهم قبور الآباء،
الأجداد، قبور الأولاد الصغار متروكة إلى رحمة الله. بلا قنديل، بلا جرة
ماء لترتوى عظامهم. وكل الكدح، والأعياد، والحزن، خمسين، ثمانين، مائة
عام، تظنون أنكم ستأخذونها معكم لأنكم ثبتموها بالمسامير بشكل ما فى
صناديق خشبية، أثاثكم وملابسكم وأوانيكم وأشياء صغيرة للذكرى.
وستظنون أنكم إذا أنقذتم الأشياء أخذتم معها السعادة والحب والأمانى
والسكرات. لم تنقذوا شيئًا. فقط أشياء ميتة كانت فى وقت مضى شهود
عيان. ستنصبونها تحت سماء أخرى وسترون أنها لن تكلمكم، لن تقول
لكم ما تنتظرونه. لأنها قد تدفّأت بلمسات أخرى، بنظرات أخرى، أصوات
أخرى. انتبهوا، استمعوا لما أقول لكم. إن الحياة التى عشتها، عشتها ولن
تجدها فى مكان آخر. لأنك عشتها داخل هذه الروائح، داخل هذه الأنوار،
تحت هذه الشموس والأمطار، داخل الناس. كل هذا سيبقى خلفك وستبحث
عنه. ستحومون مثل أموات غير مدفونين يبحثون عن حفرة يسقطون فيها
كى يستريحوا. والحمير والكرابيج ستكون خلفكم ولن يقوى أحد على
ذكرها أو تذكرها. بل وستقولون! أنا، ليقطع لسانى للأبد إن قلت هذا
الكلام أبدًا. نعم: ستقولون! لكنكم قد قلتموه، فهو مكتوب على الهواء،
فوق جدران البيوت، فى الصفحات التى أصدرتموها، وهؤلاء الناس، وإن
كانوا متعاطفين إلى أقصى حد، كيف تريدونهم أن ينسوا؟ سيذكرونه

وسيذكرونكم وأنتم ستندمون ندمًا مريرًا. لهذا أقول لكم لا، لا وإياكم لا يزال هناك وقت.

ستقولون يا أماه ذلك الطست، أسنتركه خلفنا؟ سأحكى لكم عن الطشت. جداره الأبيض من الداخل فى العمق الذى صدأ، كخدش أسود يتسع مع السنين، لهذا لا بد من الحرص عند تنظيفه بالصابون. هكذا ابتعته، بنصف الثمن.

به غسلت ملابسكم حينما كنتم صغارًا، من ميخاليس حتى نيكوس، ثلاثون عامًا، نعم. كيف تظنون أن الشئون المنزلية تدار إن كنت تحيا وتأكل يوما بيوم؟ إن الشيء الذى تشتريه مستقطعًا إياه من خبزك، تفتخر به، تحافظ عليه، تتعلق به، تحمله من بدروم الأشياء القديمة فى البلاقسة، وحتى البيت ذى الطابق الواحد فى المتاهة ذات الأقفاص، وحتى هنا فى هذا البيت، ومن هنا من يدرى إلى أين تذهبون بهذه العقول. يا للعجب. حمير! يبدو أنكم لا تذكرون هذا الطست مملوءًا حتى المنتصف بدم أورانيا. أتذكرون؟ كانت ليلة حارة من شهر أكتوبر. منذ عادت البنت من المدرسة فى المساء كانت تشتكى من ثقل برأسها. وضعناها فى الفراش مبكرًا ذلك اليوم. كانت الساعة بين التاسعة والعاشرة؛ العجلاتى كان قد نصب الطاولة على ضوء مصباح غاز الأستلين وراح يرمى النرد وحده ليتدرب. أمي، صرخت أورانيا، تعالَى لِتَرَيْ. رعفَ أنفها، وسادتها كانت حمراء، قميص نومها كان يقطر دمًا. لا عليك، هذا لا شيء، قلنا لها، سيهدأ الصداع. لكن الدم كان يسيل كالصنبور، حملنا البنت إلى الأنتريه، وأحضرنا الطشت والخل

والقطن. انحنِ يا بنتى على الطشت، لا من الأفضل أن يكون رأسك نحو الخلف. استهلك كمًّا هائل من الشاش والمناديل. يا ميخاليس، ناديت على ابنى الأكبر، وردية أبيك لم تنته بعد. ابحث عن أى تليفون اتصل به وقل له أن يحضر الطبيب. طبيب، ليلا فى المنزل؟ بكى ستماتيس ومن خلفه كاليوبى الصغيرة. أورانيا كانت كقطعة القماش المبللة فوق الطشت، لم تعد تريد أن تنحنيَ للخلف، لأن الدم كان ينزل فى معدتها فيشعرها بالدوار. كان ميخاليس سيتم الست سنوات. ستضيع الطفلة مني، قلت بداخلي. ذهبت إلى الأيقونات. سقطت على ركبتيّ وضربت رأسى فى الأرض. أيتها العذراء قلت، لا طفلتى لا، إنها بريئة وتحب الدراسة كثيرًا، وهى ماهرة فى الحياكة وتعطف كثيرًا على إخوتها، وهى نقطة ضعف أبيها. نادوا عليّ، تجمدت يداي. ميخاليس سيتم السادسة. وصل، وفى لحظة ظننت أن المسيح أتى. لكن ماذا قال لي؟ أبى لم يذهب الليلة إلى العمل. أووه، يا للمصيبة، اللعنة على الذى اخترع لعبة الورق. التفت وما إن رأيت الطشت مملوءا حتى المنتصف، جننت. قلت لا، مستحيل أن يكون هذا دم الطفلة، لو كان هذا دمها لانتهت. هذا لا بد أن يكون من النبيذ الفاسد الذى نصنع منه الخل فى الجرة التى فى الشرفة. الطفلة تضيع منك يا آريان! فتحت النافذة. النجدة يا مسيحيين، طفلتى تضيع من بين يدي، صرخت. من أسفل، سمعت شيئًا. انحنيت، كان يونس، مع عازف البيانو الألمانى الغبى وكانا شاردين فى طاولة العجلاتي. أم ميخاليس، ما الخطب؟ يا يونس، قلت له، النجدة، ابنتى تموت. لم أنتهِ بعد من مقولتى وكان أمامي. بلاتس، بلاتس كانت أقدامه العارية تضرب درجات السلم. رفع البنت بيديه ونزل إلى الشارع. خلفه ميخاليس

بالبالطو ليغطيها. خلفهم أنا بحذاء المنزل وقميص نومي. إلى أين يأخذها؟ هرولنا كالمجانين ولم نلحق به. وخلفنا أبناء الحى المجاور يسألون: ماذا حدث؟ جريمة قتل؟ من لديه الوقت الآن كى يجيب. عندما وصلنا إلى شارع البستانى كانوا قد ذهبوا عنا. على اليسار شارع الدواوين، قال لنا أحد المارة فهمت، يذهب بها إلى الصيدلية الساهرة، أمام سراى الباشا. كانوا قد ألقوا بها بالفعل على فراش من المشمع. «هدّئى من روْعك يا سيدتي»، قال الصيدلي. «لا تفعلى هكذا. الآن سيأتى الطبيب. لحسن الحظ يسكن فى الطابق الأعلى هنا. ذهب ليحضره. أين وجدتم هذا الوحش؟ انظرى كيف كسر الباب. إننى حين رأيته صرخت فى التو إنى قادم، أكان لزامًا أن يركل الباب؟ من سيدفع ثمن هذه الخسارة الآن؟».

الطبيب كان مسألة أخرى. أتى به بثيابه المنزلية. وكان يونس يمسك به من قفاه وكأنه سيهرب منه. تصرفه كان مبالغا فيه بعض الشيء. إذ إن الطبيب كان إنسانا فى غاية الطيبة. ضئيل الحجم، له شوارب، يتحدث اليونانية بطلاقة، وإن كان سوريًا أو شيئا من هذا القبيل. يا يونس، قلت له، أنزل يديك عن الطبيب، ألا تستحي؟ أم ميخاليس، دعينى أنتهى من عملى وبعدها اضربينى إن شئتِ.

وهكذا أنقذنا البنت. وعندما عدنا إلى البيت بالسيارة التى أحضرها لنا يونس، ووضعناها فى الفراش ونامت، رأيت الطشت فوق المنضدة: قلت، يا إلهي، كل هذا دم ابنتي، كيف سأفرغه فى حوض الحمام؟ لكننى فعلت وعندما عاد زوجى فى الفجر، كان البيت مرتبًا وكل الأولاد نائمون

وكأن شيئًا لم يكن. الحمار. أومأت له. الحافي، كما تناديه أحيانًا، أنقذ ابنتى الليلة. من، ماذا؟ وعندما حكيت له ما حدث بالتفصيل، التفت نحوى وماذا فعل؟ قال؛ وكيف تتركين هذا العربى القذر يحمل ابنتنا فى حضنه؟

الطشت والأيقونات بإمكانكم أن تأخذوها. حتى المنضدة بالمشمع الأصفر. وأورانيا نفسها يمكنكم أن تأخذوها إلى مكان آخر، لكن الليلة فى قيظ الصيف، ضوء مصباح الغاز، الشوارع وضجيج الحي، الزجاج المكسور والزجاجات الكبيرة المضيئة بالماء الأحمر والأبيض، لهاث يونس، ابتسامة الطبيب، كل هذه الأشياء ستبقى هنا، خلفكم، سيغلق عليها فى عربات. وبدون هذه الأشياء ماذا ستأخذون معكم؟ لا شيء!

(٧)

بدا شهر فبراير من أول أيامه أنه جاء محملا بالأحداث. الاحتفالات بالنصر فى ستالينجراد تبعها هدوء مُفْعَم بالانتظار. هل مال طرفا الحرب فى الحقيقة نحونا؟ طلبت جريدة «المحارب» من الحلفاء أن يفتحوا جبهة أخرى. كما قال فانيس «الأمر بات واضحًا أن هناك اتجاها نحو التقهقر بات أكبر من أن نصل الى نصر سريع». فى نفس الوقت كانت الرسائل تأتى باستمرار فى البحيرات المُرّة. الآن حيث استراحت الكتيبة، والجنود بات باستطاعتهم دون مضايقات أن يتركوا أسلحتهم ويجمعوا المعلومات. خرج الاستنتاج بأن السلوك الغريب لبعض الضباط لم يكن محض مصادفة، ولا عشوائيًا. تقرر أن نطلب من وزارة الحربية أن تفتح ملفًا. كل مقابلة مع فانيس كان يحملنى أوراقا كثيرة يخرجها من أغرب مناطق وجيوب فى زيّه العسكري: تقارير، نسخ من استجوابات، شكاوى. قال لى وهو يعطينى ورقة أخرى، انظر ماذا تستطيع أن تفعل بهذه. من الكتائب الخامسة، بعضها كان بالبيانات كاملة، يقال إنهم كانوا يتحركون لرشوة بعض الجنود قبل معركة العلمين لينشقوا أو يتمردوا. أحد الفاشيين وقف

على مقابر الجنود القتلى وأشاح بيده باحتقار نحوهم وقال: «أنتم من أردتم الحرب، كلوا رمالا الآن». هل هذا معقول؟ قلت لفانيس «من الأفضل ألاّ يُعرف مثل هذا العار والهوان. بالتأكيد سيؤثر على معنويات الجيش»، فقال لي «انظر كم أنت بائس، أما زلت تضع اعتبارًا للمشاعر! إنك لا تعرفهم. أتدرى ماذا يفعلون الآن؟ أصدروا برتوكولا للإقالة. جمعوا عليه ما يقرب من مائة توقيع من العسكريين الدائمين. وماذا يطلبون؟ أن يتم إبعاد كل الضباط الديمقراطيين من الوحدات، حتى يدمروا الجيش. لو كانت لدينا حكومة شعبية لوُضعوا كلهم على المشانق. لكن تسوذوروس يصارع من أجل مصالح ملاك السفن، وكانيلوبولوس هنا يساوم ويتفاوض لأنهم لو تخلوا عنه سيتعرّى تمامًا؛ رغم أنهم يسبونه».

فى اليوم التالى الموافق ١٧ من فبراير دخلت أم ميخاليس بالقهوة والحلوى وقالت لي: «ماذا ستهدينى إذا قلت لك خبرا سعيدا؟».

- سوف أدعوك أنت والبنات إلى فطائر حلويات فى جروبى يوم الأحد ثم إلى السينما.

أفكر منذ أيام أننى لا بد أن أفعل شيئًا كى أرد بعضا من المعروف والعناية التى توليها لي. أما بخصوص التوأمتين، لم يكن هناك قلق أو خوف. فكانت ترى بنفسها أننا نظريًا لا نتناسب.

- قالت لي، إن ملابسى الشتوية عند الخياطة. لكن فيما يخص الفطائر والحلوى أحضرها إلى البيت. حسنًا، دخل الروس إلى خاركوف!

قفزت من مكاني: "أين الجريدة؟".

. قالت لى أليجرا إنها سمعت ذلك فى الراديو. أليجرا كانت جارتها من البيت المقابل. يهودية جميلة ولعوب، لها سلوك غير بريء.

ارتديت ملابسى على عجل. بالفعل تحررت خاركوف. ثمانية أعمدة فى الصفحة الأولى. صرح المتحدث العسكرى الألمانى إلى مراسل الجريدة السويدية قبل أن يصدر الإعلان السوفيتى «لقد تعرضنا إلى أكبر هزيمة فى الحرب الحالية». درت فى الشوارع أبحث عن فانيس. لكنى لم أجده فى أى من الأماكن المعتادة. تجولت فى الشوارع أستمتع بالطقس الدافئ. فى الثانية ظهرًا اشتريت الحلوى وزجاجة نبيذ للبيت. أمام الجامع من رأيت؟ ريتشاردز ! كان واقفًا يتحدث بجدية مع أحد المتشردين نصف عارٍ من الحى يُدعى نابليون. هل رآني؟ لو أننى سأستنتج من طريقة وقفته ورد فعله سأقول لا أظن. هل البيريه والجرح على جبهتى غيرًا من شكلى تمامًا؟ غير معقول. من الأرجح أنه لم ينتبه لأنه لم يتوقع أن يرانى فى هذه الناحية من العالم. على كل، ومن أجل تأمين أكثر، سرت حتى الحى المجاور، اتجهت يمينًا، نزلت شارع الدواوين ثم دخلت شارع البستان، ثم دخلت نفس الشارع ببطء وأنا أنظر حتى نهايته. لقد اختفى. هل كان عابرًا أم أنه يسكن قريبًا من هنا؟

صعدت إلى البيت فوجدت ستماتيس يجلس على الطاولة.

. آها، يا سلام، نبيذ وحلوى؟ هل أنت سعيد لهذه الدرجة لأن الكتيبة سترحل؟

. إلى أين؟

. غمز بطرف عينه على طريقة المنحرفين نحو والده وهو يقول، ونحن أيضًا لدينا مصادر للمعلومات. ستذهب إلى لبنان.

. لماذا، هل انتهت التدريبات؟

. انتهت أو لم تنتهِ، على كل حال لا بد أن ترحل. كانت قريبة جدًا من القاهرة وشدة الهواء أفسدت الأمر.

نزعت آريان غطاء زجاجة النبيذ وصبّت للجميع بمن فيهم نيكوس، رفعت كأسها وشربت دون أن تقول شيئًا وأنزلتها فارغة وهى تنظر لى بطرف عينها. حاولت أن أحصل على معلومات أكثر من ستماتيس دون جدوى، إما لأنه لم يكن يعرف أو أنه صمت لأنه كان مدربًا. ابتلعت الطعام بصعوبة. كنت أريد أن أخرج للشوارع مرة أخرى بحثًا عن فانيس. سأنفجر حتى الساعة السابعة موعد لقائنا. وكأن آريان فهمت تمامًا ما يدور بداخلي، فوضعت أمامى طبق الحلوى وكأنها تقول لى «اهدأ ولا تتعجل». نظرت إليها فنظرت لي. تود أن تقول لى شيئًا. عندما سألت إذا كنت أريد قهوة أخبرتها أننى أفضل القيلولة ونهضت. دخلت للغرفة ذات الثلاثة أسرَّة. دخلت بعد قليل تحمل منفضة السجائر وكوبا من الماء.

. قالت بصوت خفيض، إن ستماتيس يعرف هذه المعلومات من مدرس إنجليزى فى الحي.

. ريتشاردز، هذا الشاذ؟

- أمسكت خديها كأنها خجلت.

- وأنت أيضًا تعرفه؟

- معرفة قديمة. لكن هل يعرف هذا أننى أسكن هنا؟

- فكرت قليلا ثم قالت: "ربما نعم. أنا لا يعجبنى سلوك ابنى أبدًا. لقد ذهب إليه ثلاث مرات هذا الأسبوع. بالتأكيد أغواه ببعض المال كى يأخذ منه المعلومات. ماذا نفعل الآن؟.

- لا شيء. لا بد أن نفكر.

- كما تشاء. نم الآن إذن.

جافانى النوم. بالكاد تحملت حتى الرابعة. نهضت، حلقت ذقني، اخترت ربطة عنق جيدة، شربت القهوة وسألت وأنا فى طريقى للنزول أين يسكن ريتشاردز.

- قريبًا من هنا عند البناية الكبيرة فى الدور الثالث.

صعدت الدرج الرخامى وأعجبتنى نظافته. حالة أخرى، عادات أخرى، وكأننا فى حى سكنى آخر. المقابض البرونزية كانت تلمع وأمام أبواب الشقق سجاجيد مصنوعة من جريد النخيل. على رأس الدرج فى كل طابق وضعوا أصص الزرع وتحتها أطباق حتى لا تتسرب منها المياه. الزجاج المعشق على المناور كانت ألوانه بين الأخضر والبرتقالى والأزرق. بئر الدرج كانت تسبح فى هذا الضوء الرومانسى الذى يُذكر بمعارض

سان شابيل. لكن هذا الزجاج كان له غرض آخر: كان يمنع الرؤية نحو قبح المتاهة من أعلى. ضربت الجرس. فتح لى بنفسه ولم تبد عليه الدهشة أبدًا. دخلنا نحو الصالون. تحت الروب المنزلى كان يرتدى بلوفرًا كنارى اللون، كان لديه أيضًا فى أورشليم. لكن لون وجنتيه، رغم كل الشعاع المنعكس عليهما من الكريستال والياقوت والمخمل، بدتا باهتتين.

- هل أيقظتك؟

- لا أبدًا. فى الحقيقة كنت أنتظرك. لم أوقفك فى الشارع لأننى لم أعرف إذا كنت تريد ذلك. لكن حرصت على أن تراني. وكان رد فعلك تمامًا كما توقعت: دخل فى الموضوع مباشرة. سعدت بهذا. لكن أود أن أهنئك أولا. أعرف، أعرف. هذا النذل ستماتيس حكى لى كل شيء. رغم ذلك لكن جرحك هذا لا يمنع أنه إصابة حرب، وقد جاء فى مكان طيب. أعرف روحًا ما ستجدك أكثر جاذبية بهذا الجرح.

- سألته بحياد.

- نانسي.

- تبالغ يا دكتور ريتشاردز. لكن، هل حقيقى أن رون...

- مع الأسف. الأمر مؤكد دون أدنى شك.

اختفى توتري. ربما لم يكن يعرف بخصوص إيمي. شعرت بالحر فى هذا الصالون المغلق فنزعت البيريه عن رأسي.

- وأين الليدى نانسى الآن؟

- آه لو سمعتك! هى دائمًا تكره الألقاب. على العكس من أخت روني، الليدى ويلينجتون، تعرف أنها زوجة السفير هنا. لكن عليّ أن أقول إن شعرك الحليق يناسبك جدًا! نانسي؟ إنها تسكن الآن فى بنسيون الفراو فيلدمان. فى غرفتي. أعنى فى الغرفة التى كانت لي. أليست غريبة كل هذه المصادفات؟ كل الأشياء مرتبطة، اعتدت أن تقول هذه الجملة. بم تذكرنى الآن بشعرك القصير. هل قرأت لمن تدق الأجراس؟

- قلت، لا. أنا لا أحب هيمنجواي.

- أنت محق. على أية حال فى تلك الرواية كانت هناك شخصية بنت قامت الكتائب بحلق رأسها واغتصبوها، كان اسمها أظن، ماريا، نعم. وطوال الرواية كانت برأس رجالي. ما هذا؟ هل صرت مدخنًا؟

أحضر منفضة السجائر البرونزية ذات نقوش المندرا بجواري.

- سأطلب من سليمان أن يعد الشاى فور أن يأتي. هل تذكر (الفايف كلوك تي) للسيدة فراو فيلدمان؟ كم كانت فخورة بأدوات مائدتها! معذرة أنا أثرثر كثيرًا لأقوم بواجبى كمضيف. أراك عابسًا. فى الحقيقة أنا وجدت نفسى مصادفة فى مفترق الطرق التى تغطى مساحة لا بأس بها من حياتك الشخصية. صدقني، لم أكن أريد ذلك مطلقًا. من ناحية نانسى وستماتيس، ومن ناحية أخرى أحد زملائى فى الدراسة، لنقل زميلى فى السفارة منشغل بشأنك. هل ترغب أن تذهب إلى فلسطين مرة أخرى؟

. إلى لبنان تعني، مع الكتيبة.

. لا، أعنى أورشليم. فى بيت كولر، داخل أشجار الكينا والصنوبر.

إلى أين يريد أن يرسلني؟ فى المرة الأولى، ومنذ أن عرفنى ويمر بذهنه دائمًا أنه من الممكن أن يجعلنى ألعب لعبة مزدوجة. لم أقل شيئًا.

. إذن أسمك سيمونيذيس وليس كالويانيس. أم أن هناك اسما ثالثا؟ آه، هل تعرف ما الخبر السعيد؟

. عن خاركوف؟

. من يعبأ بخاركوف هنا الآن؟ هل علمتم أن وينتر قد انتحر؟

. وينتر؟ أتقصد هذا الواشي. لماذا انتحر؟

. يقولون إنه كان مصابًا بالزهري، وقد أثر المرض على أعصابه. لكن يبدو لى أن هناك مبالغة ما فى هذا الأمر. لا بد أن هناك سببا آخر.

. هل كتبت لك الليدى نانسى عن هذا؟

. لا. عرفته من صديق لها فى السفارة. قال لى إن ملف مقتل شخص يدعى آدم قد تم حفظه. الطريق نحو أورشليم مفتوح.

. هل هو نفسه من قال لكم عن سفر الكتيبة؟

. نعم، ستذهب لمناورات قتالية فى الجبال. لكن فى الحقيقة أنهم يبعدونها عن القاهرة، لأنها تمارس ضغطًا فى وسط الحكومات. لكن فيما

يخص خاركوف، قال إن الألمان سوف يستردونها.

- وهل تعلم أنني، سيمونيذيس، فى القاهرة؟

عبس وجهه فجأة. وتشكلت تجاعيد أفقية على جبهته.

- سيد سيمونيذيس، قل لي. من فضلك. ماذا تظنني؟

- دكتور ريتشاردز، أعتذر منك. لكن تتفهم أن الأمر لا يتعلق بأمنى الشخصي. أعرف أنك لك مبدأ فى هذا الخصوص، لو كنت قد ضايقتك من فضلك تقبّل اعتذارى مرة أخرى.

- قال بسرعة، حسنًا، انس الأمر. إن صديقا مهتمًا للغاية بأن يعرف من يكتب فى جريدة «المحارب». أنا أعرف. أنا أستاذ فى الأدب لا تنس هذا، وعالم آثار أيضًا. ولديّ ذاكرة مدربة تساعدنى أن أتذكر تعبيرات بعينها، وأتعرف على إيقاع وطريقة كلام وكتابة لديك. بالطبع لم أقل شيئًا. أستمتع أن أراه يهذى بكل هذه الافتراضات. ذات مرة عرض عليّ أن أذهب إلى أورشليم كى أجدك. بالطبع رفضت. ماذا يريد منك؟ لا أظن أنه يريد أن يزج بك فى السجن، لكن أتخيل أنهم يريدون أن يكون لديهم اتصال بالعقلاء من اليسار كى لا أقول بالمتواضعين. أعرف أن قوة جيشكم القتالية ترجع إلى دعاية اليساريين. وبالطبع يمكن أن يقوموا بخطط شيطانية بعد الحرب. لكن ما يشغلهم هو أن ينتصروا. هو نفسه كان شخصية مزدوجة، فى شبابه انضم لحركات تضامن ضد احتلال منشوريا وإثيوبيا وإسبانيا. لكن الآن يشعر أن له الحق أن يكون له رد فعل إزاء سياسة بلاده. هو موظف مجند

وينفذ أوامر. هكذا يتعامل مع الأمر وبالطبع هو شديد القلق. أنا أقول له إنه قد باع نصف روحه للنصف الآخر، وأنه محكوم عليه بالفشل لا محالة. ليس مستحيلا إذا جمعتكما على اتصال أن يقول لك أشياء مفيدة. لكن فى نهاية الأمر مصلحة الإمبراطورية هو ما سوف يشغله دائمًا. لكن حتى لو طلبت ذلك منى لن أفعل. بعيدًا عنى هذه مستنقعات السياسة يا صديقي. هذا ما أريد أن أقوله لك منذ زمن. مستحيل أن تتخيل كم المكائد والميكافيلية والخيانات التى تُدبر.

- لست فى حاجة أن أتخيل، أعرفها كلها. وكل الأشياء تبدأ من مكتب العلاقات الخارجية.

- أو من ١٠ شارع داونينج. ومن موسكو أيضًا. والآن الأمريكان. دعنا الآن من هتلر وموسوليني، أظن أنهما يجهزان بحرًا من الدماء.

- ربما. لكننا نناضل من أجل الوحدة. سوف نمنع الشر.

- الآن تتحدث مثل "المحارب". أنت متأمل جدًا ولديك حساسية عالية. ألم تفهم حتى الآن أن البشرية لن تتوقف أبدًا عن القتل؟ والرهيب فى الأمر أن كل هذا الذبح والقتل يحدثان دائمًا تحت راية أيديولوجية ما. خذ مثالا طرد المسيحيين، والأقليات، وأصحاب البلاد، والحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش، واحتلال أمريكا، ولوثر، وروبسيبير، ونابليون، وتيير، وكليمنصو وقيصر، وهتلر وموسوليني، وغيرهم الذين لم أذكرهم حتى لا تقل إننى أستفزك.

لقد استفزني بالفعل عندما وضعت موسكو بجوار هتلر وموسوليني. لكن دعنا نبقِى على مستوى الحوار الرصين. لا أنكر كل العلل التى أدرجتموها كانت ضرورية. لكننى أرى أنه أمر مبهر أن البشرية رغم كل هذا تتقدم.

.تتقدم بالنسبة لمن؟ أى حرب خلفت عددا من الضحايا مثل هذه الحرب؟ هل هى الحرب القادمة؟ أم تظن أن هذه الحرب ستكون الأخيرة؟ آه، إن قدر الإنسانية تراجيدي. إن من ينكر إنسانيته فى أعماقه، هناك طريق من اثنين ليختار، ليس إلا. إما أن يسلم نفسه كضأن أضحية فى أيدى السفاحين، كان لدى صديق ألمانى ماذا فعل عندما بدأت الحرب؟ ذهب بنفسه إلى معسكرات تعذيب هتلر فسلخوه حيًا.

.والطريق الآخر؟

.هو الذى اخترته. يعبر عنه بالتفصيل أحد شعرائكم: "قدر ما تستطيع من العطور الحسية".

. قلت، كفافيس.

. نعم. كم أنا حزين أننى تعرفت على قصائده فقط أخيرًا. إن إليوت وكفافيس هما شاعرا القرن العشرين. فى هذا الشأن أعترف بأن البشرية تقدمت. إذ إن القرن التاسع عشر قدم لنا بودلير فقط.

التناقض. فى السنوات الأخيرة كان إليوت يتحدث ربما بتزمّت عن بودلير والذنب. أو ربما كان مزيجًا من العشق الجريء والالتزام الروحي،

أظهر بشكل صحيح العالم الداخلى لريتشاردز؟ سُمع صوت انغلاق أحد الأبواب داخل الشقة.

. اعذرنى لحظة. سأذهب لأوصى بالشاي. كانت هناك هوة بيننا. هل تغير كثيرًا خلال العام الأخير، أم أننى لم أكن أفهمه جيدًا؟ أم هل تغيرت أنا فى تلك الأثناء؟ تذكرت غاريللا وكلامه وقناعته ومنطقه: «ضع هذا الكلام فى عقلك جيدًا، سنأكل وندمر هذه الهتلرية... أنا لم أذهب إلى ألمانيا كى أهدم بيته، لأقتل زوجته وأقتل ابنه من الجوع. لكن ابن الحرام هذا فعل». حقيقتان، عالمان. لم يكن الأمر يتسع لشبهة تردد. كنت أقف إلى جانب الحق.

قمت كى أتفحص الصالون. كنت أتخيل أنه يعيش فى مكان مختلف. الأثاث ثقيل وقديم. يطغى الرخام الأسود عليه والخشب المذهب والخشب المشغول والقطيفة الحمراء. فى كل مكان كان منحوتًا أشكال أسطورية مثل طائر السفنكس والكمير الكائن الأسطوري. داخل زجاج إحدى الخزانات كان هناك ريش طاووس ومراوح إسبانية ومصابيح يابانية وأشكال منمنمة إنجليزية. زوج من أحذية الرقص الحريرية وتحف متعددة، أدوات شرب للمائدة مصنوعة من كريستال مورانوا الأحمر. قلّ الضوء فى الغرفة فضغطت على زر الكهرباء على الحائط فأضاء مصباحًا بقوة على اللوحة الوحيدة فى الصالون. كان بورتريها لامرأة شابة مرسومًا بألوان الزيت فى ربع الحجم الطبيعي. واقفة ترتدى ثوبًا ثقيلا وتضع يدها اليسرى بثقة على خصرها النحيل وقد أحنت رأسها بإغواء مبهج بشكل تدريجي.

أهدابها الثقيلة تظهر إرهاقها وتركيزها وجبهتها الصافية تبين إخلاصها. أنفها المعقوف وشفاهها الكبيرة كانت تشى برغبة مكتومة فى الضحك. الإضاءة فى اللوحة كانت أشبه بدخان يخرج من فتحة صدرها ويطوق وجهها الجميل الذى لم يكن أبدًا غامضًا.

. سمعت صوت ريتشاردز يقول من خلفي، كانت فائقة الجمال.

كل معاصريها كانوا يؤكدون ذلك. فقط هؤلاء الغربان الأثرياء كانوا يلقبونها بالسوقية وأنها من الرعاع.

. لكن مَن هي؟

. ألم تعرفها؟ لقد أصابتنى بالإحباط. ألا تذكر: bonne, a la A la tres tres .belle, a la tres chere

. أبولونيى ساباتيه. لو لم تقل أنت... كنت أتخيلها دائمًا كتمثال نصفى فى متحف اللوفر. لكن هذ الصدر العاري...

. نعم، Clesinger، جعل منها مثل أرتيمس أو أمازونة. لكن انظر إلى ذقنها وجبهتها. إنها هى نفسها. ميسنور رسمها تمامًا كما كتبها بودلير فى أحد أعماله.

. وكيف وُجد هذا الكنز فى يدك؟

. دعنى أشرح لك. إنها ريشة محترف، لكن اللوحة مزيفة. البورتريه الأصلى بالحجم الطبيعى يوجد فى فرنسا. كان قد أمر بها راعيها آنذاك،

لكن هذه نسخة منها صنعها أحد الفنانين من أجل متعته. إنه أمر معتاد. عندما تركها طلبت من Meissonier– أن يعطيها نسخة منها على الأقل. لأننى على يقين من أن فى هذه الشقة وهذا الأثاث، ماتت أيقونة بودلير.

ـ مستحيل! هنا فى القاهرة، فى بلد عربي؟

ـ وأنا لم أكن أصدق. لكنى الآن واثق تمامًا من هذا. دعنا نشرب شيئًا. هل أنت من أضاء المصباح؟

ـ كان سليمان رجلا شرقيا أسود، انحنى ظهره من الكبَر، صامتًا ووقورًا. وزننى بعينيه ثم ابتسم. من يدرى أى عينات من الناس يدخلون هذا البيت؟

ـ دعنى أقص عليك حكاية الشقة. هل انتبهت إلى صناديق البريد فى الأسفل. لوحة برونزية عليها حروف منقوشة. يقول ريتشارد، إن ريشار مهندس فى السكك الحديدية وآخر رفيق لساباتيه كان اسمه إدموند ريشار وتصور كان مهندسًا، مهندس السكك الحديدية للشرق الأوسط فى فرنسا. عندما عينت فى الجامعة وطلبت أن أؤجر حجرة، عرض عليّ أحد الزملاء هذه الشقة بأثاثها. كانت مغلقة ثلاث سنوات تقريبًا لأن صاحبها مات ولم يكن له ورثة. كانت لرجل اسمه ريشار كان مشرفًا على السكك الحديدية المصرية. بالطبع لم يكن له علاقة بصديق ساباتيه لكنه كان إما ابنه أو ابن أخيه. سأتأكد من هذا عندما أذهب إلى فرنسا. أعجبتنى الشقة والحى أيضًا، واتفقت عليها دون أن أجادل فى السعر مع القنصل الفرنسى الذى

كان متحمسًا، لأنه لن يقلق بعد الآن على الإيجار. حينئذ كان هناك بواب آخر. هو أول من حدثنى عن السيدة ريشار التى كانت تعيش فى هذه الشقة، وهى عجوز قبل ٢٥ سنة أو ربما ٣٠: قال إنها هى أول من أقامت نظامًا للعناية بالدرج، وهو ما زال قائمًا حتى الآن. هكذا كانت تعيش فى هذه الشقة مدام ريشار، جاء فى ذهنى أنه تشابه أسماء دون أن أتخيل أنها امرأة بودلير. لكن ذات يوم وقع فى يدى الكتاب الذى كتبه هنرى بيجى للـ Presidente. وفيه فقط قرأت عن آخر أصدقائها. قلت هذا مستحيل. كتبت لهم فأرسلوا لى صورة لوحة Meissonier. هى نفسها، كانت هي! لك أن تتخيل ما حدث لي. كنت أنام كل هذا الوقت على فراشها، فى الفراش الذى نام الشاعر فيه للمرة الوحيدة والأخيرة فى ليلة ٢٩ أغسطس عام ١٨٥٧. ماذا حدث؟ لماذا كتب له هذا الخطاب المرعب؟ كان يحبها فى صمت منذ عام ١٨٤٢، عندما كان يرتاد صالونها فى المكان الذى يسمى الآن بلاج بيجال. كل هذا العشق، كل هذه السنوات ليكتب لها كل تلك القصائد الرائعة التى لم تأخذها تلك المرأة، وعندما باحت هى أخيرًا بحبها، ماذا حدث؟ لماذا يكتب لها: "وعلى أية حال، كنت قبل أيام ربة، أمر مريح، جميل، لا يُلمس وها أنت الآن امرأة". فلم يعد يؤمن بالحب! لكن تلك الشريرة المدعوة جان تيفال، قد جننته. لكن من منا يفكر فى عذاب أبولونى ساباتيه؟ لكن ما حدث تلك الليلة لا بد أنه عذبها كثيرًا. هنا داخل جدران هذه الحجرات، قضت ليالى ساهرة تغنى وتطلب شفتيّ ويدى رجل ميت. من وصف التاريخ ومن المؤرخين لم تعجبنى أى امرأة. فى الليل أحيانًا عندما يجافينى النوم أحاول فى فراشها أن أعيد الأحداث. كنت أشعر بأكتافى تأخذ تلك المنحنيات كما فى الصورة من مجلة الـ Presidente ولى صدرها الثري. وأنشد الشاعر فوقي.

ذات مرة، مرة واحدة فقط، امرأة جميلة ونبيلة

على ذراعي على ذراعك الأملس

ألمس ...

أعادني إلى عام ١٨٥٢ في إحدى التمشيات الليلية التي كنا نقوم بها على بلاج الكونكورد، عندما لم يكن يجرؤ على البوح بحبه. كان يفضل الحب الملائكي، أن يراني كملهمة، أن يعتبرني عذراءه، أما أنا فلا شيء سوى الكرب.

راح ريتشاردز يبكي بعيون جافة. كان مشهدا غريبا وغير لائق. كان لا بد أن أقول أو أفعل شيئا دون أن أجرحه وأخرجه من هذا الجو العاطفي المريب هذا. لجأت إلى حيل الرجال: نظرت إلى الساعة.

. سأل ببساطة، هل ينتظرونك.

. نعم في السابعة.

. لو أن موعدكم بعيد عن هنا فلا أحب أن أؤخرك.

. سأذهب بعد قليل. أردت فقط أن أسألك بمَ تنصحني؟ هل أبدل محل إقامتي؟

. لكن أظن أن الموضوع قد أغلق. ألم يمت وينتر؟ بالطبع الملف ما زال موجودًا. لكن من سيربط بين كالوينيس في أورشليم وسيميونيذيس في القاهرة؟ نانسي؟ إنها لا تعرف إلا كالويانيس. صديقي في الـ... سفارة؟

أرى أن هذا صعب جدًا. أما أننا نسكن فى نفس الحى له قيمة ما. فكر فى الأمر. إذا أردت أن تريح بالك تمامًا سأقترح عليك أن تبقى هنا. هناك حجرات كثيرة خالية.

- شكرًا لك يا دكتور ريتشارد، أظن أننى لن أحتاج هذا أبدًا.

عند المدخل السفلى نظرت إلى صناديق البريد وفحصت الأسماء كلها. ليس يوجد أى اسم ريشار. ماذا يعنى هذا؟ هل اخترع القصة كى يغرر بي؟ لكن بدا عليه أنه يصدق الحكاية هو نفسه. هل هو روائى أصابه الجنون؟ هل يعقل أن هذا هو ريتشاردز الذى لديه تفكير تحليلى يخرق العظام؟ أم أن تلك هى روحه تحت ضغط الرغبة، رقصت لى رقصة شعوذة فكرية إيحائية؟ كيف يمكن أن أثق فيه بعد ذلك؟

وجدت فانيس يرتعد من البرد عند المحطة أمام سميراميس. كانت ليلة جافة معبأة بالسحب والبرد قارص ينخر العظام. فى النيل بحارة المراكب الشراعية الصغيرة أشعلوا المصابيح الصغيرة فسقطت إضاءة غامضة على الأرائك والوسائد المفروشة من أجل العشاق. كان فانيس يرتدى ملابس مدنية دون معطف، لم يكن لديه غير المعطف العسكري. وبالطبع لم يفكر أن يشترى جابردين إنجليزى من تلك التى كنا نحب أن ننظر إليها فى نوافذ المحال فى شارعى عماد الدين وفؤاد. كان يقول إنه من دون المعطف كان لا يلفت الانتباه. فكى لا يرتدى معطفًا، هذا يعنى أنه جاء أو سيذهب إلى مقابلة مهمة، بعد أن انتهينا أردت أن أقول له فورًا عن انتقال الكتيبة وعن ريتشاردز، لكنه لم يترك لى الفرصة.

- هل تعرف ريجو؟

- ريجو المناضل من إسبانيا؟

- نعم، من المقاومة. الحزب الشيوعى الفرنسي.

- بمعنى أننى لا أعرفه شخصيًا. لكنى أعرفه منذ الوقت الذى كنت أعمل بأحد الأقسام التى كان يشرف عليها بنفسه.

- إنه فى القاهرة. جاء من موسكو عبر طهران وسيذهب إلى الجزائر. ينتظر طائرته. يبدو أنهم سيشكلون حكومة مؤقتة. الصحف تقول إنه سيقابل ديجول هناك.

- إذن؛ الرفاق الفرنسيون أمورهم تسير بشكل جيد.

- لا تتعجل. لنرى فيم يفكر الأمريكيون؟ كيف سيكون رد فعل جيرو؟ ربما سنعرف قريبًا. الأصدقاء فى المعهد رتبوا لقاءً فى التاسعة.

قال هكذا ببساطة لكن كانت تبدو عليه السعادة. المعهد، يعنى مكان الاجتماع كما كان يسميه كوزموبوليتانيو اليسار، كان مبنى قديما به مخازن ومحال ومكاتب وشقق وجرسونيرات يقع فى وسط المدينة. مبنى رمادى به أعمدة وممرات، نوافذه الأمامية دائمًا مغلقة، وساريتان ضخمتان خلتا من الأعلام كانتا تنحنيان من البلكونات الرخامية فى الطابق الأول، المبنى يطل على ميدان كان له اسم أحد أصحاب البنوك الشوام الذى اشتهر ببخله الشديد. والآن صار لأحفاده الذين راحوا ينتزعون

عظام كل شيء بلا أى شعور بالذنب: الأراضى الزراعية والمنازل والأسهم والجواهر. باكرًا وقع الأخوان فى نزاع عقائدي. الأخ الأكبر كان تروتسكيًا وسورياليا وزنديقا. كان يراسل أندريه بريتون ويستخدم آخر إصدارات زيورخ وباريس وبصفاقة عالية كان يكتب فى كل مرة هجاء جديدا لأراجون على شكل قصة شعرية. فناء طويل ضيق كان يفصل المعهد إلى جناحين. الأخ الأكبر أخذ الجناح الأيسر وسمّاه بتحد «لينين». وبقى الجناح الأيمن للأخ الأصغر، سمّاه الأعضاء «ستالين» كيدًا. لكن الصراع العقائدى لم يستمر. منذ اندلعت الحرب وحتى الآن كان الأخ الأكبر ينظم فى شقته بشكل منتظم ريستال بأسطوانات أعمال ستاى وبارتوك وسيمبيليوس، فى أيام الحرب بين السوفيت والفنلنديين. الكثير من مدعويه كانوا فى طريقهم للمغادرة يمرون على الجناح الأيمن الذى كانت نوافذه المطلة على الفناء تترك مضاءة أحيانًا حتى الصباح، كى يروا ماذا يحدث هناك. وإذا لم يجدوا الأخ الأصغر كانوا يغادرون محبطين. الطابق الأول بأكمله كان عبارة عن ممرات باهتة الأضواء وأبوابها موصدة تمامًا ومن خلفها كانوا يسمعون أصوات الآلات الكاتبة وحوارات الأشخاص فى الداخل. كان الأخ الأصغر يدور فى القاهرة باحثًا بدأب عن يساريين كى يقدم المساعدة. كان يقدم المساعدة لكل الجنسيات، فكان يعطيهم حجرة بمكتب وأريكة للجلوس بأجر رمزى ويتركهم وضمائرهم. كانوا من الأرمن المؤيدين والإيطاليين المعادين للفاشية، صحفيين فرنسيين وفنانين، معلمين إنجليز من أجل الجنود. لكل مكتب كانت هناك كنيسة صغيرة. وهو دون أن يقول ودون أن يعترف صراحة، كان منسقًا طموحًا فى الثلاث غرف فى العمق. لم ينجح فى

استضافة أى يونانيين وكان الأمر ثقيلا على نفسه، مثل صاحب هواية جمع طوابع البريد الذى يغيب عنه أحد الطوابع كى يُكمل السلسلة. لكن هاهو فانيس الآن يشير إلى «إخواننا فى المعهد». قلت له ملاحظتي. تحدثنا عن الأمر بعد ذلك، وقال لى إن الأمر برمته تفوح منه رائحة غير طيبة. على أقل تقدير وما يستطيع أن يقوله المرء هو أن أولئك الناس يعملون بخفة خطيرة.

- قال لى أنت على حق. بكل هذه العلنية كان من الطبيعى أن يعج المكان بالجواسيس. هل يطلب منك أحد تذكرة؟ بما أننا نحب أن نلتقى هناك؛ أظن أن الأمر يستحق المخاطرة.

- لماذا. هل تعتقد أننى سآتى معك؟

- نعم. قالها بالفرنسية.

كان فانيس يقرأ الفرنسية ويفهم ما يقرأه جيدًا. وإن كان لا يتحدثها. كنت أعرف هذا من شهر نوفمبر قبل أن أصاب. ذات صباح كنا فى الحافلة ذاهبين لإحدى الضواحي ولم نجد صحفا يونانية. قبلها بيوم كان تشرشل قد تحدث عن الوضع. أخذ فانيس الجريدة الفرنسية بروكيه وراح يقرأ بسرعة وبصوت عال: بيونانية فصيحة قديمة ! بالطبع كان يخطئ فى تصريف النهايات وفى زمن الجملة وتركيبها غير المنطقى لكنه كان يعرف معانى الكلمات حتى الصعب منها. قلت له « لماذا تصيح؟» فقال «لا بد أن أسمع الكلام بأذنى حتى أتأكد من أننى أترجمه بشكل صحيح». عندما انتهى وطوى الجريدة كان اللغز قد حُل. قد تعلم الفرنسية فى سجن بيلو

بمساعدة قاموس كانت صفحاته تدور من زنزانة لأخرى ملفوفة فى أوراق الجرائد التى تستخدم كورق التواليت للتمويه. لكن لم يكن هناك أحد قد درس الفرنسية بين مساجين ميتاكساس كى يدربهم على النطق الصحيح والمحادثة.

- قلت له، هل تعلم أن ريجو صارم جدًا. وأنه إذا أعطى موعدًا لواحد لن يقبل أن يقابل اثنين.

- لا يهمك هذا. فقد رتبته. قلت إننا اثنان، ضابط ومجند. الضابط سيتولى الترجمة.

حاولت أن أكلمه عن الكتيبة وقاطعنى مرة أخرى. كان عقله غارقًا فى المقابلة. يوليها أهمية كبيرة. قال لى شيئا كنت أسمعه يُهمس فى فرنسا: أن ريجو كان من الرفقاء الأجانب القلائل الذين اقتربوا من ستالين دون شكليات.

- فهمت. إنه ليس مجرد زعيم فى الحركة العالمية. بل هو أحد قادة الثورة المسلحة. لكن دعنى أوضح لك شيئًا. لا أريد حوارات ثقيلة! سنرجوه أن يقيم لنا الوضع على الصعيدين السياسى والعسكري. سنقضى معه عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، قدر ما يسمح لنا. هذا يكفينا. سيضيء لنا بعض الأمور. بعد ذلك وحدنا نقارن الوضع بأمورنا وظروفنا ونخرج بنتيجة. بالطبع لو طلب منا أن نقيم الوضع فى وحدتنا ستكون إجاباتنا محسوبة. ومن الأفضل أن تدعنى أنا أتحدث. أنا مستعد. كان لا بد أن يطلب

ويؤكد أن أتجنب الخوض فى أمور أخرى.

قضينا الوقت الذى يفصلنا عن المقابلة فى مقهى فى ميدان إسماعيل. شرب فانيس شايًا وأنا قهوة. جحظت عيناه وهو ينظر إلى النافورة فى الميدان خلف الجامع ولم ينطق بكلمة. سيستجمع النقاط فى رأسه.

ـ أليس من الغباء أن يفتحوا النافورة فى الشتاء! أنا أشعر بالبرد فقط من رؤيته.

اعتقدت أن هذه هى اللحظة المناسبة كى أقول له عن ريتشاردز. سمعنى قليلا ثم طلب منى أن نحكى فى الأمر فيما بعد. كان يعرف أن الأمر فى غاية الجدية، لكنه لم يكن باستطاعته التركيز. عدنا إلى موضوع ريجو مرة أخرى.

دخلنا أنا وفاينس إلى المؤسسة لأول مرة. عبرنا الفناء المملوء بالصناديق المعبأة والقش من مخزن خمور أبوابه نصف مغلقة. هبت علينا رائحة رطبة من نشارة الكونياك. صعدنا الدرج؛ الذى بدا لنا مضاء بشكل كاف وليس كما يشاع. نزل واحد على عجل. كان بيرتون أحد علماء الآثار اليونانية، راديكالى تقدمى له شعر أبيض جميل، كان صديقًا لكوستيس بالاماس. احمر وجهه وراح يتحدث وحده «Il est fou, fou ! " انسحب نحو الحائط وقال "باردون" دون أن ينظر لنا ثم نزل الدرج. على بسطة الدرج استقبلنا أولا بابتسامة ذات معنى للدور الذى يلعبه الآخر الأصغر. كان يعرف فانيس ثم تصافحا بحرارة. التفت نحوى ثم نظر إلى فانيس وحيّاني.

كان ينتظر أحدا كى يقول له اسمي. لكن فانيس تصنع أنه لا يفهم. ثم قال مبتسمًا: "فى ميعادكم بالضبط" مر أمامنا ثم قادنا نحو الطابق الثاني، حيث كانت شقته. وضع المفتاح وفتح الباب، أدخلنا نحو الهول المفروش بذوق رفيع. دق على أحد الأبواب، سمع ردا، فتح. قال جملة ثم أدخلنا للداخل، أغلق الباب وغادر.

خلف مكتب من خشب الجوز والزجاج كان ريجو يجلس. ضخم وثقيل كئيب المزاج وحاد الطباع. شعره الرمادى كان كما كنت أعرفه، لكن وجهه قد تهدل، بياض عينيه امتلأ بقعًا حمراء، طالت لحيته وخفت.

رأيت وجهه معكوسًا على كريستال المكتب الذى أمامه عندما رفع عينيه كى ينظر نحونا. كان يشبه أسدًا يغوص برأسه فى عمق أخضر. بجواره بميل بعض الشيء كان هناك دفتر وبعض الأقلام الرصاص مسنودة على الكريستال، كانت هناك فتاة سمينة ذات عيون زرقاء. لون بشرتها محمّر ترتدى ملابسها بلا أى ذوق على قوامها الذى يبدو روسيًا. أحضرها معه لتقوم بأعمال السكرتارية. عندما مررت من الباب نظرت إليّ بتفحص وانحنت على ريجو وهمست له شيئًا. هل تعرّفت إليّ؟

مصافحته كانت قوية وابتسامته دافئة، كأنه قابل صديقا. الغرفة لم يكن بها مقاعد فكان علينا أن نبقى واقفين. أخذ ريجو قلمًا من الفتاة وأشار نحوي.

- أنت أولا.

ـ قلت له من أنا، إلى ماذا أنتمى عندما كنت فى باريس، ذكرت بعض الأسماء والأماكن. وعن موعدنا فى الرابع عشر من يوليو ليلا أمام تمثال غالان حيث لم يحضر، نظرت إلى الفتاة، رأيت أن عينيها عليهما سحابة حالمة. ذكرت أماكن مثل نهر السين والجسور، وعندها عرفتها. كانت زينيت، كانت مسئولة المكتبة فى القسم الخامس فى السنوات الجميلة الأولى للحركة الشعبية. ابتسمت لي. لكن كيف سمنت هكذا؟

ـ قال ريجو: أمر غريب. لكن أكمل. ورسمت زينيت على شفتيها ابتسامة مكبوتة. انحنت ببرود على دفترها وراحت تكتب. رحت أعطيهم معلومات أخرى.

ـ قال ريجو ثانية: أمر غريب.

ـ ما الذى ترونه غريبًا يا رفيق إذا سمحت لى بالسؤال؟

ضرب القلم على الكريستال ونظر إليّ بعينين حمراوَيْن ثم قال ببطء.

ـ وثائق تفويضكم تقريبًا معرضة للخطر. هذا هو الغريب. كيف توجد أنت الآن فى القاهرة، بالضبط فى المكان الذى أحتاج فيه شخصا يضمن لى الرفيق؟ أمر غريب. إصابة؟ أين؟

قال وهو يشير إلى الجرح الغائر بقلمه. كنت قد نزعت البيريه عندما دخلت.

ـ فى برقة، قلت له. لديّ جرح آخر من ألبانيا.

. والرفيق، هل حارب فى اليونان؟

. لا، لم يحارب، كان مسجونًا. كان ضمن هؤلاء الذين كان يعدهم فاشيستيو ميتاكساس ليقدموهم إلى هتلر. إنه عضو قديم.

. أريد أن أشرح ماذا عنيت بما قلت سابقًا: لماذا ترتدون الملابس المدنية؟ لو كنت قبضت عليكم فى إسبانيا كنت سأقتلكم. ثانيًا والأهم: بما أن كليكما كان فى اليونان وقت انهيار الجبهة، ما الذى حملكما إلى هنا؟ إن موقف حزبكما واضح وصريح: لا أحد يغادر... إلخ. ألم يعجبكما أم ماذا؟

شرحت له الفوضى التى عمّت بعد انهيار الجبهة، وكيف وجدت فى الشرق الأوسط دون أن أعلم شيئًا عن موقف الحزب. بالنسبة لفانيس كان الأمر مختلفًا. كاد أن يموت من الجروح ومن الجوع، هرّبه الرفاق إلى جزيرة ساموس، ومن هناك رفاق آخرون هرّبوه بسرعة إلى تركيا، حيث حدثت خيانة ما فكان مطلوبا من الإيطاليين.

. لكنه هنا ولم يمت، قال ريجو.

تذكرت ما قاله فانيس. ذات مرة قلت له إنه لم يحسن صنعًا أن يكشف عن مقابلاته أمام غرباء، وحده. فهناك خونة فاشيستيون فى القاهرة يعرفونه ولم يكن صعبًا عليهم أن يقتلوه. "اسمع" قال لي: "هناك فى بيلو، عندما تركونا دون ماء ولا خبز وكنا ننتظر الألمان لينهوا أمرنا، قلت؛ كفى حتى هنا. ودعت الحياة. كل ما سوف أعيشه من الآن فصاعدًا هو بقشيش. لكن هؤلاء هم من أنقذوني. أبناء الشعب، أبناء الحزب...".

. قلت له، لا، لم يمت. ولحسن الحظ. فموته كان سيمثل خسارة فادحة.

ـ ما اسم الرفيق؟

صمتُّ. أجاب فانيس بدلا عني.

انحنى ريجو ليسأل زينيت شيئًا. أخرجت بدورها كارنيها قرأت محتواه ودونت شيئًا فى دفترها.

ـ سألنى شيئًا عن فانيس بعدما دمر اسمه عندما نطقه. يبدأ بلماذا؟

ـ فى فلسطين.

ـ لقد كنت أساله هو.

أخذ فانيس يشدنى من ذراعى قائلا: "هيا، هيا بنا". أشارت لى زينيت بعينيها "لا تُصرَ".

ـ لكن الرفيق من هنا هو السكرتير العام للمنظمة، قلت.

ـ أى منظمة؟ منظمة الجيش؟ لو كنتم عندى فى إسبانيا لأطلقت عليكم الرصاص.

ـ قال لى فانيس، اسأله لو أحضرنا له ما طلبه، هل سيقبله"؟

ـ جاءت الإجابة بنعم. لكن خلال ثمانٍ وأربعين ساعة على أبعد تقدير، لأننى مضطر للرحيل.

ـ مصافحات دافئة، ابتسامات. كانت زينيت تنظر فى دفترها بإصرار. ذهبت نحو الباب. خروج. فى القاعة سمعت صوتًا من فانيس كأنه نحيب

غريق. نظرت إليه تحت الإضاءة. كان هادئًا وكأن شيئًا لم يحدث. تذكرت بيرتون: "Fou, fou ! " هل خرج من نفس المكان الذى خرجنا منه؟

كان الأخ الأصغر ينتظر؛ وجدناه فجأة أمامنا، عندما وصلنا إلى الطابق الأول. شكره فانيس لكنه لم يقبل عرضه بالبقاء. قال إن لدينا موعدا آخر وجذبنى إلى الأسفل.

. قال بعد قليل، كان يجب أن أتوقع أن ريجو سوف يستقبلنا بهذا الشكل. لا بد أن يحذر المرء كثيرًا. من أين يعرفني؟ هل كان ينظر للآخر، كانت بياناته فى أوراقه منذ أيام إسبانيا.

. قلت له، وأنا، ألم يعرفني؟ لم أفهم ما قالته الفتاة له؛ لكنها عرفتنى فى التو.

. لا تصر، هذه ليست كتلك.

. أى نوع من المؤامرة هذا، يجلس على عرش هذا المكان المليء بالجواسيس ثم يلعب معنا دور الرجل الصعب؟

. مانو، توقف. لم تعد تدرى ماذا تقول. هيا نرى كيف سنحضر صديقنا من فلسطين.

واحد: بإمكان الأخ الأصغر أن يجد لنا طائرة من طائرة الحلفاء ستذهب الليلة إلى اللد فى فلسطين بورقة بخط يده... طرح فانيس الفكرة ثم سحبها وحده قبل أن ينهى صياغتها. اثنان: نرسل بأحد رجالنا بسيارة ليذهب ويأتى به. فى هذا مخاطرة كبيرة. فإذا ما تأخروا قليلا على الطريق،

خسرنا ريجو. نستخدم خدمة المراسلين في وزارة الحربية. لا سمح الله قال فانيس. "الموالون لنا تم نقلهم. لقد بالغنا نحن كثيرًا في استخدامهم، ولم نكن حذرين بما يكفي". رابعًا: أضفت أنا، نرسل تلغرافًا إلى نينا.

من هي نينا؟ آه أتريد أن تقول... هي، أنها. هكذا؟ ولكن إذا نجحنا؟ ماذا سنفعل؟ عندما يأتي كيف سنشرح له. حسنًا: عفوًا. لكن ماذا سنكتب لها في التلغراف لتفهم؟

جهزنا نص التلغراف ونحن نسير سريعًا نحو مكتب التلغراف:

" طارئ. مستشفى الهندسة. مطلوب كطبيب نينا ميلي أورشليم. ردي في التو، أكرر، في التو: بانتظامكم المعهود طبيب للأعصاب. هومير كيفيسيا".

- لحسن الحظ أن غدًا ليس السبت ولا أول أبريل، قال فانيس.

- لا تقلق، سيعطونها إياه. أعرف أنها تضيق وترتبك. لكن في صدمتها أظن أنها ستفهم بسرعة ما الذي يجب أن تفعله. فقط عليها أن تفسر جيدًا "بانتظامكم المعهود" و"هومير". فالمفتاح هنا. وإذا تورطت مع الرقابة لديها الإجابة الجاهزة وأنها لا تعرف أحدا يُدعى كيفيسيا، أو أن الأمر كله محض مزاح.

(٨)

خرجنا من مكتب التلغراف. أمام محل لبيع ماكينات الخياطة سنجر كانت الساعة الكبيرة تشير إلى العاشرة.

. قلت، عند منتصف الليل سيصل إلى أيدى نينا. وإذا كان الصديق ينام الليلة فى أورشليم سيستقل القطار الذى سيتحرك فى الظهيرة، أليس غدًا الخميس؟ الجمعة سيكون فى القاهرة. عشر ساعات قبل أن تنتهى مهلة إنذار ريجو.

. قال فانيس متعجبًا، كيف تعرف مواعيد القطارات.

. كنت أسكن فى بانسيون بجوار محطة القطار لأربعة أشهر.

فجأة تذكرت ريتشاردز. جذبت الرفيق فى اتجاه ميدان الأوبرا، ورحت أحدثه وأنا مُنحنٍ، إذ كان أقصر مني، حكيت له أنه يعرف عن نقل الكتيبة. قضى صباحه اليوم كله فى التعاون مع روابط من البحيرات المرة. المحاور التى عَمِلوا عليها كانت تقريبًا معروفة: الالتزام، رفع الكفاءة

والروح المعنوية القتالية؛ اليقظة. شرط أساسي: أن يحتفظ الجيش بنزعته التحررية. ننفذ كل الأوامر طالما أنها لا تعارض المبادئ العسكرية الأساسية. لكن إذا حدث العكس أو .. إلخ، فى هذا الحالة وبلا أى استعراض نعلن عن اعتراضنا طبقًا للضوابط العسكرية. الحذر من الاستفزازات. الأشياء المعروفة على كل حال. بالطبع تدريبات القتال الجبلى كانت اختراعا شيطانيا. لكن يحدث هذا دائمًا عندما تندمج الصلابة اليونانية مع الاحتيال البريطاني... لا يمكننا أن نعارض، لأنه فى هذه الحالة ستتهمنا قيادة مجلس الحلفاء العسكرى أننا لا نريد الحرية لوطننا، "الحجة الجاهزة"، وحينها كيف ستثبت أنك على حق. بعدها حكينا فى موضوع ريتشارد الذى بدا تافهًا. طبقًا للخلل الذى به كان يمكنه أن يمثل خطورة. كان جاهزًا لكل أنواع الضغوط. فى الوقت الحالى ليس هناك داعٍ كى أبدل محل إقامتي. من أجل الصديق "ذى الروحين".

. قال فانيس، أظنه يتحدث عن رائد يُدعى بيتر، عشيق السيدة ميتراكيس. معلومات العسكرى تتطابق مع معلوماتك. من يدرِ، ربما يحتاج الأمر أن نقترب منه. انتظر. سنرى ماذا نفعل.

بدفعات صغيرة راح يلكزنى برفق نحو اليمين، فى اتجاه جنوب الأوبرا تحت ضوء الليلة الحربية الخافت، بروز النوافذ الجيرى كان يعطى انطباعًا بمشهد من مسرحية شعبية. توقفنا أمام حلوانى شامي. قال لى فانيس "تعال كى أريك كيف هى الفخفخة فى الحياة، سنطلب سحلبًا، إنهم يضعون كومة من البندق فوقه. وهكذا سنتدفأ وسأضع شيئًا فى معدتي".

كانت ساعة ميتة قبل انتهاء حفلات السينما. الزبائن فى محل الحلوانى كانوا قليلين متجمعين على الطاولات الأمامية. ذهبنا إلى عمق المحل. جاء الجرسون بفوطة ومسح الطاولة الرخامية النظيفة بشكل ميكانيكي. أخذ طلبنا.

ـ سأدفع أنا الحساب حتى أحلى فمك بعد إحباطات الليلة.

ـ قلت، وثائق تفويضكم قال الرجل! وكأنه ملكى مستبد!

ـ كم تحب المبالغة. هل تمنعه من أن يضع قليلا من الدعابة فى حديثه؟

ـ وهل كان يداعبنا عندما قال إنه لو قبض علينا فى إسبانيا سوف يطلق علينا الرصاص؟ ألا يدرى أن الحركة هنا غير قانونية، وأن من يحكمون هنا هم تشرشل، فاروق وكانيليبولوس؟ ماذا كانوا يرتدون عندما كان يرسلهم خلف فرانكو؟

أحضر الجرسون السحلب وتوقف ليسمع. كان يونانيًا.

ـ قال فانيس، اهدأ. لكنه قد اتخذ قرارًا ألا ينفتح، لذا فهو مضطر ليتصرف وكأن كل كلمة يقولها ستصل إلى الحلفاء. هل تريد مستر كيزف أن يقول فيما بعد...

غادرنا الجرسون. لم يجد على ما يبدو فيما نقوله ما يهمه.

ـ أعرف، قاطعته. لكن كان يمكن أن يطردنا بشكل أفضل. ماذا كان سيخسر إذا قام بتقييم للوضع، مثل مقابلة صحفية مثلا؟ لكن على العكس؛

عندما فهم من نحن اعتقد أن لديه الحرية أن يتصرف بخشونة. لأنه يعلم أننا سنلتمس له الأعذار، فليس هناك داعٍ أن يسيطر على سلوكه وطباعه الحادة. ماذا أقول لك؟ تأكيد آخر على ما قلته قبل ذلك. كلما يتقلد الأعضاء مراتب عليا كلما تزداد أخلاقهم سوءًا. وعندما تطلب منهم التفسير يتصرفون بمنطق: "لا تصر، هناك أشياء لا تعرفها ولا يصح أن نتكلم فيها الآن". كلهم يرددون نفسه الكلام والنغمة نفسها حتى فى المواقف البسيطة. خذ مثالا الرفيق الذى ننتظره من أورشليم. هو نفسه مثل ريجو تمامًا. كأنهم يشم بعضهم بعضا عن بعد ويتوحدون. ماسونية، لديهم ماسونيتهم الشخصية. لهذا طلبته.

ـ مانوس، توقف! كف عن كونك تقطر سمًا طبقيًا!

اصفرّ لونه وصار مثل الليمون. كانت الملعقة ترتعش فى يده.

ـ قال لى ببطء وتحفظ، يا رفيق نحن بروليتاريون. لا نقول أبدًا لماذا هو وليس أنا... لأن هو، هو نفسه أنا، كلنا روح واحدة وجسد واحد.

ـ أنت، فانيس أو غاريلاس، نعم. لكن ليس الجميع هكذا.

ـ الجميع أقول لك. من الزاوية البائسة التى تنظر منها للأمور، تجد أن هناك دائمًا اختلافات وتناقضات. ارتق قليلا يا رفيق! وَسع من حدقة عينيك قليلا. لا تضِع فى متاهة المركزية الذاتية والأنانية.

ـ من فضلك قل لى أيًا من ملاحظاتى عن ريجو تعبّر عن أنانية؟

. ولا واحدة، وكلهم فى نفس الوقت. الأنانية تكمن فى المعنى الذى تعطيه، فى الوقت الذى تضيعه. يا مانوس، لا بد أن تفهم حجم المشكلة كى تستطيع أن تساعد بشكل صحيح. إن آراء ريجو ضرورية بالنسبة لنا. جاء إلى هنا من حيث لا نحتسب. هل الخيانات فيما بيننا تأتى بوازع منهم أم أن لديهم موافقة الإنجليز؟ قبل أن نحطم الهتلرية فى أدق منحنى نمر به، يحاولون أن يضعفوا القوات المسلحة مستخدمين أتباع تسولاكوغلو. كى ينتقموا منا بعد النصر الذى حققناه أو كى يغيروا من الآن توجه الحرب، ونحن ماذا علينا أن نفعل؟ أيهما يأتى أولا؟ أن نطهر الجيش من الفاشيستيين؟ وإذا أخافَ هذا الحلفاء؟ هل سنتراجع؟ لو فتحنا الجبهة الثالثة؟ هناك أسئلة ومعضلات كثيرة... كل يوم يمر على تلال روسيا، فى إنجلترا وفى أوربا كلها وفى اليونان يا رفيق، تتهاوى آلاف الأجساد. أفضل الأرواح، لا تنس هذا أبدًا. الأفضل. ما أهمية أى شيء آخر، من سيتكلم مع ريجو، هل هو فانيس أم مريم العذراء، أم المهم فى الأمر أن يعطينا بصيصًا من الضوء؟

أمسك به السعال. كان صدره يصدر صفيرًا. كل صفير كان مثل سكين يضرب فى جوانبه. أخرج منديلا وبصق فيه. فى هذه اللحظة دخل رجل وامرأة. ستماتيس مع أليجرا. مسح ستماتيس بعينيه كل الطاولات ولم يرني. نزعت أليجرا معطفها الذى تآكلت فروته عند الياقة والأكمام وعلقته. أشاحت بشعرها ثم جلست. كانت تبدو وكأنها جاءت هرولة.

. قلت أووه، النذل أخو ميخاليس ساريذيس. إنه مع جارته اليهودية المتزوجة.

ـ لا تضِقْ. المكان مظلم هنا حيث نجلس.

نادى على الجرسون. سألاه شيئًا فأشار لهما فى الخلف ناحيتنا. قامت أليجرا وجاءت مطأطئة رأسها وتتعرقل قليلا فى كعب حذائها واتجهت نحو باب المرحاض. قبل أن تدخل نظرت إلينا. كانت عيناها الخضراوان تلمعان. تعرفت إليّ. مددت يدى وتناولت علبة السجائر من فوق رخام الطاولة.

ـ قال فانيس، إن إبعاد الكتيبة الآن سيكون له أثر آخر سيئ. سيصعب علينا أمر القيادة. بعد قليل ستتناثر الأقسام بشكل سيجعل أقرب مسافة بينهم ألفين من الكيلومترات. كيف فى هذه الحالة ستقوم بعملك مستخدمًا بريد الحذاء العسكري. لن نستطيع ولو كان لدينا أجنحة...

عادت أليجرا إلى جوار ستماتيس وقالت له شيئًا عنا. مد رقبته بدوره ومال برأسه كى يرى أفضل ثم نهض. وقف على بعد خطوات من طاولتنا.

ـ مانوس، هل تأذن لى فى لحظة أريد أن أقول لك شيئًا؟

أومأت له أن يقترب ويجلس. كان فانيس يجمع القرفة والفتات الذى بقيَ فى فنجاني.

ـ هل يمكن أن تقرضنى جنيهًا؟ سأشرح لك. زوج هذه المرأة غادر للإسكندرية فى عمل. لكن أمى انتبهت للأمر وقالت للأولاد فى الحى أن يقفوا حراسا على مدخل بيتها. وفور أن رأونى بدأوا فى التهليل وإلقاء الدعابات. قلنا نذهب إلى بنسيون، لكنهم طلبوا جنيهًا فى الليلة وهذه اليهودية البخيلة ليس لديها سوى عشرة قروش فى حقيبتها.

أخرجتُ جنيها وأعطيته إياه كى نتخلص منه.

ـ قال، حسنًا. ذكرنى أن أعيده لك، اتفقنا؟ ولا تقل شيئًا للعجوز، اتفقنا؟

أزاح فانيس الفنجان بعيدًا على الطاولة الرخامية وقال..

ـ لقد دفعت ثمنًا باهظًا من أجل السهرة يا مسكين. أخذ ستماتيس معطف أليجرا وألبسها إياه. وهى رمقتنى بنظرة خاطفة. ثم ابتسمت وهى تغادر. مستحيل؛ لا بد أنها تطلى رموشها حتى تظهر عيونها خضراء بهذا الشكل.

بعد قليل قمنا نحن أيضًا وسلكنا شارع قصر النيل بخطوات سريعة. بدأ فانيس يرتعش من البرد وأخبرنى عن الهم الذى يأكل أحشاءه: كان يخشى إحباطا من الجنود، بوادر للتمرد. الغضب يغلى الآن لشهور. بالطبع الإرشاد السياسى كان يكسب أرضًا يومًا بعد يوم بقوة الحدس العمياء. لكن الضباط الفاشيين قد بالغوا فى تصرفاتهم. كان سلوكهم مستفزًا، ويتصرفون بوحشية. خطأ صغير، رصاصة بطريق الخطأ، إذا سحب أحدهم سكينًا، وكل هذا العالم الذى يحنى رأسه وينتظر بالإناء ليأخذ طعامه، كل هذا سيولد نهرًا من الحمم سيحرق كل شيء.

فى الصباح انتظرت حتى تتوقف ضوضاء البيت: ذيونيسيس كان فى نوم عميق؛ الصغير غادر إلى المدرسة. التوأمتان إلى مكتبهما. خرجت بعدة حلاقتي، تركتها على الطاولة فى الأنتريه. وعلقت مرآتى الصغيرة على مقبض إحدى النوافذ عكس اتجاه الشرق كى ينزل ضوء أكثر على وجهي.

فى البيت المقابل ورغم برودة الجو الشديدة، كانت مصاريع شرفة أليجرا مفتوحة عن آخرها تحت المظلة النصف مسدلة، رأيتها تروح وتجيء عارية من أعلى ركبتيها، تبدو سيقانها جميلة فى الحذاء الصيفي. كانت تغنى تانجو، كنت أرقص تانجو وأنا طالب. كان صوتها دافئا مثل كونتر آلتو له نغمة مرتعشة.

أليجرا، "اسم على مسمى"، أكدت آريان وهى تحكى لى قصتها، جاءت إلى الحى هنا فتاة فى ذروة فورانها: بشرة قمحية اللون وعيون خضراء واسعة بها بقع ذهبية. زوجها، رجل متوسط الحجم موظف فى البنك الأهلي، من ويدفع مصاريف أمها أيضًا فى سالونيكا، أخرجها من الجيتو السرى فى القاهرة، حارة اليهود. تزوجها وفرش لها البيت، مرة كل أسبوع يذهب بها بالسيارة إلى الحدائق والسينما. من أول يوم وضع عينيه عليها جار إيطالي، شاب كهربائى كان يرتدى قميصا أسود. تمنعت أليجرا التى كانت هادئة ومحتشمة نحو سنة مع ذلك الوحش. لكنها خرجت فى الحى ذات يوم واعترفت أنها هُزمت. ومنذ هذه اللحظة عادت إليها بهجتها. ظنت لشهور عديدة أن هذه المرأة من سالونيكا قد عملت لها سحرًا حتى تعيدها إلى ذلك الجيتو المظلم كى تستغلها. ربات البيوت كن معجبات بمرحها، ويخفن كثيرًا من طيشها وجنونها. "لو أن زوجها ذا القرون أمسك بهما؟"، كن يسألن. كلهن تقريبًا نسين اسم المسكين. كان يخرج فى الصباح الباكر بملابسه المكوية ووزنه الزائد ومؤخرته المنخفضة يمسك فى يده قبعة من الخوص حتى يجف شعره الخفيف الذى كان يصبغه وفى اليد الأخرى يمسك بطوق رقبة وربطة عنق. يسير فى شارع البستانى

وبين الحين والآخر يقف لينظر خلفه وهو يحرك يده بالقبعة. الجارات فيما بينهن كن يقلن " لقد غادر ذو القرون". كن يراقبن نوافذ وأبواب شرفة أليجرا التى كانت تبقى مغلقة. وعندما يغادر الزوج الشارع كن يضعن اليشمك على وجوههن ويتضاحكن بمكر. بعدها يصل العشيق. عندها كانت تفتح النوافذ وأبواب الشرفة كى تتهوى الشقة. "ماذا أفعل يا سيدة آريان، إن معدة برونو تنقلب من رائحة الآخر ويتعكر مزاجه"، دفع ذو القرون ثمنًا باهظًا من أجل نزوة السيد برونو. حتى إنه ضغط على بخله واشترى لأليجرا مظلة من أجل الشرفة. معجزة. كانت المظلة من قماش أشرعة المراكب لها لون برتقالى زاهٍ وشرائط خضراء وخصلات ذهبية: لها يد معدنية وبكرات فضية. كى يحميها، كما كان يظن من شمس الظهيرة فى الصيف. كى تستطيع الخروج من قيظ الشقة إلى الشرفة إذا أرادت. فى الحقيقة أن المظلة كانت مفيدة لها فى الصباح حيث كانت تنزلها إلى أسفل حتى تلمس الخصلات جدار الشرفة. "هكذا سيدة آريان لن أنكشف على رجال بيتك"، فى الحقيقة أن ذيونيسيس وميخاليس وستماتيس كان أمر الشرفة المقابلة شيقًا بالنسبة لهم. فى النهاية عندما أخذ الفاشيستيون برونو ووضعوه فى معسكرات الجيش، توحشت أليجرا وراحت ترمى بحبالها على شباب الحي. دار ذو القرون على نساء الحى وراح يشتكى لهن وجيعته "أنا موظف محترم فى البنك الأهلي، تحدث لى مصيبة كهذه". كان حقًا يؤسف عليه، وضع القبعة على ركبته ومد إصبعه الذى يرتدى فيه الخاتم وهو يرفع يده لأعلى كى يشرب من الكوب، وراحوا يقولون له من كان لديهم قدر من الإحساس والشهامة "نحن سوف نلملم ولدنا ونقوِّمه.

انظر أنت ماذا ستفعل معها. يقول المثل إن الضرب خرج من الجنة"، لكن لم يُسمع قط أنه قد رفع يده عليها. لقد دفع كثيرًا من أجل هذه الزيجة وكان يخاف المسكين أن تتركه. نفس الشيء الذى فعله مع المظلة. كان يُزيِّت بكراتها، ويعيد حياكة الخصلات الجديدة عندما تتنسل خيوطها الذهبية... الجارات كن يخرجن ويقلن: "تعالين لترين ذا القرون يصلح مظلة أليجرا"، أعطت المظلة بشكل ما رونقا حيويا للمنزل فى الشارع. كان يشبه أوربا قليلا، كانت قريبة من زجاج النوافذ وتشبه مظلة الشاطئ فى فاليروا فى أيام مجده على الرمال حيث النسيم العليل.

وضعت آريان صينية القهوة بجوار عدة الحلاقة وجلست.

. قالت، خنزيرة. تغردين مثل طائر الخربش. أطعمك بالأمس ابننا المكنون ستماتيس واليوم كل شيء يبدو لك ورديًا.

قالت ذلك بلا شماتة. كما لو كانت تتحدث مع حيوان أليف بالمنزل، كقطتها التى فتحت لها الباب متأخرًا وأرسلتها لتتضاجع فى أزقة المتاهة الضيقة وتستقبلها الآن بمداعبات دافئة. لم أقل شيئًا.

.لو أننى أعرف أين ذهب بها؟ فى الصيف كان يأخذها عند طرف النهر بجوار مبنى الشرطة والقضاء فقد مهدوا الضفة كلها بالنجيل. كيف لم يقبضوا عليهما متلبسين أو يطلقوا عليهما رصاصة فى الظلام؟

ضحكت: هل قال لك ستماتيس هذا الشيء؟

. وهل أتركه يحدثنى عن أمور كهذه؟ أعرف كل شيء من نابليون.

وقفت اليهودية خلف المظلة، خلعت حذاءها وراحت تلعب بأصابع قدميها، كما لو كانت تتأمل بإعجاب أظفارها المطلية باللون الأحمر.

تعجلت أمسح الصابون من على وجهي. رشفت القهوة دفعة واحدة، جمعت عدة الحلاقة وذهبت للداخل. جاءت خلفي.

. هل تريد أن أدعوها ذات مساء لتأتى لتحتسى معنا القهوة؟

كان أمرًا غير متوقع حتى إن كل الكلام توقف فى حلقي.

. هل حقًا ستفعلين هذا؟

. ولمَ لا؟ أنت عسكرى وخرجت لتوك من المشفى، تبدو خجولا كى ترتب أمورك من تلقاء نفسك. مجرد دفعة نفسية سأفعل لا أكثر. أنا أعد الأظرف الصغيرة التى نسيتها فى الكومودينو وكلما أراها لا تنقص ينتابنى القلق.

. يا للخجل، كم أنا غير حذر ! لكن معذرة سيدة ساريذيس. هل أنت حقًا قلقة مني؟

. لا تعطِ أهمية، هكذا قلت، انفلت منى الكلام.

. هل قال لك ميخاليس شيئًا؟ قال الأطباء إننى سأصبح على ما يرام.

. لا يا بني، أين ذهب عقلك؟ أخ، الذنب ذنبى أنا، دعنى أعترف لك وأشرح لك ما يؤرقني. أريد أن أقول... تفهم. لدى بنات عزبات فى البيت وأحرص على ألا يصير لهن أى مكروه. أنت رجل، من سيلقى عليك اللوم؟ لا تنزعج من كلامي. أعلم أنك ولد من بيت محترم، تربيتك عالية، هذا يبدو عليك من

الوهلة الأولى. لكن عندما أعلم أن لك علاقة ما سأنام وأنا مرتاحة البال.

كانت تتحدث عن مشكلة كهذه بنبرة صوت وأسلوب لم يكن فيه أى أثر احتشام متكلف أو سفالة.

. سيدة ساريذي، أنتِ مثل أمي. قولى لى صراحة. هل ترغبين أن أترك البيت؟

. إياك أن تقول هذا ثانية! أريدك هنا من كل قلبي. خصوصًا الآن حيث يغيب ميخاليس الذى كم أريد أن يكون بجوارى الآن، أن أسمع صوته يتحدث، يؤيدنى فيما أفكر أو أقول، لأننى كالمسكينة لو فتحت فمى سيأكلنى ذيونيسيس وحزبه.

هنا دق الباب. تعجبت وسكتت متسائلة من يكون الآن. ربما الأعمى. سأذهب لأرده.

سمعتها تفتح الباب. ثم حوار. بعدها عادت وأغلقت الباب. ثم فتحته ثانية وأدخلت فانيس. كان لايزال يرتدى الملابس المدنية. أغلقت آريان الباب علينا وتركتنا وحدنا. جلس فانيس على فراش ستماتيس كى يلتقط أنفاسه. كان الدرج يتعبه كثيرًا.

. سألنى بعد قليل، هل تعرف شخصًا يُدعى يورغي، بقال فى السوق القديم فى أورشليم؟

. قلت، نعم أعرفه، لماذا؟

أخرج تليغرافا وألقاه على الفراش. الرجل الضئيل ، بالإشارات طلب من فانيس أن يؤكد الطلب. نظر إلى ساعتي: الساعة الآن العاشرة. أسقط فانيس يديه بين ركبتيه المفتوحتين وراح يضربهما بإيقاع منتظم.

. قلت له، لا تضايق حالك من الآن. هناك سيارات، هناك طائرات. هل أرسلتم تليغراف إلى يورغي؟

. من الصباح. وكأني كنت أنتظر هذا التليغراف الملعون. ذهبت ونمت فى المخبأ. فى السابعة صباحًا دق الجرس. ارتعبت سيدة المنزل فلديها ابن فى الغواصات. لقد خسرنا ريجو. كان خطئى أنا. كان يجب أن أضع شيئًا فى التليغراف منى أيضًا.

. ويحك يا فانيس ماذا تقول. إنك تلتمس لهم الأعذار دائمًا. تذمر ولا شيء آخر غير التذمر.

. دعنا لا نضيِّع الوقت، قال وهو ينهض. لا بد أن نحاول مرة أخرى مع ريجو. فى طريقى إلى هنا مررت على المعهد. ذهبوا فى رحلة داخلية وسيعودون فى المساء. لكن السكرتيرة بقيت فى الشقة. انطلق كى تراها. حدثها بوضوح، لا بد أن تريها التليغراف، أرجوها وقل لها ما الذى نريده من ريجو، ولتكن مسئوليتها هى أن تنقلها له. هيا لا تضيِّع الوقت. سوف أنتظرك هنا.

وضعت ربطة العنق ثم طلبت من السيدة آريان أن تصنع له القهوة.

تركتنى زنينت أدق الجرس لبعض من الوقت. فتحت لي، خطت

بعض الخطوات للخلف وهى تضحك وأخذتنى فى حضنها. ضغطتنى فى أحضانها وقبَلتنى على وجنتيَ ثلاث مرات على الطريقة الباريسية.

- آه يا رفيق مانويل. قل لى يا رفيق هل خاطرت كثيرًا؟

كانت يدها وأصابعها تروح وتجيء على وجهي.

- أبناؤنا. أبناؤنا الكبار الذين لا يدخرون جهدًا ويعطون كل شيء.

أجلستنى فى الصالة. ثم غيَرت رأيها. أخذتنى إلى غرفة المكتب كى أصاحبها بينما كانت تعمل. كان عليها أن تضع فى الدفتر الجديد بعض التدوينات ثم تكتب مقالا على الآلة الكاتبة وتكتب التقرير، كان عليها أن تعد كل هذا حتى هذا المساء. لا يجب أن أضيع وقتًا. دخلت فى الموضوع مباشرة. تجمد وجهها فور أن نطقت بالكلمات الأولى. تركتنى أنهى كلامي. لكن كلامى كان ينزلق مثل الطحالب البشرية على عمود مغمور.

- لا يمكن أن يتغير شيء يا إيمانويل. لنغير الموضوع.

رأيت أنه من الأفضل ألاَ أصر على الأمر وتراجعت. كنت أترقب صدعا ما يبدو من خلاله أى تأثر عاطفى من ناحيتها حتى أدخل إليها منه. بدأنا فى الكلام عن الرفقاء فى باريس، عن كل من ذكرت أسماءهم بالأمس مع ريجو وامتلأت عيناها بشبورة من الحنين... كنت أعرف مصير أغلبهم. إعدام، تمرد، معسكر تعذيب، أسر، تجارة ممنوعة، تمرد، إعدام، خيانة، قتل، خيانة، مصير مجهول، تمرد، اغتيال، مذبحة نورماندي، مقاومة، مثقفون، شاتوبريان، خروج عن القانون. دموية ووحشية فى كل أرجاء

فرنسا، الشيوعية وحرب فالميي. انزلقت مرة أخرى نحو الموضوع الذى أردت أن أتحدث فيه.

- مانويل، أعتذر منك. سوف أضطر أن أطلب منك أن تغادر. حتى إننى بمجرد أن تركتك تتحدث فى هذا الأمر دون أن أقاطعك من الممكن أن تكون لذلك تبعات خطيرة.

- خطيرة؟

- ما علينا، فى سياق الكلام قلته. قل لي، هل كتبوا هنا إن جابريل برى قد مات؟

لقد علمت بالأمر فى شوارع موسكو. كان مسئولا عن جريدة البرافدا، فتحت الجريدة... تحملت حتى قاعة الفندق. بعد أن دخلت إلى الأسانسير لم تحتمل وسقطت وراحت تزوم وتزوم مثل عجل صغير يصارع الموت. المصعد يصعد الطابق تلو الآخر، ساد الهرج فى الطوابق. بعد موناكو أرسلوها إلى الـ "أومانيته". بعد عشرة شهور صارت تعمل مع بري. ذات ليلة، لا تدرى كيف، لا تذكر بالتحديد قالت له "يا رفيق، أنت رائع! إنك الأفضل والأصلح من أجل العلاقات الخارجية". ابتسم هو وطأطأ جبهته وصمت كما لو كان قد سمع سبابًا يتوجه إليه. نظر إليها بعينيه اللامعتين الوديعتين اللتين تقولان لك دائمًا ما تحب أن تسمعه من كلام ودود: "أيتها الرفيق، قال لها، يبدو لى أنه لا بد أن يوكلوا إليك باب المراسلات الغرامية فى مجلة الشباب" فى اليوم التالى أمسكوا به.

ـ قلت لها، زينيت، لما لا تدعينني أجرب هذا المساء وحدى مع ريجو؟

ـ قالت لي: يا مسكين. هل تريد أن تضيع الآمال الأخيرة التى لديكم من أجل الآخر؟

لم يكن مجديًا أن أصر. نهضت حتى لا أعطلها عن عملها. احتضنتنى بقوة لتعطينى كل دفء صدرها الثري.

ـ مانويل، ربما يبدو مضحكًا ما سوف أقوله لك. هل شعرت أبدًا بالرغبة فى الصلاة؟ أنا أصلى وأدعو فى هذه اللحظة. أن يصل رجلنا من فلسطين فى أسرع وقت.

كان هذا يفسر كل شيء.

طبقًا لما قاله ريجو كان يجب عليه أن يغادر مساء يوم الجمعة. صباح الأحد كان لا يزال فى القاهرة. لكن ضئيل الحجم لم يظهر بعد. حاول فانيس دون أن يقول لى محاولة ثالثة وحده. قال لى بعدها إنها باءت بالفشل: "فشل". ولم يشأ أبدًا أن يعطينى تفاصيل. كان يفرغ عصبيته على ضئيل الحجم: "ما الذى جرى له؟ لماذا لا يتصل، لم يقل أى كلمة... هل انشقت الأرض وابتلعته!".

ظهيرة يوم الثلاثاء ـ أقلعت طائرة ريجو ـ ظهر ميخاليس بالبيت. كان مغطى بالتراب فصعب التعرف إليه، كان مثل الغُرَيْبة المغطاة بالسكر الأصفر المطحون. لم تكن جبهته ولا حاجباه ولا رموشه ظاهرة. لم يبدُ منه سوى لسان أحمر وأسنان كبيرة.

- مرحبًا أيها الجنرال. كيف حال إجازة نقاهتك؟

لم تهدأ آريان. نزعت الحوض من المسمار المعلق عليه، قلبت صفيحة الكيروسين، ملأته بالماء حتى آخره؛ خرجت من النافذة ونادت على نابليون ليحضر لها الصابون من عند البقال... لم يهمها أن توقظ ذيونيسيس. أمسكها ميخاليس من كتفيها وراح يهزها.

- أهلا يا أمي، يا أم الرجولة. ألم أقل لك يا سيميونيذيس؟

مسحت بكم ثوبها طرف عينيها وراحت تضربه برفق على يديه.

- أنزل عني يديك ودعني أرى مشاغلي.

- قلت له، أنت هنا.

توقف قليلا وكأنه لم يفهم ما أريد أن أسال عنه، أو أنه نسى لماذا أتى إلى القاهرة. وراح يحك خلف رأسه بأصابعه المسودة.

- قال لي، أنا هنا فى مهمة. آه، قبل أن أنسى. فانيس يقول إنه ينتظرك فى مقهى بالميرا فى عين شمس. لا تذهب قبل أن تتناول غداءك.

- لم يقل لك إذا ما كان يريدنى بالزى العسكري؟

- قال بملابس مدنية. أتمنى ألا ينقل لك السرطان هذا الذى أحضرته لك من ناثان.

- هل قلت سرطان؟

- سرطان أو قمل الفرج هو شخص متعب كى أوضح لك. ستفقد أى فكرة سامية عن التوجيه.

- هل تتحدث عن شخص رائحة جسده مثل الـ... مستنقع؟

- قال ميخاليس وهو يُصرُ أنفه كما لو كانت رائحة الضئيل ما زالت تعبئها.. نعم، نعم، هل تعرفه؟

- لماذا تأخرتم؟

- كيف تأخرنا! من رفح لم نتوقف سوى فى القنطرة. ومن هناك جئنا دفعة واحدة إلى القاهرة. هل تظن أننى كنت أقود طائرة؟ أنا ذهبت إلى الكتيبة فى لبنان. فى ناثان استوقفونا. لديك حمولة تعود بها، قالوا لي. أتذهب إلى القاهرة؟ سألونى لو كنت أريد أن أذهب للقاهرة، وهل يحتاج الأمر لسؤال؟ أرسلوا يبحثون عنه فى بيت ليد وطولكرم وحيدر، ولا أدرى أين؟ فور أن وجدوه غادرنا.

- ألا تتركون شئونكم العظيمة إلى ما بعد... قاطعتنا آريان. هيا ادخل إلى الماء الساخن.

قبل الساعة الثانية بخمس دقائق كنت أصعد درج "بالميرا" الذى كان يقع فى شارع أرستقراطى واسع به كثير من الفلل والبنايات. فى منتصفه

كانت هناك حديقة صغيرة للأطفال ومربياتهم وبه أشجار الأوكاليبتوس الظليلة. على ضفتى الأرصفة نبتت شجيرات الفلفل الأخضر. فى تلك الساعة لم تكن ترى سوى سيارات الليموزين والحراس هنا وهناك يحملون مسابحهم وغلايينهم.

الطقس الشتوى الدافئ غطى سطح "بالميرا" حتى إن رخام الطاولات صار يلمع وكأن الثلوج سقطت عليه. على إحدى تلك الطاولات كان هناك اثنان ممتلئان من أبناء البلد يرتديان ملابس فاخرة يلعبان النرد والطاولة وبجوارهم النرجيلة. على مبعدة منهما جلس مُوليًا ظهره للدرج أحد الأوربيين يرتدى معطفًا بيج اللون من جلد الجمل وقبعة مخبرين يحتسى قهوته. اخترت منضدة بجوار السياج الحديدى كى أرى الحركة فى الشارع.

بعد قليل سمعت صوت الضئيل ينادى على الجرسون. التفت ونظرت إليه. كان هو ذاك الأوروبى فى ذاك المعطف. نهضت واقتربت منه. توقفت. "إنه هو"، تساءلت. كان يرتدى نظارات بإطار ذهبي.

- قلت له مرحبًا. كدت ألا أتعرف إليك.

- لماذا؟ وماذا كنت ترتدى عندما كنت فى باريس؟

جلست وطلبت القهوة من الجرسون.

- سألته لو كان قد رأى فانيس.

- رأيته وتحدثنا. إننا فى انتظاره.

- لماذا تأخرت فى الحضور؟

جئت فور أن وجدت وسيلة مواصلات.

- ألم يعد هناك فى أورشليم صديقنا الأسكتلندى الذى يعمل فى السكك الحديدية؟

- لم أسأل. وهل أقرأ الغيب كى أعرف أن ريجو طلبنى كى أستخدم الوسائل الاحتياطية؟

- لكن فى التليغراف الأول كتبنا لك مرتين "فى الحال".

- الأول لم يسترع انتباهي، ولم أتعامل معه بشكل جدي. فقط الأمخاخ المثقفة فقط هى التى تستطيع أن تنبش فى شفرات كتلك.

- هل تضايقت الطبيبة؟

- ولِمَ تتضايق؟ لقد ضحكت كثيرًا إذا كنت تريد أن تعرف. قرأه لها البواب على الهاتف فإذا بها تغرق فى الضحك. "إنهم يطلبونك أنت فى القاهرة، نعم أنت وتضحك". هكذا أصبحنا مادة للضحك.

- هل فهمتم أننى من أرسل التليغراف؟

- هل تظن أننا أغبياء لتسأل؟

- لكن يا أخي، كان يجب أن تحضر أولا ثم تطلب التفسير.

ـ تلك الكلمات من هاتيك العقول. هل يعقل أن أترك موقعى وآتِيَ إلى القاهرة كى ألبى دعوة واحد.

ـ واحد؟

ـ لا شيء.

ـ حسنًا، ماذا عن تليغراف فانيس؟

ـ أعطِ التفسير كما ينبغي.

ـ قررت ألا أفتح فمى مرة أخرى. أخرجت علبة السجائر وقدمت له سيجارة؟

ـ ها ها، أتدخن من سجائرك الآن؟

لم أعلق. ذات مرة قبل شهرين دخنت منه سجائره الألمانية فى دير القديس سافا، فكان يذكرنى بذلك دومًا، ويذكر الأمر مداعبًا باستمرار كى تكون له السيطرة.

وصل فانيس.

ـ قبل أن يطلب قهوته قلت له، قبل قليل قال الرفيق بأننى واحد، ولم يكمل. وأنا أطلب منه الآن أن يكمل جملته.

ـ قال فانيس ضاحكًا، لم تتقابلا بعد واشتبكتما؟

ـ ألم تكن مثل مؤخرة وسروال مع واحد من خدمة الاستخبارات فى

بنسيون اليهودية الذى كنت تسكن فيه؟

رحت أدور بعينى بين الغرف من أعلى لأسفل فى بنسيون السيدة كولير فى الحى الألماني.

ـ عمَّ تبحث، قال لي. أعنى ريتشاردز، ذلك المنحرف. بعد أن غادرت انكشفت علاقتكما.

التفتُ ونظرتُ إلى فانيس.

ـ علاقة الرفيق مع ريتشاردز كانت معروفة قال. ليس هناك شيء بغيض فى هذا. لكن بينكما أنتما الاثنين أشياء كثيرة لابد أن تنتهى الآن. نحن نجهز لأحداث مهمة. ونحتاج إلى وحدة الصف. سيكون جرمًا إذا رآنا الناس نختلف من أجل مسائل شخصية.

ـ قال الضئيل التافه: ليست لدى خلافات شخصية مع الرفيق. بيننا خلافات حزبية وطبقية وأخلاقية. أنا على أتم استعداد أن أقوم بنقد ذاتى أمام الجهاز المختص.

ـ سألت: المختص؟

ـ نعم المختص. فى اجتماع المسئولين عن القسم. أنت ما موقعك؟

نظرت إلى فانيس مرة أخرى.

ـ قال: الرفيق منهمك بأعمال أخرى. قسم الضباط يوجهه شخص آخر.

انتظرت كى يكمل. نظرت إليه ثانيةً. صمت، وراح يضغط على أصابعه واحدًا تلو الآخر على المنضدة الرخامية ويبدو اللون الوردى لأظافره يظهر ويختفي. بمعنى أنه تراجع وتركنى وشأني. ربما فعل الشيء الصحيح. اجتماع طارئ للأعضاء كان شبه مستحيل، وسينتهى الأمر بأزمة إذا ما أصررنا عليه.

. الأمر لا يحتاج لكل هذا الضجيج، قلت: خلافاتى القديمة مع الرفيق أنهيتها وحدي. بمعنى أن نضال وجدية عمل الرفيق والنتائج التى أتى بها الرفيق نفسه ساعدتنى أن أرى الأمور بموضوعية. أما عن تحفظاتى فهى كلها أمور خاصة بالآداب والسلوك. لا يحتاج الأمر أن يطلب اجتماع الأعضاء. الرفيق وسكرتير المنظمة يكفيان. يمكننا أن نقوم بهذا خلال ساعة أو ساعتين على أكثر تقدير كى يتضح كل شيء.

. ليس لدى وقت، قال التافه الذى كان يحرك قدمه بعصبية.

امتلأت جبهة فانيس ببقع حمراء.

. الرفيق لديه الحق أن يعترض، قال لي.

كل القلق والوحدة والخَدَر الذى كان ينتابنى فى تلك الصندرة فى أورشليم كأنها هبطت على وغطتنى مرة أخرى. كان للقهوة طعم لاذع كالصدأ. أخرجت شلن ووضعته على الصينية.

. هل يمكن أن أغادر، سألت فانيس.

- تمشى قليلا كى تهدأ، قال لي. إذا لم تجدنا هنا سأنتظرك فى السابعة فى المكان المعتاد.

أخرج التافه قلمًا من ماركة باركر بغطاء ذهبى ودوّن شيئًا على علبة السجائر.

- مع السلامة قلت.

- ردوا التحية.

ذهبت مباشرة نحو الترام الكهربائي. طوال الطريق لم أنتبه إلى شيء. متى وصلنا، متى صعدت شارع عماد الدين والبستاني؟ لا أذكر شيئا. أفقت عندما وصلت إلى شارعنا. فجأة رأيت أليجرا فى نافذتها الشمالية تلوح لى بمنديل. حدقت النظر. كانت تمسك بخرقة فى يدها وتتصنع أنها تنظف أبواب النافذة المفتوحة. المظلة البرتقالية كانت مسدلة. نظرت إلى ساعتى كانت الرابعة. ذهبت مسرعًا نحو البيت. كان ميخاليس نائمًا على فراشي، أى فراشه بالأساس فاتحًا ساقيه ويشخر بقوة. سقطت على فراش كوستيس وأشعلت سيجارة. كنت أطفئ السيجارة وأشعل غيرها. امتلأت الغرفة بالدخان. ذهبت وفتحت النافذة قليلا فأصدرت صريرًا فاستيقظ ميخاليس.

- مرحبًا بالجنرال. كيف كانت نزهتك؟

لم أجبه. أردت أن أساله عن شيء لكن لسانى لم يطاوعني.

ـ لماذا قلت لى ستفقد أى فكرة سامية عن قيادة التوجيه إذا ما قابلت الرفيق الذى أحضرته؟

ـ لأنه ببساطة يُعرف الشخص فى المخاطر. حسنًا، أنا أقول إن هذا الشخص يملأ الدنيا هراء ليغطى على جبنه.

ـ هل صادفكم شيء فى الطريق؟

ـ لا شيء غير الفحص المعتاد: ستوب ـ يور باس ـ أل رايت ـ جو!

لكنه كان يرتعد. وكأنه هو المخلص وسينتهى العالم إذا فقده من ينتظرونه. فلق رأسى بكثرة كلامه. قال إنه من واجبنا أن نحمى الأعضاء. وقال إنه ليس من الصحيح أن يلجأ العضو إلى تذكيرنا بهذا الشيء. وكلما رأى شخصا، شجرة أو جملا على الطريق كان يقفز مرتعدًا. ناهيك عن الملاحظات والنقد، هنا كان يجب أن تهدِّئ السرعة، هناك لم تر الصخرة. فى النهاية عندما وصلنا إلى إحدى كبائن الحراسة، طلب منى أن أغلق عليه فى الخلف فى صندوق السيارة مع عدة التصليح. غباء. لأنه كان من الممكن أن يشعر به أحد الأجانب، وكان الأمر سينتهى بنا فى المحكمة العسكرية.

ـ من يدري، قلت له. أحيانًا الإرهاق يسبب ذلك... وأنا ذات مرة حلمت أننى أموت. مَلك الموت كان يقود الحافلة.

ـ هناك فرق بين أن تخاف على حياتك وأن ترتعد هكذا. ما تقوله عشته أنا أيضا. إنه مرعب كما تعرف. كنت أصعد الترام فى شارع محمد علي، تعرفه، على اليمين واليسار تظهر البيوت وغرفها، ذهبت إلى أحد البقالين

الذين لهم سطوة فى المكان. كنت حينها أعمل متدربا فى إحدى الورش، وإذا بالمعلمين هناك وجدوا عاهرة رخيصة وقرروا أن يخرجوا فى رحلة نيلية ويأخذونى معهم كى يفقدونى عذريتى على يد العاهرة. اتفقنا. قلت لهم، ستتكلفون أنتم كل شيء وأنا سأحضر النبيذ. وفجأة داخل الترام تملكنى الخوف. وكأن ستارة سوداء قد أسدلت. كل شيء سينتهى ذات يوم. المرأة، النبيذ، السجائر، الفلوكة، المعلمون، كل هذا سيكون كما لو لم أعشه قط. بجوار الترام كانت هناك عربة تجري. حصانها كان أبيض ببقع بنية. وهذا أيضًا سيموت. وسائق العربة. والبك الذى يجلس فى الخلف يفرك فخذيه فى سعادة. كلنا سنموت. كيف لا يشعرون بالموت؟ كيف يسيرون، كيف يتكلمون ويضحكون؟ لو أنهم يعلمون أن أحدا يقول هذا لهم؟ قفزت من الترام وهرولت، هرولت تحت الغرف ورحت أصيح "سنموت. افعلوا شيئًا". كان أصحاب المحلات فى الخارج يضيئون المصابيح. تعرقلت قدماى بشكل ما ووقعت. أحد الحلاقين سكب عليَّ ماء فأفقت.

أردت أن أقول لك إن خبراتنا لا تتشابه أبدًا. أنا حلمت بالموت وكأنه شيء بسيط، مثل تعثر قدمك على سلم الأتوبيس، وهذا هو. لكن دوخة أغلقت عينَىَ وأحبطتني. «وما الفائدة»، قلت فى نفسي، «إن الناس أبدًا لا يفهمون، أبدًا ».

(٩)

لم يتم إخراج المقابلة بحذر. داخل المستودع المظلم المليء بالأدراج والممرات والمخازن العلوية والسفلية، المطاردة كانت تشبه معركة بحرية. التاجر ومساعدوه كانوا يجذبون جوين تارة وتارة أخرى دورا فى أغرب أركان المكان. صادف أن تتقابل المرأتان بعيدًا عن مرافقيهما وجهًا لوجه. كانت كل منهما تنتظر من الأخرى أن تنحرف. روبى والجنرال ينظر كل منهما للآخر بحرج. أعطاهما منضدة مزينة بقلادات وسطح مصقول. أمسكا معًا حزاما فضيا مشغولا بورود منمنمة. جرى روبى ليقوم بالتعارف. ابتسامة شيطانية من دورا، جوين ردت بابتسامة دبلوماسية معروفة. "إن رائحة الجلود هنا لا تطاق" التفتت وقالت لروبي. "لكن عندما سمع أن السيد هو الجنرال اهتم فورا من أجل المساكين اليونانيين الذين حاربوا ببسالة. قال الجنرال شيئًا عن "حلفائهم الأعزاء"، لكن بالفرنسية. إلا أن جوين جزت على أسنانها برفق بسعادة ذكية وقفزت من على حاجز الطريق دون أن تفقد توازنها. بالتأكيد كانت تعجب الجنرال. بدأوا فى التو الحديث مع التاجر حول ثمن الحزام. لكنه أهداه إلى جوين، الآن سمع لقبها. بعد إلحاح شديد

قبل أن يقول الثمن. سعر باهظ بشكل مبالغ. سألت دورا عن طريق الخروج. جرَّت معها روبى الذى كان يريد أن يبقى فى جوار الجنرال. فى الخارج خلف زجاج الفترينة المتسخ بالغبار رأوه يُخرج حافظة نقوده. كانت جوين تعترض بقوة. لكن دورا ذهبت إلى الدكان المجاور. عندما رأتهم مرة أخرى كانت جوين تستند على ذراع الجنرال.

- من أين اشترى اللورد طومسون هذه الجارية؟ سألت دورا؟.

- أظن أنها تنتمى إلى البلاط.

- إن ذوقه شيء يؤسف له.

- إنه يفعل مثلما أردت.

- من أجل صالحه.

- الليلة عندما ستعرض جوين الحزام على اللورد. سيسافر الجنرال بالطائرة إلى موسكو.

- هذا جيد بالنسبة له.

- هل تنتظرون أحداثًا؟

- لا أعرف ماذا تعني. لكن أشعر بشيء ثقيل فى الأجواء. تصريح وزير التضامن بأنهم سيقطعون معاشات ضحايا المقاومة كانت مثيرة للغضب. إنهم يجندون مؤيديهم هناك بالأموال العامة. لا أعرف ماذا تقصد. لكن من الأفضل أن يوجد بعيدًا.

- خطأ.

كانا يتحدثان داخل أحد محلات العطور. المكان كان صغيرًا للغاية وبالكاد يتسع لهما. بسرعة عجيبة نبَّشت دورا وأخرجت زجاجة من الكهرمان كانت لها رائحة عاطفية ماجنة للغاية.

- قالت بدلال، أتمنى ألا تخبره عن هذا. إن ديديس، تعرف هو شهوانى بشكل مخيف. لكن لن تستفيد شيئًا إذا ظل فى القاهرة.

- لكن ماذا عنه هو؟

كانا يعبران الشارع. سارت دورا فى الأمام. توقفت وجحظت عيناها. كان شخص مهيب بلحية بيضاء يرتدى الملابس الحريرية يهبط الشارع. هو يحاول تجنبها فى الطريق، داعب ظهرها براحة يده من عمودها الفقرى وحتى نتوء الحرقفة.

- قالت وهى تحت تأثير الترويع، يا للداعر السافل. لم يكن هناك أحد... لكنه فهم أنه ليس يرفقتى رجل.

- لا يجب أن يغادر الجنرال، قال روبي.

- إذن تكلم أنت وبيتر، هذا كما تعلم يعنى الحرب.

- C'est magnifique, mais ce n'est pas la guerre.

- أين هم؟ لماذا هم ليسوا هنا؟

عادا أدراجهما حتى يجداهم. كانت دورا تجذب روبى من زقاق إلى آخر، كلها على عكس الاتجاه الذى سار منه الآخرون. وصلا إلى الورشة التى يشتغلون فيها على النحاس. العمال جالسون عاقدين أرجلهم ينحتون تصاميم فوق تصاميم بدقات صغيرة وسريعة بالجاكوش. كلما تأخر ظهور الآخرين كانت وجنات دورا تزداد احمرارًا. كانت تحارب الغيرة بطموح شديد. الحرب.

. هل يمكن أن تحلى لى هذا اللغز؟ هل الجنرال يحبك؟

. أشك. بالإضافة إلى أننى لا أستهلك طعامًا يُعاد تسخينه. سأستغل غياب بيتر بشكل أفضل.

. فى أى دائرة؟

. اصمت يا سيد.

. " فى محيط الحرب، أم مدينة أثينا.سيحارب وحيدًا أمام الكثيرين " .

. متى لحقت أن تقرأه؟ هذا هو الكلام الانفعالى الطنان المعتاد فى خطابات كانيلوبولوس.

. نعم ولكن ما لم تم إعلانه بخصوص الضابط الذى قتل مثلما قتل غيره فى نفس المدينة قبل عشرة شهور. دون أن يتحرك أحد فى أورشليم.

توقف ثانية ونظرت إليه. كانت عيناها تطلقان شررًا.

. يا عديم الشرف. تلميحاتك القذرة لا تعنى لى شيئًا. افتح عينيك لترَى مرة أخرى ماذا يقول الإعلان: "لقد سقط فى ميدان الحرب فى ١٤ من يناير ١٩٤٣". أربعة أيام قبل أن تأكل الإسباجيتى فى شقتي.

. تفاصيل.

. إنك ... أنت شيطان. ماذا تريد من هذا؟ النساء يصبنك بالاشمئزاز، تكره السياسة. ماذا تنتظر؟ ما الذى يثيرك؟

. الأكثر أفلاطونية من النسور. الجنرال يعجبنى كثيرًا. أريده أن يبقى فى القاهرة.

. وقعت دورا فى ضحك هيستيري.

. قالت: لديك كاريزماتك الخاصة. لكن عندى مميزات أخرى. سأسوى أموري.

. فى أى دائرة؟

. يا شقي!

.game a s‹war But -

. بالتأكيد.

تقرير روبرت ريتشاردز. رقم ٤٢: شوارع علاء الدين (لحن رباعى).

مقدمة: لأنه قد تم ملاحظة أن المشروح أدناه تم فى نفس الحي، فهنا نقدم مخرجا سياحيا لـ "الشرق الكسول". أما عن الزمان، القراء المتابعون

عليهم أن يتخيلوه. أتمنى أن يستطيعوا. قفزة حتى يأتوا للبارحة، الأربعاء ٢٤ من فبراير ١٩٤٣، الشروق فى الساعة ٦:٣٢. الغروب ٥:٥٧، القمر ١٩ يومًا. لكن لنذهب الآن إلى الواقع، كما قال أحدهم، كان يتشوق للحديث عن شخوص مسرحيته الهزلية.

عادة الليدى جوديفا كانت تذكر رولاندو بوعده أن يذهب بها ذات مساء إلى أسواق خان الخليلي. لكن "ر" كان يتصنع الصمم، وراحت تُذكره السيدة بحدسها، أضاف "فى الخفاء بالطبع". وكان رونالدو يود أولا أن يتأكد ما الذى تجده معاليها طبيعيًا: الخوف من أن يظهر معها فى السوق المجاور لهم منذ عصر تيمور لنك لخمس خانات مهدمة لإسطبل السلطان برقوق أم شوقها العميق فى أن يصادفها استقبال رسمى من رابطة التجار؟ لكن الشوام المكارين والمصريين والتونسيين والفرس واليهود حتى لو حدثت أى إشارة فى الخفاء لن يفرشوا سجاد تبريز وخراسان الملكى من أجل كعبى حذاء سيدة اجنبية. فقد اعتادو على لمسات كعوبهم الحساسة. وبالطبع كانت السيدة تنخدع عندما ترى الأثواب القطنية المرصعة، أثواب جنوة المخملية، أثواب المدينة، تطريزات رودس ترفرف على شرفها، كل العطور العربية والياقوت السيلانى يرش ويقذف عليها. إن "ر" يعرف التجار جيدًا. عيونهم الناعسة وتقريبًا غير المبالية ترصد وتراقب بدأب محفظتك. وفى هذه الحالة الليدى ليس لديها ما تخشاه من مظاهر التفاني: تقيس باعتدال فيض كرمها.

وبما أنه كان مجبرًا أن يذهب ويكون دليلها هناك، كان "ر" يفضل مجموعة أخرى من الأزقة، متاهة غير تلك، حيث سيساعدنا الحظ، سيخطف الليدى طيف باهر: المرور السريع لنابليون. (هنا أطل تعاطف القارئ. ربما يُلاحظ المفارقة التاريخية: المضاجعة الذهنية التى كانت فى الديباجة ينتج عنها عجز للطف الإلهي. بالمعنى المقزز: بالتأكيد. لكن الجمال فى قواعدها الخاصة، إنها سعادة لا تنتهي. كيف؟ نعم. لقد قال هذا جون كيتس. خروج نابليون. هكذا، عندما تعطى نصف الحقيقة، جمال الشعر. تُغلق الأقواس).
"ر" بالطبع كان يتململ من فكرة مقابلة شخصية مع الليدى واندفاعها نحو الزيارة. على الأقل كنوز علاء الدين، ستبقى الفكرة فى أفضل حالاتها، لأن السيدة "د" التى هى من نوعية ثيوذورا، لم ترجه كى تتعرف على الليدى جوديفا. والغريب فى الأمر والجدير بالذكر هنا: أن عشيق "د" الحالى سيحقق أعلى طموحاتها بمجرد مكالمة تليفونية. لكن يبدو أن "د" قد نسيته. لكن طموحها هذا على أية حال ولد يوم مغادرته. طموح نبيل، هكذا لا بد أن يوصف. فقد اعترفت بذلك، كانت تسعى للتعارف كى ترجح مخططات "ق". عشيق آخر لها، سابق، لكن هذه أشياء تهمنا. إنها الآن ستخدم "ق" كيف الآن ستعرفه على المرأة التى تعتبر منذ سنوات النموذج المثالى للأزواج؟ هذا تقريبًا يُعد سرا من أسرار الدولة.

استمر روبى بنفس النبرة الانتقامية حتى كتب ست صفحات. رقم قياسي. أعاد قراءة التقرير، مسح بعض الجمل المكررة، واستعد كى يمزقه.

أول شعور ينتابك فى ذلك المقهى المليء بالمرايات هو كأنك دخلت إلى حى آخر، وربما فى عالم وزمن آخرين، ربما. هدوء؛ ضوء، ضوء مؤقت باهت، هادئ وأبدي. الزبائن القليلون كانوا يجلسون متناثرين صامتين لا يصدرون أية أصوات، حتى الرجلين المسنين اللذين أحيلا للمعاش ويلعبان الطاولة. أحد طلاب الأزهر القريب من هنا انحنى على مخطوطة من جلد الغنم؛ وضعها على ركبتيه ورفع بكليم مطرز كتابا ضخما منقوشا عليه بحروف ذهبية. أفندى يرتدى نظارة طبية مما يرتديها المثقفون يلعب بمسبحة صغيرة بين أصابعه، وعيناه كأنهما تنظران نحو عالمه الداخلي. الطاولات الحديدية ذات الثلاث أرجل التى كان لونها أخضر ذات يوم، تقف متوازنة على تراب الشارع الذى أخذ درجات ألوان الحديد الزهر المختلفة؛ لأن الطاولات كانت تفيض من الدكان حتى تقاطع الشارع. لم تكن العربات تعبر. الشحاذون والمتشردون والمجانين وجامعو أعقاب السجائر والباعة المتجولون فور أن يدخلوا تحت المظلة التى تغطى التقاطع كانت أصواتهم تنخفض ويسيرون فى صمت. كان الوقت يجرى هنا بشكل مختلف، إزعاج العالم كان ينحسر. كل شيء يأخذ قيمته غير القابلة للمصادرة: التأمل، الحنين، أحلام اليقظة؛ الشاى الأخضر المغلي، نعناع مقدم فى أكواب من الزجاج الرخيص، لكن ألوانها كانت جميلة؛ نبات اللبلاب الذى وجد وسيلة كى يرمى بذوره ويتسلق لأعلى من طيور الكناريا التى تغرد داخل أقفاصها؛ الجرسون المخصى بصوته الرفيع الغنائي. كل هذا مغلف بمادة مثل العاج، خامة من القمر. بالطبع كانت المرايا كثيرة وكبيرة، من أكبر الأحجام الممكنة، معلقة دائمًا داخل وخارج المقهى، تغطى الجدارن المتآكلة للبيوت

الطينية، مرايا نظيفة ولامعة كالماء، بأطرٍ مشغولة على كل الطرُز، أتت من فينسيا، يوانينا، لندن، باريس وفيينا والقاهرة منذ عهد إسماعيل وربما أقدم، منذ عصر نابليون والحرم المملوكي. بعض المرايا كانت صفحاتها ليست بهذا النقاء أو براويزها مهترئة، لكن هذا ما كان يجذبك أكثر، لأنك كنت ترى خلف هذه الثقوب والخدوش ما وراء اليوم والأمس، كنت ترى ما وراء الزمان، الطين الذى كان يغطى الحوائط، العدم...

اكتشف روبى ويلنجتون مختلفة. لم تخفِ امتنانها لهذا العالم الأسطوري. قامت معه بحركات دائرية أمام المرايات وهى تضحك وتضحك. ارتدت الحزام الفضى ومرت من أمام المرآة ثانية للخلف والأمام بخطوات رسمية، مثل بادوفا الربيع. تحولت. "قليل يحتاجه المرء كى يُزهر" قال فى نفسه روبى وهو يتألم. أهدى الجنرال إلى دورا نبروشًا به حجر من الزبرجد، وإلى روبى أزرارا بالعقيق لأكمامه. لم ينس أحدًا. كان لديه من الخبرة مايجعله تلقائيًا. همست له دورا باليونانية "هل أعطيتها أفنيون؟"، الجرسون قدم له مشروبه أولا؛ راح يأكله بعينيه. تذوقوا الشاى الأخضر وجدوه رائعًا.

- يا لها من مغامرة، قالت ويلنجتون. كانت روحى تتوق لها منذ الصباح. لكن كيف أن ركنا كهذا يبقى مجهولا؟ حياتى كان سينقصها شيء لو لم أرَه...

أمسك روبى يدها وأخذها للداخل أمام أقدم المرايات؛ البرواز المذهب قد تهرأ تمامًا وكان يشبه عظمة قديمة. أشار لها إلى اسم عند أحد أركانها. بدبوس أو بمسمار نقش داخل أحد المربعات: Nan&Ron.

- قال لها، فهمتِ الآن. كل العطور العربية...

- آه يا شرير، كيف تصبح شريرًا أحيانًا يا روبي.

دمعت عيناها. استندت بخدها المبلل على الإطار وقبلته.

- كنت أحميهم دائمًا، قالت. عندما طلبوا منى مفتاح شقة باركلين، ذهبت أولا كى أرتبه. راعيت أن يكون هناك المطهر الذى تستخدمها ولوشن اللافندر من أجل رون، وأنبوبة تدفئة جديدة فى غلافها فى خزانة الأدوية. يجب أن تكون امرأة حتى تفهم كيف تتأثر المرأة بأشياء كهذه؛ إنها تعطيك إحساسا بالصفاء والأمان.

- كيف، كيف، راح روبى يحمّسها.

- كانت نانسى تفهم هذا. لهذا فى كل مرة كانت تقبلنى بحرارة وتهمس لى فى أذنى "شكرًا لك يا حبيبتي، شكرًا". أنا كنت أكبر منها بخمس سنوات، كنت أرى أبعد بقليل لهذا كنت أرتعد خوفًا. كنت أقول لرون إن عائلة كمبل ليست كعائلة طومسون. إنهم بُكم ومعبرون. مثل كلب الحراسة فى إسيكس الذى كان لا ينبح أبدًا على المارة، لكنه كان يهجم ويهبش الشخص من عنقه بعدها بزوم كأنه يُذبح. كان رون شخصا مفكرًا وهادئًا، لكن كانت روحه رياضية، كان يحب دومًا أن يتحدى قدره. طلب نقله من الإسماعيلية إلى سرب العامرية الذى كان يحكمه ابن عم زوجها، شخص يُدعى كمبل. كنت أعلم أننى لن أراه ثانيةً. بكيت عليه قبل أن يأتونى بالخبر. لكننى لم أقل لأحد. أحكى هذا الآن لأنك ضايقتني. ستقول وما ذنب نانسي؟ أعلم. لكن لا

أستطيع أن أنسى أنه بسببها فقدت أخي، الشخص الوحيد في هذا العالم الذى من دمي.

تراجعت قليلا وراحت تنظر داخل اللون الرمادى للمرآة الباهتة وعدلت من الحزام فوق وسطها.

ـ أهلا يا أخي، قالت. أراكما ملتفحين بالحب. وخلفكم أرى فى المرآة المقابلة ملائكة منحوتة تسكب الخيرات. لكم حبى الذى سيبقى دائمًا.

ـ قال روبي، ويلنجتون. شقتى تحت خدمتكم. هل تعلمين أن بودلير قد قضى ليلة على فراشي.

ـ لم أقل شيئًا كهذا يا روبي! آه يا روبى كم تتعجل. لا أدرى ماذا ينتظر منى الجنرال. أفترض، ربما يريد العودة إلى اليونان؟ قال إنه ربما يكون قد أخطأ بمجيئه هنا. إن آثار كل هذه القبور تخنقه.

والآن كيف نعود، قال روبي. إذا ذهبنا من اليسار سنصل إلى الأزهر. من هناك الشارع واسع وسنذهب بسرعة.

أعطى الجنرال يده اليسرى إلى دورا، واليمنى إلى جوين. روبى كان يمسك تارة بجوين وتارة بدورا. الليلة كانت مليئة بالنجوم، النسيم رطب عليل؛ شعلات ذهبية فى المصابيح فى الدكاكين القديمة؛ صوت صرير عجلات الترام على قضبانها؛ أجهزة الراديو ظلت فى الماضى فى حكايات شهرزاد. فى المطاعم كانوا يقلون أسماك النيل فى زيت بذرة القطن الذى لوث الهواء. حكى الجنرال إحدى مغامراته التى انتهت بنجاح.

فى أثينا فى صيف عام ١٩٣٤. تعرف فى الظهيرة إلى باريسية عند بوابة المعبد. كانت نحيفة شقراء لون شعرها كان بلون تراب الذهب.

- أضافت دورا، أجوف.

فى الليل ذهب بها إلى الميناء التركية. أعجبها شراب الريتسينا، والرخويات والأسماك، الإستاكوزا وسلطة الطماطم والجبن الأبيض اليوناني. نظرت نحو البحر بتعبير حنين قديم. العجوز بالمركب ينتظر: كان ينظر لهما وينتظر. "هيا بنا" قال لهما. "ماذا يريد العجوز؟". "يريد أن نذهب فى نزهة؟ أريد أن أستحم، لكنى لم أحضر حُلة السباحة". "لكن بعد الطعام سيصيبك مكروه". "لا تخف. أنا معتادة على هذا. لكن هنا المياه ليست قذرة".

أخذها إلى حى فرياتيذا بالتاكسي. قال للسائق أن يرحل. نزلا بحذر. قالت له "لا تنظر سأخلع ملابسى خلف الصخرة". سمع بعدها صوت سقوطها فى الماء ورأى رأسها داخل الماء وهى تسبح كالدولفين. أشعل سيجارة وانتظرها. كانت تحدثه من بعيد، قالت إن الماء كان رائعًا. وقالت له "الآن لا تنظر، أريد أن أخرج". أطفأ هو سيجارته، مرّت بجواره خطوات. ما هذا الكائن، أى مخلوق هذا...

- لماذا؟ سألت جوين.

- كلها أيادٍ وأرداف. صدرها صغير. بطنها مرتفع قليلا، مثل نساء كراناخ.Cranach.

. لماذا؟ سألت دورا.

(كاد السهم أن يسقطه من على الحصان).

. أجاب الجنرال: وكيف أعرف لماذا. أردتُ هذه المرأة. كانت سعادتى بين يديها.

ذهب إلى إحدى التافرنات وبدأ احتساء شراب الأوزو بلا إضافة ماء. قال لها: "إن سعادتى بين يديك". كانت لها أصابع طويلة شفافة مثل المرمر. تركته يقبلها ويلعق أظافرها ويعض حوافها. نظرت إليه بطرف عينيها الدامعتين الواسعتين وتجعدت جبهتها وقالت " Trop tot et trop tard ".

مرت الساعات وازداد الأوزو، لكنها لم تكن تستجيب له. فى النهاية صعدت موجة من المرارة وخنقتها فقال لها "أنا إنسان يائس".

. لماذا، سألت دورا.

(فقدت الأضحوكة المفارقة)

"لا تقل هذا"، قالت له، "لا تعرف ماذا يعنى اليأس، لقد مات زوجي". فسألها "والولد؟". فقالت له "إذن لقد رأيتني؟ لا يهم. لقد طلبت منك شيئًا يفوق قدراتك. ليس الولد ابنه. لهذا انتحر".

. سألت جوين بقلق، وماذا بعد ذلك؟

ـ قالت دورا، لا شيء. ذهب بها إلى الفندق... وفى الصباح أرسل لها وردا، أليس كذلك يا ديدى (قالت مداعبة)؟

صمت.

ـ والآن دوري، قالت دورا. كان هناك رجل أسمر من هذه النوعية التى أحيانًا تتسم بالوسامة. عرّفنا أحد الضباط. أنت تعرف من يا ديدي.

ـ لماذا، سأل روبي.

ـ أحد قادة اليسار، أكملت دورا. رافقني. كانت الليلة مثل هذه الليلة، رومانسية وباردة. اقترح عليّ تمشية على النهر. قبلت. كان المكان هادئًا. المراكب تنتظر. "هيا بنا؟"، اقترح عليّ. قلت له "ولم لا" نزلنا واخترنا مكانا مريحًا. لكن عندما خرجنا إلى المكان المفتوح كنت قد شعرت بالبرد. وضع معطفه فوقى وأخذنى للداخل. عندها طلبت على الفور من المراكبى أن يعود بنا.

ـ لماذا، سأل الجنرال.

ـ سأل الجنرال ثانية: لماذا ؟

ـ كانت رائحة عرقه لا تحتمل.

كان روبى يستعد لتمزيق التقرير. لكن الجزء الأخير من الصفحة كان فارغًا. شعر نحوه بالأسف. تناول القلم مرة أخرى وأكمل:

ملاحظات.

مسئول ١: شديد الازدراء! يُستدعَى فورًا للتحقيق.

(توقيع بالأحرف الأولى).

مسئول ٢: لديه الجرأة أن يقوم بتلميحات شخصية، هو معروف ببخله الشديد!

(توقيع بالأحرف الأولى).

بحبر أحمر مائل: أشكرك يا صديقي.

(توقيع بالأحرف الأولى مثل التوقيع الأول).

مسئول ٣: أساطير. هذه الأثواب الفخمة والزجاج الثمين هو من تشيكوسلوفاكيا واليابان.

(توقيع بالأحرف الأولى).

مسئول٤: خسارة. النبرة الشخصية وإقحام السياسة يفسدان جماليات النص. خطاب فضفاض، كلاسيكيات رخيصة. أين تلك الملاحظات القوية، الأحداث الواقعية الأصلية؟

(توقيع بالأحرف الأولى).

مسئول ٥: لا بد من توخى الحذر. لا يبدو أن هذا الشخص فى كامل قواه العقلية. هل يجب عرضه على فحص نفسى عصبي؟ كما أنه لا يوضح عن أى برقوق يتكلم، عن الأب (١٣٨٢ – ١٣٨٨) أم عن فرج (١٣٩٨–١٤٠٥).

(توقيع بالأحرف الأولى).

مسئول ٦: من أجل الرب! دعوه يكتب تقريرين أو ثلاثة كهذا.

(توقيع بالأحرف الأولى).

بحبر أحمر: لماذا يغيب تعليق الرائد بيتر؟

بالأخضر: يغيب فى مهمة عسكرية.

أعاد قراءة التقرير، بَدّل بعض الكلمات، وبعدها قطع الأوراق إربًا، ذهب إلى المطبخ وأحرقها.

(١٠)

كنت أسمع بوضوح. كانت آريان تتكلم. لكن مع مَن؟ الغرفة كانت مظلمة، كنت أرتدى البيجامة فى الفراش وعلى رأسي.. شيء... كيس به ثلج!

- أتمنى. خسارة هذا الشاب.

- ما الذى يحدث، مَن يتكلم، سألت.

ضغطوا زر الضوء فى الحال. كان فانيس وآريان يتحدثان فى أحد الأركان.

- قالت آريان وهى تخرج من الغرفة، سأترككما وحدكما.

- سأل فانيس وهو يقترب، كيف حالك الآن؟

كانت هناك رائحة غريبة فى الغرفة. رائحة طاغية وحلوة من البنفسج تنتشر على الفرش. شيء أشبه بالحلوى بنكهة البنفسج التى دائمًا ما كنت أشمئز منها. كنت أعرفها من لونها، لون بنفسجى فاقع؛ كنت أختارها

من القمح وأهديها إلى أليكس. غير الرائحة كانت هناك ضوضاء؛ مزيد من الأصوات؛ تسابيح وتصفيق. فجأة جملة سريعة واضحة وشعرية بمصاحبة طبلة من الخزف. بعدها صوت الصاجات بفرحة تهليل وبشكل رسمي.

- سألت مجددًا دون أن أتحرك، ماذا يحدث؟

- إنه عيد أحد الأولياء فى الجامع. بدأت الاحتفالات من ظهر اليوم. هل تشعر بتحسن؟

- أشعر أننى على ما يرام. لماذا ألبستمونى هذا الشيء؟ نزعتُ الكيس من على رأسى وألقيته بعيدًا.

جلس فانيس على فراش ستماتيس ينظر لي. كيف أقول لك؟ قال بتفهم.

- حقيقة لا تتذكر شيئا؟ انظر، حتى لا أرهقك. ضع هذا على رأسك ثانية. برافو. حسنًا، هل تذكر متى غادر ميخاليس؟

- آه. اليوم. لقد وصل فى الصباح ثم غادر، فى المساء، أظن ذلك.

- لماذا لم تأت إلى الموعد؟ كنا قد اتفقنا أن تأتى فى السابعة كالعادة.

شيء ضبابى راح يصفر فى أذنيّ. ضبابى ومقرف.

- هل نمت؟

- ويا له من نوم!

ـ قلت، لماذا ثم أمسكت بلحيتي: لقد طالت كثيرًا. كم يومًا نمت؟

ـ حقيقة لا تتذكر شيئا؟ ألا تذكر أنك أردت فى منتصف الليل أن تنزل إلى الشارع بالبيجامة؟

لا أذكر. عمَّ كنت أبحث فى تلك الساعة... ولكن... نعم، أذكر الآن. كان نيكوس بيده يدفعنى للخلف وبالأخرى يمسك بالباب، كما لو أن أحدا كان يحاول جاهدًا أن يفتح الباب، وكان الطفل يمنعه. أتذكر إحساسًا سيئًا يصعد من قدمى ويسرى فى عمودى الفقرى حتى خلف رقبتى التى تشنجت. كنت أدوس حافيًا على بلاط الأنتريه. راح الطفل يصيح "ماما، ماما".

ـ لحسن الحظ انتبه الصغير. فلم تجد مزلاج الباب فى الظلام. فأحدثت ضجيجًا أيقظ الصغير.

ـ لكن لماذا؟ ماذا حدث لي؟

ـ يا رجل؟ لحسن الحظ أن التوأمتين لم ترتعدا من الخوف. الوالد كان فى عمله الليلي، عاد فى الصباح. لكن الأم جاءتها صدمة. تقول إنك كنت تنظر إليها وعيناك مليئتان بالغضب وقلت لها: "خروج، افتحى الباب"، كانت حرارتك مرتفعة. أخذتك للداخل وقامت بوضع كمادات وحجامة بالخل.

"خروج، افتحي؟". متى. لكن هناك شيئا آخر: "الربيع، طريق مسدود". وشيء آخر، مثل اسم امرأة، لكن كيف كان الاسم؟

- هل جئت مع الضئيل التافه يا فانيس وأنا نائم؟

- قبل الأمس. كيف شعرت بهذا؟ أحضرته لأنك طلبته كثيرًا. لكن فور أن رأيته جاءتك النوبة مجددًا. سيل من الكلام. هل تتذكر ماذا قلت؟

لم أكن أتذكر. لكن كنت أذكر أنني كنت أحضر في ذهني خطابات نارية كي ألقيها أين؟ متى؟ الآن وشيئًا فشيئًا أمسكت بتسلسل الأحداث: عندما غادر ميخاليس أصابتني الحمى. لم أذهب إلى الموعد. قلق فانيس، وجاء في الليلة التالية. وجدني أهذي. جاء مرة أخرى مع التافه. واليوم وحده.

- هل فهمت شيئًا مما كنت أقوله؟

- أتدري، لم يكن كلامك مفككًا. وهذا ما أخافني. كيف تشعر الآن؟

- حسن جدًا.

- إذن سأقول لك ماذا فهمت. هذا الحوار في "بالميرا" أصابك بالاضطراب. ربما كان بسبب إصابتك أيضًا. كنت تتكلم عن الحرب. عن الحلفاء وإعدادات الجيش الأحمر، عن الهجوم في الربيع. عني وعن ريغو وعن مخاوفنا، عن تداخلات رد الفعل. بعد ذلك عدت إلى أمورك الشخصية. كنت تتشاجر مع صاحبنا. كنت تتحدث عن الأسطح والأقبية والأزقة وكأنك تهت داخلك. في لحظة صرخت: متاهة! وأم ميخاليس قالت عندما سمعتك: هذه المتاهة توجد في هذا الحي الذي نحن فيه، هنا خلف الجامع. حقيقة، أين تذهب و تدور؟

- هل قلت أسماء نساء أجنبيات؟

- مرة واحدة فقط قبل الأمس عندما جئت أنا وصاحبنا. التفتُّ وقلت لوالدة ميخاليس: ألاجرا. أظن كنت تعنى أليجرا. وقالت لنا: فى حينا أيضًا، إنه يتحدث عن الجارة.

- كيف أبدو لك يا فانيس، هل ذهب عقلي؟

- فى لحظة خفت من هذا. لكن الآن أراك بصحة جيدة. بعد يوم أو اثنين عندما تستطيع، اذهب ليراك الطبيب.

- الطبيب البولندى الذى أجرى لى الجراحة من يدرِ فى أى معسكر هو؟ لكن يمكن أن أكتب له. سأفكر فى الأمر. كيف تسير الأمور؟

قال فانيس وهو يغلق نصف عينيه. كما لو كان يفتخر بي.

- اهتم بصحتك أولا ولدينا الكثير من العمل. لكن كن بصحتك. سأقول لك شيئًا، لكن لا تضعه فى عقلك وتطحنه مع الأشياء الأخرى حتى لا تعاودك الحمى: إنهم يحاولون استبدالنا بثلاثة من الديمقراطيين من قادة الكتائب. إذا جرؤوا على هذا سنعتقلهم.

- كلهم؟

- الفاشيون.

- لكن هذا يحتاج إلى استعدادات كبيرة. إذا خرج الأمر قليلا عن السيطرة... ثم أننى أعرف بعض الفينزويليين سوف ينسحبون.

- لهذا لابد أن تصبح فى صحة جيدة. امكث فى البيت يومًا دون حمى ثم اخرج للشارع. ليس لدينا وقت لنضيعه.

- هل عاد الضئيل التافه إلى قاعدته؟

امتعض وجهه. لم يكن يحب أن أشير إلى الرفيق باسمه المستعار.

- لا، بقيَ... لكن لدينا رجالا أشداء هناك. هناك غاريلاس.

- وفى الأولى؟

- أنت لا تهتم بهذه الأمور الآن. اهتم أن ترد لك عافيتك. وخذ أدويتك بانتظام...

- هل أحضرتم طبيبًا؟

- مرة واحدة فقط. طبيب الحي، رجل بشوارب. يتحدث اليونانية بشكل جيد. هو من قال إن إصابتك لا دخل لها بحالتك. ربما صدمة نفسية كانت سبب الحمى. وأعطاك حبوبا منوّمة. لكن لا أدرى إذا كان محقًا أم لا؟

- لا أدري.

دخلت آريان وفى يدها صينية. ظننتُ أنها أحضرت لى عدة الحلاقة. لكنها أحضرت شراب التيليو. شربته من أجلها. ابتسم فانيس راضيًا.

- حمدًا للرب. قالت آريان. لقد خفت كثيرًا يا ولدى أن يحدث لك هذا فجأة ودون سبب فى بيتي.

عندما خرج فانيس ترك الباب مفتوحًا بعض الشيء فدخلت ضوضاء الشارع. كان صوتا أشبه بابتهالات، بأصوات رجال وآلات نفخ. بين الحين والآخر صمت ثم صوت الآهات، وعندها كان يسمع صوت الطبلة فقط يضرب بسرعة وعصبية. وفجأة تبدأ الأصوات فى الإنشاد بطبقة أعلى فى أجواء احتفالية. هل شكلوا دائرة ووضعوا فى المنتصف الآلات أم كانوا يسيرون فى تظاهرة غير منتظمة يرفعون القناديل؟

ـ ماذا نفعل يا بني، صادفنا هذا الأمر فى هذه الأيام قالت آريان وهى تغلق الباب: لكن يوم الاحتفال الكبير سيكون بعد الغد. وحتى وقتها ستصبح على ما يرام، إن شاء الرب. سأحضر لك طبقًا من الزبادى لتأكله ببطء وتهدأ. لا تفكر فى الهموم. كلها تمضي.

ـ ماذا كنت أقول يا سيدة ساريذيس. قولى لى من فضلك.

ـ كنت تتخبط يا بنى وكأنك فى متاهة. كنت أتمنى لو أستطيع أن أسرد لك الأمور بانتظام. أنا أفهمك، لكن لا أعرف كيف أحكيها. شخص ضايقك وصعدت كل المرارة التى كنت تبلعها فشوشت على عقلك. هذا هو كل شيء، لكن الآن كل هذا مر.

ـ وماذا عن أليجرا، كيف جاء اسمها فى وسط كل هذا؟

ـ هل أخبرك فانيس؟ يا الله ! يا بني، ليس ذنبك أنت. كان شبابك الذى ربطته هو ما كان يتكلم.

ـ هل قلت كلامًا قبيحًا.

.كنت تناديها بالخنزيرة، هذا ليس سبابا أو كلاما قبيحا. وكنت تخشى أن يأخذها منك الآخر، هذا السمج الذى جاء مع فانيس قبل الأمس.

قلت فى نفسي، "انظر كيف يتسكع العقل الباطن". لو أعطيت هذه المادة لمحلل نفسى سيبنى لك قصرًا كبيرًا أفضل من كوبلا خان".

.سألتنى آريان إذا كنت أشم شيئًا لما رأتنى أشمشم بأنفي.

.نعم، شيء مثل رائحة بنفسج ثقيلة.

. هاهاها، بنفسج! إنها رائحة فرو الغنم الذى نَسوه، ونحن فى البداية. سترى بعد يومين أو ثلاثة ما سيحدث. لحسن الحظ هذا العام جاء العيد فى فصل الشتاء. لو كنا فى الربيع والحرارة شديدة فى الشوارع، وأكوام الجثث تحت حرارة الشمس والرائحة العفنة تفوح والذباب الأسود يحوم ويغطيها كالملاءات. ومن الناحية الأخرى إسطبل الباشا خلفنا. تأتيك رغبة أن تقفز من الشرفة لترتاح من كل شيء دفعة واحدة. هذه هى العادات هنا. يصبح الشارع سوقًا لبيع فرو الغنم، يوم فى السنة. نغلق الأبواب والنوافذ. أحضرت نباتات الريحان من البلكونات كى تعطر البيت قليلا. لكن لا بأس. حتى إن فانلات البنات بعد قليل ستكون لها رائحة نتنة.

تخيلت ما يحدث فى الناحية الأخرى فى أزقة المتاهة التى لا يدخل فيها الهواء أبدًا بشكل كاف. من بضعة أيام حاولت أن أعبر من هناك لكننى ضللت الطريق. متى رأيت زينيت، الخميس؟ هل مر أسبوع بالفعل!

المقابلة مع زينيت استمرت نصف ساعة على أكثر تقدير. كان فانيس ينتظرني بالمنزل لكني لم أكن متعجلا كي أعود. كنت أعرف أن فشلي سوف يحبطه ولذا تعمدت التأخير. كيف دخلت لا أذكر، كنت في شارع البستاني وخلفي كانت شوارع سوق شارع البلاقسة الضيقة أمامي بدا شارع الجامع. بين منزلين متشابهين انحرفت ناحية اليسار. كنت أظن أنني سأذهب بالتوازي مع شارع البلاقسة كي أقطع الطريق متجهًا يمينًا لأجد شارعنا. لكن وجدت نفسي في شارع طويل وهادئ ومظلم. كان كل شيء رطبا، تسود الألوان الداكنة، الرمادي والبني والأسود: الأرض مضغوطة، البيوت الجيرية منخفضة الارتفاع مهترئة، الأبواب مغلقة لونها أسود من الزمن والسخام، مشربيات مكسورة، نوافذ منزوعة. في مكان ما كان باب قبو مفتوح: داخله ظلام دامس رأيت فيه ظلالا تتحرك وسمعت نساء يتحدثن إلى أطفال صغار يصرخون. لو فتحت يديّ لكنت لمست جانبي الشارع الضيق. مشيت بسرعة وأنا أنظر إلى الأرض حتى أتفادى الحفر المليئة بالنفايات. برك من الماء النيلي. الأوساخ القديمة والحديثة عالقة بالجدران؛ رضيع نصف عارٍ كان يجلس داخل إحدى البرك الصفراء بلون الليمون يقضي حاجته. البيوت كانت منخفضة إلى درجة أنني لو رفعت رأسي للمست نوافذ الطابق الأول بجبهتي. لكن إذا أردت الدخول كان عليّ أن أحني رأسي كي أنزل درج القبو. الأسقف كانت مصنوعة من البوص الأسود والصفيح الصدئ والعوارض القديمة؛ كلها ممددة مع خرق وأقفاص من الورق المقوى المهترئ. كنت أسير وأنا واثق من طريقي. في إحدى النوافذ كانت تتكئ امرأة بلا غطاء شعر. راحت تنظر إليّ بتفحص

فبدأ بياض عينها واضحًا وهى تعض على شفتيها الغليظتين. مررت قريبًا جدًا منها حتى إننى شعرت بأن أنفاسنا قد اختلطت. وهنا قطع طريقى حائط من الطوب اللبن. فى الناحية الغربية رأيت فتحة. ومن الشرق شارعًا. هذا سيذهب بى إلى شارع البلاقسة. لكنى لم أرد أن أعود، شعرت بعينى المرأة على ظهري. سرت؛ كان ذلك الشارع أكثر ضيقًا، نوافذ الأقبية كانت مغطاة بشبك رفيع. سيدة سمينة انحنت من فوق سطح منزل وسألت شيئًا. سرت دون أن أعطيها انتباهًا، كنت أرى بالفعل نور الشارع الضيق يزداد، وشعاعًا من الشمس كان يلعق الأرض المضغوطة. " قلت، أخيرًا، سأخرج إلى شارع البلاقسة وسأتمشى فى الحي". وصلت إلى الميدان المستدير الذى لا يزيد حجمه على حجم براشوت. فى منتصف الميدان كان جذع نخلة بلا رأس. لكن البيوت حوله كانت ملتصقة الواحد بجوار الآخر دون أن تكون بينها أى ممرات. لا جدوى من هذا يا مانويل. لنغير الموضوع. طريق مسدود. عدت أدراجي. عدت إلى قورينة مرة أخرى. انحنت السيدة السمينة وصاحت شيئا بالعربية وهى تسحب يدها فى الهواء كما لو كانت تهش على دجاج نحو الناحية التى كنت أسير فى اتجاهها. وصلت مجددًا إلى الجدار الرمادي. لم أشأ أن أعبر مرة أخرى من أمام المرأة السوداء ذات العيون الواسعة. ذهبت من الناحية الغربية فاحتك الجاكت الذى أرتديه بالحائط عندما حاولت العبور من الفتحة التى فى الحائط. الشارع كان مستقيمًا ثم انحرف وانحرف فى عدة اتجاهات. أمام أحد المنازل المهدمة ببوابة خشبية بدائية كان يقف أحد الأولاد الذى أخذ ينظر لى بقلق. كان عنده ورم فى رقبته مثل حجم حبة الطماطم. فور أن وصلت بجواره تراجع ومد يديه

كأننى كنت أرغب فى الدخول وراح يمنعني. ابتسمت له وأكملت سيري. حيّانى بطريقة عسكرية وابتسم. لكنى وجدت أمامى جدارا عاليا وطويلا على يمينى بلون الجص الأبيض. خمّنت أنه الجدار الخلفى للجامع. ليس ذنب زينيت المسكينة، لا بد أن ريجو يرهبها. هو الآخر ينتمى إلى فصيلة المينوتور. الجدار الأبيض لا يبدو أنه ينتهي. انتهى الجدار الأبيض لكن ليس هناك ممر بعده. رحت أسير على غير هدًى. كان لدى شعور المسافر فى حافلة إقليمية ويمر بكل محطات الضواحى كى يكتشف طريق العودة إلى المدينة. لا بد أن أكون الآن قريبًا جدًا من شارع البستاني. وماذا نعنى بأنه ينتمى إلى فصيلة المينوتور؟ فجأة، ظهر ممر ينتهى بجدار قوى مبنيّ بالحجر الجيري. رفعت رأسي. لو لو أكن مخطئًا، هذا لا بد أن يكون الجدار الخفى لبناية ريتشاردز. كنت هناك فى الطوابق العليا، فوق كل الحى تقريبًا. إذن فمن تلك النافذة كانت تراقب العالم السفلى هنا فى بؤسها وحزنها وشيخوختها السيدة أبولونيا ساباتيه؟ ماذا حدث للمرضة البولندية؟ عدت للخلف وسلكت الشارع العلوي. انتهيت إلى نفس الجدار. للخلف مرة أخرى. لم يكن يجب عليّ أن أنحرف، كان لا بد أن أستمر فى الطريق الذى سلكته، كان بالتأكيد أوسع. هذا هنا لا بد أنه يقود إلى مكان ما. تعريشة قوية فى حالة جيدة بزجاج معشق فى الطريق رفعت من معنوياتي. الزقاق كان أوسع بمقياس ثلاث أصابع من الأزقة الأخرى، أرضه أيضًا غير ممهدة لكنه على الأقل منظف بعناية. كنت أدور لساعات طويلة لكن الآن كان لديّ شعور بأننى أسلك الطريق الصحيح. هكذا كان الأمر فى أثينا وفى باريس، عندما يجفف الاضطراب روحك تجد فجأة واحة أمامك. ليس هناك شيء

محدد. ولا حتى الحي، ولا حتى اتساع الشارع، لا البنايات. لكن هناك ثمة هدوء، ثمة أمانة. شكل من أشكال الخير والطيبة الجادة السرية. شارع يوليانو، شارع مافروماتيون، شارع دير بيتراكيس. طريق كليمبر، شارع باسكال، فوزورار نحو حديقة لوكسمبورج. وهناك شوارع أخرى تشبهها لكن شيئا ما يفسد هذا التشابه. شارع لوريستون القريب جدًا من شارع كليمبر، طريق بور رويال نحو جسر أوستيرليتش، شارع أخارنون حتى نهايته. *الحالة الميناتورية لا ينتبهون إلى الآخر، لا يحترمون الإنسان. لا، ليس الأمر من منظور طبقي. وإن كان في عالمنا الملائكي هذا لا يوجد شر لا يبدأ من النظام. لكنك ستجد المينوتور حتى في إلدورادو. غرور وأنانية عمياء. مسكن سواد العالم يوجد في أحشائهم، دماؤهم مرة. البرق الوردي لقضيب الثور. نقطة الضعف، الاحتياج، توسل الآخر للاستغلال ثم يدمسونه. يأكلون البشر أحياء.* تبدد أملي. الشارع الهادئ النظيف انتهى إلى طريق مسدود. امرأة ترتدي تنورة تحتية باذنجانية اللون تجرش آنية طعام بتراب تجمعه من الآرض بعد أن تنخرها بأظافرها. لم تنظر لي. اتجهت للخلف في الشارع وأنا أنظر إلى أعلى بفضول مصطنع، مثل متجول يتفحص المناظر السياحية. بدا أن ظلام الليل يقترب. كم ساعة تمشيت؟ ساعة، ساعة ونصف الساعة على الأكثر؟ لم نكن حتى في الظهيرة. ها هو بيت منخفض مدهون بالألوان الجيرية له نوافذ خضراء قطعت على الشارع. دُرت حولها. أحد الجدران كان به ميل للداخل أشبه بتجويف، ومن هناك كان هناك ممر، لكن كان يجب أن أنكمش قليلا كي أمر. جير الحوائط كان له لون أسود على ارتفاع يدي. علامة جيدة. أنا في الطريق

الصحيح. لكن فور أن خرجت رشقتنى عينا تلك المرأة. فى وجهها لم يكن شيء يتحرك. نظرت إليّ فقط وانتظرت. اتجهت نحو شارع البستاني. الآن أنا متأكد أننى سأخرج من نفس المكان الذى دخلت منه. *ريتشارد على سبيل المثال ليس ميناتور. ولا حتى نانسي، و لا رون. ميناتور كان آدام من أجل إيمي، مثل ريجو من أجل فانيس، والضئيل التافه من أجل زوجة فوتيروس. ومن أجلي؟ نعم، ومن أجلي. ذهبت قريبًا منه وأنا متعطش إلى اتصال إنسانى طبيعى وسحقني. ستماتيس من أجل أليجرا: ميناتور. ديونيسيس لآريان. الضئيل التافه لنينا؟ نعم. أنا من أجل البولندية؟ لا. متاهة ! لكن بالتاكيد الأمر ليس محض موقف أيديولوجي.* على يسارى مرة أخرى منزل متهدم له باب مرقع. اللعنة! كنت أتخيل أنه خلفي، خلف تلك المرأة. لم تنتبه إلى الولد. تذكرت آريان عندما قالت لي: «ليس هنا أسهل من أن تخرج. تدفع الباب وتجد نفسك فى الشارع. يكفى أن تعرف فقط أنه لا يجب أن تدخل أى بيت. النساء العربيات سيقمن الدنيا بأصواتهن». دفعت الباب بحذر. آه، الملاعين ! مثل جروين تسلق أحدهما فوق الآخر وراحا يتشاجران بوحشية. خطوت للخلف وأغلقت الباب دون أن يرياني. فُتحت إحدى النوافذ على مصراعيها ومن الداخل أُلقى أمام أقدامى ماء من حوض ما. «يوووه»، سمعت صوتًا يقول هذا لكنى لم أر أحدا. وسعت خطوتي. لا بد أن صبر فانيس قد نفد. يا لها من مغامرة غبية. هل أسأل أحدا؟ هل أتخلى عن الخجل وأحاول التواصل بالإشارة؟ مع أى باب مفتوح، أى نافذة مفتوحة، رحت أنظر حولى كي أجد أى شخص. غاص حذائى فى حفرة من الطين. عندها طفت رائحة كريهة. كنت أنتبه طيلة هذا الوقت ماذا

حدث فجأة؟ كانت رائحة قديمة مثل ملابس قديمة قُفل عليها فترة طويلة من الزمن فانتشرت فيها العفونة، فتعطيك إحساسا باليأس والموت. طريقى المسدود تفوح منه رائحة الموت. امرأة بعينين ملتهبتين وفم مغطى تجلس على النافذة. كان هناك بيت كبير، به تعريشات كثيرة مطلى بالجير وآيل للسقوط مثل كل البيوت هنا. كان هذا البيت ليتسع لعائلة ساريذيس. كان يشبه وصف آريان. لا بد أن شارع البلاقسة قريب من هنا. انحنيت على امرأة أسأل عن الشارع. أشَرت بإصبعى نحو الناصية أسفل قليلا نحو بابها. ببطء وغموض سحبت يدها وأشاحت لى عن وجهها. فمها كان به ثقب أسود، أنفها كان ممررا به طوق نحاسي. أخرجت لى لسانها بطريقة ذات مغزى. أسرعت من خطواتى وعندها سمعت النساء خلفى يضحكن بسخرية. هرولت كى أهرب من مكان عارٍ. كان فانيس ينتظر. سأخرج، سأخرج أخيرًا. كانت ركبتاى ترتعشان من التعب. كنت قد نسيت سجائرى عند زينيت. *كيف انجرفت؟ كيف تركت نفسى أغرق!* الميناتور كانوا يأكلون البشر بقضمات كبيرة.

ذلك المساء كانت آريان هى من أخرجتنى من المتاهة. البرقية الصوتية فى هذا الحى أشبه بصيحة طرزان فى الغابة، أخبروها سريعًا أن الضيف الذى لديهم ذا العلامة على جبهته تائه فى الأزقة منذ ساعات. أرسلت نابليون على الفور ليجدني. أمسكنى هو من يدى وسحبنى بهدوء؛ كان ينتبه حتى لا يخيفنى. الخروج كان من خلف نافذة تلك المرأة ذات العيون الواسعة الصامتة. كان هناك باب مشترك.

- يا ربي، قالت آريان وهى تشعل الضوء. لقد جاءته النوبة ثانية!

كنت جالسًا على الفراش. لم أكن نائمًا. لكن يبدو أنها سمعتنى بينما كنت أتكلم فى الظلام. بعد قليل أحضرت طبقًا عميقًا به خل، شجت خرقا قديمة من قميص نوم قديم وأحضرت كمادات. فى الشارع كانت الضوضاء سائدة من الأصوات والآلات الموسيقية.

ارتفعت درجة حرارتى ذلك المساء، لكن الحمى كانت فى نهاياتها. صدقت نبوءة آريان: يوم الليلة الكبيرة فى الجامع كانت الحمى قد انقشعت. صادف يوم العيد أن يكون آخر الشهر، وأن يكون يوم أحد أيضًا. التوأمتان قد حصلتا على مرتباتهما وأحضرتا الكثير من الأشياء للمنزل. كانت هناك حفلة رقص واقترحا عليّ أن أذهب مع إحدى زميلاتهن مرافقا: كنا سنتقاسم التكاليف. «لتجدا آخر»، قالت آريان: «هل ستخرجان به فى ليلة الذكر؛ ستأخذانه؟»، قالت أورانيا «وما المشكلة»، «كل هذا القفز والحط والأصوات العالية. دعوه ينجو قليلا من الضوضاء والرائحة العفنة». قاطعتها كاليوبى التى فيما يبدو لم تكن تحب زميلتهما تلك، «لديه إرادة حرة ليفعل ما يشاء». لكن بالفعل، لم تكن لديّ رغبة فى الخروج. كان الإعياء يسيطر عليّ وما زلت أجرجر أقدامي. الحمى كل تلك الأيام ورائحة عفونة جلود الحيوانات وصوت القرقعة الدائم وأصوات الإنشاد المرتفعة مثل صدى الأصوات فى الآبار، كل هذا قد زاد من إرهاق أعصابي. كانوا ينصبون المراجيح بمناسبة العيد، وهرع إليها كل أولاد الحى من الصباح الباكر. كنت أعطيت نيكوس خلسة قرشين، وعندما عاد سألنى إن كنت قد رأيته وقد أخذ كل أصحابه

وراحوا يتأرجحون لمدة ساعة بالضبط. أكثرهم سعادة كان الأعمى. ذهبنا إلى النافذة وأشار لى إلى الأرجوحة. كانت أمام بناية ريتشاردز. منصوبة على ثلاث أرجل من الجريد، المراجيح كانت مثل مراكب بلا مجاديف، تصعد وتهبط: واحدة منها لونها وردى والثانية خضراء والثالثة بنفسجية. باب شرفة أليجرا كان مغلقًا. قالت كاليوبى «أعلم لماذا لا تتركيه يأتى معنا، تودين أن تريه محبوبك السري». قالت آريان وهى ترفع يدها كأنها ستضربها «ألا تخجلين يا بنت يا ملعونة».

فى المساء كان الأحول وعصابة سلطم يحملون الدلاء ويغسلون الشارع أمام الجامع. أكوام جلود الحيوانات انتقلت إلى أمام باب منزلنا وأمام بيت أليجرا، بعد ذلك أحضروا الرمال وفرشوها على أرض الشارع. بعد أن أشعلوا الأضواء، قام بعض المتطوعين بمنع العربات والسيارات من الدخول إلى شارع البستانى أعلى الحي. شيئًا فشيئًا راح الرجال يتقابلون ويتحاورون بصوت خفيض أمام الجامع. كان البعض يرتدون الجلاليب والبعض الآخر يرتدون القفاطين وآخرون يرتدون ملابس أوربية. على الأسطح المجاورة ونوافذ الأدوار الأرضية تكدست النساء العربيات ملتفات بملاءاتهن السوداء، وأخذن أماكنهن من أجل المشاهدة. بين الحين والآخر كن يطلقن زغاريد احتفالية إما للتحية أو كى يمضين وقتهن. وفور أن ينتهين كن أخريات يجبن على الزغاريد بزغاريد أخرى من الناحية المقابلة. أشعل الأحول المصابيح ثم رفعها برافعته حتى شكلت مربعًا أمام الجامع. كانت الرمال التى فرشوها تلمع تحت الأضواء الزرقاء، كان مثل الجير الحي. غاصت الأسطح فى الظلام. خلفى كنت أسمع أصوات آريان تروح وتجيء،

شكاوى البنات، عصبيتهن وهن يستعدين للخروج. دق الباب. كان زميلهما، شاب فقير منهك. أوقف سيارة التاكسى عند شارع البستانى وقال إنه اضطر أن يبتلع «رائحة الذبائح العفنة». امتعض وجه البنات وقلن: «لطيف أن نبدأ سهرتنا هكذا». قدمت له آريان فى التو بعض الحلوى، وبتعجل مصطنع جعلتهن هن الثلاث يهممن بالرحيل، بعد أن طلبت من البنتين أن تنتبها كى لا تغوصا فى الفرو المتكوم أمام البيت، وأن تعودا للبيت قبل موعد عودة أبيهما.

أحضرت لى آريان معطفى ووضعت فى يدى منديلا مبللا بماء الزهر وقالت لي: «لا بد أن نطفئ النور ونفتح، لأنه هكذا من الداخل سنرى نصف الحدث. بعد قليل ستعتاد ولن تشعر بالرائحة النتنة». باكرًا وضع نيكوس المقعد الصغير فى الشرفة وجلس يشاهد ما يحدث دون أن يتحرك. فجأة سمع من الحى العلوى صوت الطبول ينزل. أطفأت آريان الأنوار وفتحت زجاج النافذة الكبيرة. انحنت. «تعال أنت الآخر هناك مكان من أجلك». أصابع نحيلة جافة تدق على الغشاء المشدود. كان إيقاعًا مقسومًا، خشنًا ومتوحشًا بعض الشيء. بعد ذلك سمعت أصوات النايات ومعها الدفوف والرق. اقتربت الرفقة. فى الأمام كان هؤلاء الذين يرفعون الرايات الملونة والمشاعل على قوائم. بعدهم جاء العازفون. خلفهم جمع من الناس يسير ببطء موج هادئ كأنهم يرقصون. لم أستطع أن أرى بوضوح. كانت الرائحة النتنة لا تحتمل. رفعت عينى إلى أعلى. لم أعد فى حياتى أبدًا هذا الكم من النجوم الكبيرة والمجهولة. من الأسطح المجاورة كانت تأتى الزغاريد باستمرار. لكن لم ننتبه أن من شارع البستانى كان هناك جمع آخر يقترب.

سمعنا الموسيقى: الطبول والدفوف والمزامير. قالت آريان «يونس، هذا هو. دائمًا يحب أن يبالغ فى أفعاله». على الجانب الآخر، الفرقة التى كانت فى الحى العلوى كانت قد وصلت إلى أسفل المنزل. وفى الحقيقة كانوا يسيرون وهم يرقصون. يمشون خطوة قصيرة، يلقون الصدر إلى الأمام ثم إلى الخلف وإلى الأمام مرة أخرى وهم يدورون برؤوسهم لليمين تارة ولليسار تارة أخرى. ثم وقفوا قبل الرمال المفروشة: الطبلة الخزفية الوحيدة التى كانت راحت تدق بسرعة، بسرعة كبيرة. صاح الجميع فجأة وفى صوت واحد وخشن «لا إله إلا الله»، صمتوا وبدأوا فى التفرق. راح الموسيقيون يسخنون طبولهم أمام المجمرات كى تَسخن وتَشتد جلودها. آخرون ذهبوا ليحيوا شيخ الجامع الذى كان يقف ثابتًا ويرتدى رداءه الأحمر. آخرون راحوا يتحاورون مع معارفهم فى الحي.

لكزتنى آريان بكوعها وأشارت لى بطرف ذقنها : «يونس، هذا هو الذى يتحدث مع الشيخ». كان رجلا قويا عريض الظهر ويداه كبيرتان. كان يرتدى جلابية زرقاء ويعقد شالا على رأسه وكان حافى القدمين. لا بد أن يطلب ترتيب الاحتفال، لأنه كان يشير إلى موسيقييه ومربع المصابيح المضيئة ثم الآخرين الذين جاءوا من الحى الآخر. قالت آريان «أراهن أنه لن يرفع عينيه وينظر إلى هنا ولو مرة واحدة، يعرف أننى هنا فى النافذة لكنه يتمنع. كل عام يحدث نفس الشيء». «كنت أنتظر أن يتطور قليلا. أن يكون بمقدوره أن يؤمن بهذه الأشياء»، سألت. «أى أشياء؟». «فى الابتهالات والصلوات». «لم تر شيئًا بعد. هل تذكر الأزقة التى ضعت فيها؟ كما وصفتها. حداد، بؤس لا ينتهي. تخيل لو عشت سنة كاملة هناك، ستختنق روحك. إن يونس

يخرج مرارته دفعة واحدة فى هذا الذكر. كل ما يحلم به، يكفيه بالذكر. سأجعل زوجته تحكى لك ذات مرة، إنه أمر شيق. يريد أن يرسل نابليون إلى المدرسة، وأن يكون له بيت ببلكونة، وامرأة شابة تجيد الغناء، ومصر بدون الإنجليز، ومن يدرى بما يحلم غير هذا ولا يقوله لأحد. لكن سلطم الأعمى يقول لى إنه يرى أثناء الذكر، هو الذى ولد بلا عيون. أها، لقد جاء لازاروس! هل تراه، لقد ارتدى أفضل ملابسه؟ هناك يجلس على الأريكة الشرقية. وها هى الصحبة. نابليون، كيف لا يشعر بالبرد؟ راحت تحدق. ثم صرخت، يا نيكو!. اجلس هنا ولا تبرح مكانك وإلا قطعت لك رجليك!».

رجل ملتحٍ فى رداء بيج رث وقلنسوة من صوف الغنم كان يتحاور مع الشيخ ويونس. كان له وجه مدبب مثل ثعلب ومتلازمة حركية برأسه الذى يدفعه للأمام بانتظام. قالت آريان، «لا بد أنهم يتشاجرون من أجل الذكر»: «فهذا هو شيخ الرابطة من الحى الآخر. وسائق عربة الباشا. ليسا على علاقة طيبة مع يونس». لكن الخلاف تم حله بسرعة بين الخصوم وتصافحوا وافترقوا بحميمية. الموسيقيون راحوا يجربون آلاتهم. عندها سار الشيخ إلى أن وصل تحت المصابيح، فتح يديه وقال: «الفاتحة». بعدها أمسك وجهه بكفيه وقرأ شيئًا انتهى منه بسرعة بقوله «لا إله إلا الله». وبعدها راح يرتل بعض الآيات. سألت «ماذا يقول؟ ربما أفهم كلمة من هنا أو هناك، لكن لم أفهم حرفا». بعد أن انتهى الشيخ تلاه شخص آخر معمم، ثم ثالث وبعدهم سائق عربة الباشا. انتظرت أن يبدأ يونس لكن لا.. أخذ بيد سلطم وذهب به إلى منتصف المربع. كان للأعمى صوت جميل، ويبدو أنه أعجبهم، إذ إنهم كانوا يصيحون «الله» بشكل مستمر. لكن ماذا كان يقول؟

«نادت آريان على نيكو، يا نيكوس، تعال لتشرح لي». ترجم الصبى بلا أى مجهود، لأن الأعمى كان قد قال له هذه الكلمات من قبل.

آه منك أيتها الغزالة اليمنية

دون أن تدفعى قرشًا جعلتنى عبدًا لديك

بدأت كل المزامير معًا تصيح بصوت أعلى من ذى قبل وتنغم ببطء. وضعت المنديل تحت أنفى ورحت أتنفس. ذهب نيكوس إلى مكانه مرة أخرى. فى المربع المضيء أسفل البيت شكل الرجال دائرة حول الشيخ، كانوا ملتصقين مشبكين أكواعهم. أضاء المصباح الكهربائى فى شرفة أليجرا. همهمت آريان «هممم!» لكنه أطفئ فى التو. انحشر الأحول فى الدائرة وهو يجر سلطم من يديه ويحشره معه فأفسحوا لهما مكانا؛ أدخلوا معهم أحد الحراس النظاميين ببزته السوداء وطربوشه الأحمر. رفع الشيخ يديه فارتخت أكمام ردائه. صمتت المزامير فجأة. وضع كفيه بجوار أذنيه كما لو أنه أراد أن يسمع بشكل أفضل. ضرب كفيه ثم توقف. فراح عازف الطبلة غير المرئى يكرر. أعاد التصفيق فتكرر صوت الطبلة. كانوا مثل أعمدة رخامية تتمايل إثر زلزال صغير، كان الرجال يلفون أجسادهم من ناحية وينحنون قليلا ثم بعدها يكررون نفس الحركة من الناحية الأخرى، بينما تُسمع كلمة «الله» بتنهيدٍ من عشرين فمًا. أخذ الشيخ يدور على صف الرجال وراح ينظر فى عيونهم بعينيه الثاقبتين ويردد «الله» ويسرع من

إيقاع التصفيق والطبلة تكرر خلفه. «الله». ثم يعاودون الانحناء ولكن بشكل أوسع وأعمق وأسرع فى نفس الوقت، الدائرة بأكملها خطت خطوة نحو اليمين. «صاح الشيخ الله حيّ» فردد وراءه الآخرون وهم يخطون خطوة أخرى نحو اليمين. صاح الشيخ مرة أخرى «الله حيّ» فأجابته الدائرة بأكملها. الآن لا يتحركون ولكن يتقافزون. راحت الدائرة تدور بشكل سريع، ينحنون للأمام وللخلف. دار الشيخ مرة أخرى وراحت الطبلة تدق بجنون، الرجال يدورون ويصرخون، الرقص صار مثل الدوامة، مثل نبض جمعيّ. «الله حيّ».

فجأة توقف الجميع وسُمعت النايات مرة أخرى. هدأت الدائرة، حل الرجال عمائمهم وراحوا ينفثون من أنوفهم. فُتح باب شرفة أليجرا مصحوبًا بهرولة خفيفة منها فى الظلام.. قالت آريان، «يبدو أنها ملّت من الانتظار فقررت المسكينة أن تفتح الشرفة. كانت قد أغلقت كل النوافذ كى تحتمى من الرائحة الكريهة». سألت، «ماذا تنتظر؟»، «تنتظر معاليك بالطبع، من ستنتظر؟ تنتظرك - سيادتكم - أقول لك! لقد كتب لها ذو القرون وأخبرها أنه لن يأتي. حدثت سرقة فى الإسكندرية ويحتاجونه من أجل الجرد». «متى تحدثتما؟»، «فى الصباح. لماذا سخنت لك الماء واستحممت». لم أصدقها، لا بد أنها تلعب بعقلي. «كما أقول لك. انتظر حتى ترى يونس وما يحدث فى الشارع بعد ذلك. متى ستجد فرصة لترى شيئا كهذا؟».

فى الأسفل كان رجل زنجى طاعن فى السن يرتدى جلابية بيضاء وطربوشا يحاول جاهدًا أن ينحشر فى الدائرة التى تشكلت مجددًا. لكن الآخرين منعوه. «لقد رأيته قبل ذلك»، قلت لها. «نعم، إنه المخصى الذى يعمل عند الباشا، لا بد أنك رأيته عند بوابة السرايا». «لكن لماذا لا يدَعُونه يدخل بينهم؟»، «إيبه، ماذا تريد الآن. اصبر». فى منتصف المربع وقف الرجل الملتحى ذو القلنسوة الصوفية وضرب بيديه. فتوقفت كل الأوركسترا، فصاح «لا إله إلا الله»، فتنهدوا. خطوة لليمين. راحت الطبول تعطى الإيقاع. عادت الدائرة تتشكل، راح الملتحى يدور. صرخ أحدهم «الله»، فى شقة أليجرا أضيء المصباح فى المطبخ ثم فى الحمام. فجأة قفز الزنجى داخل الدائرة. مد يديه وهو ينظر للسماء بعينين وحشيتين. وبصوت نسائى مليء بالشغف صرخ: «الله، الله، الله». راح ينحنى للخلف وللأمام مثل بوصة تهزها الريح القوية. أمسك به الرجل ذو القلنسوة الصوفية، استمرت الدائرة فى التماوج والدوران لكن الزنجى سقط على الأرض وراح ينتفض ويخرج الزبد من فمه. الآخرون يدورون. التقطت عيناى أليجرا فى عمق شقتها، وهى تدور رافعة يدايها. لم أكد أنظر جيدًا إلا وانطفأ المصباح. أردت أن أسأل آريان لو رأتها لكنى خجلت. نيكوس من البلكونة لم يستطع أن ينظر إلى هناك على أية حال. الخنزيرة عملت حسابا لكل التفاصيل.

حينئذ دخل يونس فى المنتصف. أشار إلى الأوركسترا التى جاءت معه فصمتت. انحنى ببطء ورفع الزنجى وأوقفه بين الأحول والحارس النظامي. جذب سلطم وجعله بجواره. فرد يونس يديه وضربهما بقوة كأنهما صوانٍ. ردت عليه الطبلة وسرعوا الإيقاع. عادت الدائرة تتمايل

مرة أخرى. «يا الله، يا الله». كان سلطم يغنّي دون أن يتحرك. رفع يونس يديه عاليًا وراح يدور ويدور وهو يصيح. قالت آريان «آه، لا أستطيع أن أستمع إلى المزيد» ودخلت. سقط الزنجى مغشيًا عليه مرة أخرى وخرج من الدائرة. «الله، لا إله إلا الله». نزل على ركبتيه وراح يضرب رأسه بقوة على الأرض. وصل الرجال إلى الذروة، راحوا يرددون نفس الكلام أسرع فأسرع وهم يحركون رؤوسهم بقوة من الجهتين، وهم يحنون أجسادهم ويتمايلون بتماوج عنيف ثم راحوا يتقافزون بعنف. ربط الدوران الدائرة فى جسد واحد، وأخذ ينتفض من القشعريرة ويتخبط من انتفاضة النشوة. الله، الله، الله.

هل كان كل هذا واقعا أم حلما؟ كم هى بعيدة الآن: كيفسيا واليونان وأوربا. هل ما رأيته الليلة سيترك أثرًا فى روح الإنسان وهى تتعرّى أم سأنساه مثلما نسيت الكثير والكثير من فترة سنوات الطفولة غير القابلة للتخريب؟ ورائحة العفونة تلك التى تثيرنى كما لو أنها رائحة أقفاص برتقال! أغلق باب الشرفة دون أن يشعر أحد فى الظلام. بدأت النايات مجددًا الإيقاع الشرقى البطيء الشاكي. النساء من فوق الأسطح يصحن يرجون الرجال كى يبدأوا مرة أخرى. هل أذهب؟ هل كنت أفهم آريان أم أنها كانت تدفعنى نحو فخ؟ قالت من خلفى «لا تحسبها كثيرًا»، قبل أن تندم. سأنادى على الصبى حتى لا يراك وأنت تمر. لا تهتم بشأن الجيران. على الرغم من أنه يمكنك أن تنحشر وسط الجمع ثم تتسلل دون أن ينتبه لك أحد. لكن خذ الكبريت معك، لأن سلم المنزل ليس به ضوء.

غاصت أقدامى فى فرو البهائم اللزج؛ كان من المستحيل أن أعبر بشكل مختلف. فى الشارع كانت الرائحة النتنة تسيطر على حلقك. شكلت الجموع حائطًا لكن كلهم كانوا ينظرون نحو المربع المضيء، الذى كان يحاول البعض فيه أن يعيد تشكيل الدائرة. «أول ما سأفعله عندما أدخل هو أننى سأخلع حذائي»، فكرت فى هذا بينما كنت أدوس على الأكوام أمام باب منزلها. صعدت سريعًا وأنا أضيء السلم بالبطارية الكهربية. ضغطت على زر الجرس بحرص. فتحت الباب بحرص أيضًا وأخرجت رأسها منه. تصنعت أنها لا تعرف شيئًا لكنها لم تستطع أن تبقى جدية. شدتنى بيدها اليمنى إلى الداخل وأغلقت خلفى وهى تقول «ماذا يبغى السيد المحترم؟» ثم أغلقت بالمزلاج سريعًا. كانت ترتدى جاكيت بيجامة فقط، ولا شيء آخر. أمسكتها من وسطها. تمهل، تمهل، لا تتعجل، قالت وهى تتملص من بين يدي. تعال أنظر إليك من قريب.

أجلستنى على الأريكة. شعرها، عيناها، صدرها الأبيض، أردافها السمراء، كل هذه الأشياء بدت لى رائعة وبدأت أرتعش. صاح صوت من الشارع بصوت مبحوح «الله، الله». كانت أليجرا تنظر إليّ؛ البقع الذهبية فى مقلتى عينيها الكبيرتين راحت تتسع. بيتها كان يفوح برائحة عطر باريسى رقيق. أخذت منديلا مشغولا من فوق أحد الرفوف، مسحت طلاء شفتيها ثم سارت بهما على شفتى وعلى عينى وفوق أثر جرحي. اقشعر بدني. قالت، أنا أشعر بالبرد. سأدخل تحت اللحاف هيا لتجدنى بسرعة.

كان الفراش إيطاليا كبيرا مثل تلك الأسرَّة التى كانت قبل الحرب فى فنادق إيطاليا، وكنت أرفض النوم عليها لأننى لست بحاجة لها. *على فراش الحب، بستان من الريش.* أول مرة يأتينى بيت الشعر هذا لجوجورا دون مجهود فى التذكر.

- قالت بيونانية ركيكة، من فضلك يا حلو. لا تتعجل. دعنى أستمتع برفقتك الآن وأنت تحبني. لأنه بعد ذلك ستقول ما الذى أريده من تلك اليهودية القذرة.

- أليجرا، أنت فائقة الجمال، قلت لها بالفرنسية حتى أجعلها تبدل اللغة، فكانت لغتها اليونانية تثير أعصابي.

أمسكت يدى بخفة وراحت تقبّلها ثم وضعت كف يدى مفتوحًا على ضلوع صدرها كى أعد أضلاعها. أطفأت ضوء الغرفة بعد أن مدت يدها وضغطت على الزر. وراحت الخيالات تتحرك على سقف الغرفة التى صنعها الضوء القادم من الشارع من خلال مصاريع النافذة.

- هل تسمع كيف يدق قلبي؟ يمكنك أن تبقى هادئًا لعشر دقائق؟ حتى ينتهى هذا الذكر. قل شيئًا، احكِ لى قصة. قل لى ماذا تعرف عني. عشر دقائق. أعرف أن مدام آريان كلمتني. لن تندم أبدًا أنك أتيت إلى هنا. سوف ترى. لكن فقط، لنجعلها خمس دقائق. حبنى قليلا. هل تحبك كثيرات؟

لماذا تسأل؟ الملاءات الباردة، جسدها المشدود، صوتها الحلو، أعادتنى للماضي، إلى حب آخر، لكنه انتهى فجأة. لا، لم يكن من الأمانة أن أستدعيه الآن، فطردت الفكرة.

. قالت لي: هل تدرى ماذا أريد. حبًا صامتًا مثل يونس.

. هل تعتقدين؟

. الأمر ليس خفيًا. هى أيضًا تحبه وإن لم تقل. أرأيت كيف تعتنى بزوجته وابنه؟ من على السطح والبلكونات سُمعت أصوات مرعبة. هرولت نحو النافذة. كان أحد الدراويش وسائق العربة والأحول يمررون إبرًا كبيرة فى خدودهم وفى أطرافها شيء مثل تفاحة جافة. لم تكن هناك دماء تسيل. لكن المنظر كان بشعًا عندما كانوا يشيحون برؤوسهم فتبدو عيونهم بيضاء. عندما عدت إلى الفراش، أشعلت أليجرا الضوء ثانية.

. انتظر لحظة، قالت لى ثم تسير بعينيها الزمرديتين عليّ. أطفأت النور: هيا، هيا بسرعة، الآن أريدك.

انحنيتُ وسألتها، همسًا، شيئًا فى أذنها فضحكت. انزلقت تحت ذراعى وراحت تشم بشهوة تحت إبطي.

. أظرف الواقى الذكرى التى تحملها؟ أنا لا أحتاجها، قالت.

الآن أنا حر. الآن لا أريد شيئا غير أن أصعد على قمة تلك الصخرة الكبيرة التى رفعتها. بعد قليل ستسقط على ظهرى أنصاف أقمار ذهبية. تظللنى من رأسى وحتى قدميّ. يفتحون لى شيئا أشبه بتابوت خشبى مقلوب. «سترى» قالت لي. فى الحقيقة لم أعرف أبدًا أى امرأة تتحكم فى فن حوار العشق، وتستمتع به فى نفس الوقت بوحشية وشهوة. استمدت

الإيقاع من إيقاع الطبلة المهووسة وراحت أنفاسها تلهث مع الصيحات الصوفية فى الشارع.

بدأنا فى الصياح معًا. «المزيد، المزيد، المزيد» راحت تشتكي. «إيمي، إيمي»، رحت أتنهد وأغوص فى الأعماق. وفى الشارع، «الله، اللـه|||||||||||||||||||» كان يونس يصرخ ويدور ويدور.

استيقظت فجأة. كنت قد أرحت رأسى بين عنقها وكتفها، لكن خدى كان يضغط على الجبهة. تشابكت أرجلنا بحميمية مثل الأرابيسك. شقشق الفجر وما زال فى الشارع الذكر مستمرا.

- ألم ينتهوا بعد؟ هل تعبت يا حبيبي؟ يكفى الليلة. ما رأيك؟

- كما تريد. هل سمعتَ الهواء؟

- على الإطلاق.

- هبت الرياح الشمالية وأخذت معها كل الروائح. شهر جديد بدأ يا عزيزي.

بدأنا الحديث باليونانية مرة أخرى. لكنها الآن لا تثير أعصابي. عن أى شهر تتحدث؟ قمري. ربما أرادت أن تقول شيئا آخر.

(١١)

قالت آريان عندما سمعت الهواء، إنهم سيفضونه الآن. لكن كانت عاصفة ومرت سريعًا. كان الآخر ينبح ويدور ويتخبط في الذكر. أشعرني بإحراج كبير. غدًا لن تستطيع أن تنظر في عيون الجيران كما لو كانت هي المذنبة. كل عام يزداد الأمر سوءًا. كيف تنتهي من هذه المضايقات؟ ضحكت كاليوبي وهي تقول. «يا لبؤسك يا أماه، ومن أجل هذا الحقير!». ستقوم لتجذبها من شعرها. لحسن الحظ ناموا. وذيونيسيس... قد خرج الليلة. عاد رابحًا بعد شهور طويلة في الحقيقة؛ ربما لهذا كان يشعر بالقوة. وها هو الآخر يصيح في الذكر من أعماقه مع أربعة أو خمسة من صحبته، إغماءات الدراويش تحت المصابيح المرهقة؛ هي التي أعطت له الفكرة. كي يجعلها تفهم من هو. مسكين. لم يذكر لها ولم يشر أبدًا إلى أي شيء. لكن كان يعرف. وماذا سيقول؟ لم يكن لديه ما يقوله. كان يخاف من آريان. آه لو فتحت فمها وتكلمت ذات مرة. رجال.

تركته يفعل ما يحلو له. لسانه كان لاذعًا وله رائحة نحاس معضوض. شواربه المصبوغة على عنقها، هذا أصابها بالتجمد. الكذب، كان مستحيلا

عليه أن يعيش بدونه. جلف. ستماتيس يشبهه مثل تفاحة سقطت تحت شجرة التفاح. باللمسات والمداعبات الوحشية لا يدفأ قلب قد تجمد. آه لو لم يصدر ضجيجا. التوأمتان. الولد. الغريب بقى هناك. أليجرا وآريان تسافران. على سريرين مزدوجين كان فوقهما رجلان يلهثان وينبحان. كان لديهما ما تفخران به. لكن مع الفارق الكبير. ستغلق له فمه عندما تأتى اللحظة. ماله يتأخر؛ من يدرى كم كأسًا من الأوزو قد احتسى. الآن يريد أن يجوِّد من أدائه. ماذا تعلمهم العاهرات. لكن، كان جاثيًا على رخام. مفتاح المتعة فى العقل. جلف كبير. أوراق ونساء وسكر. لينتهى مما يفعل ويشبع مزاجه، لكن لينتهي. أليجرا فى السماء السابعة. هم لا يفعلون شيئا خطأ. بمعنى أنهم يفعلون خطأ لكن هذا ما يستحق ذو القرون. كان عليه أن يختار زوجة قريبة من عمره بدلا من فتاة شابة معتادة على النزهات والحفلات والقبلات السرية على الأبواب والسيجارة والويسكى والشباب يحومون حولها، ويأخذونها فوق الدراجات للمدرسة والنزهات ثم للسينما يمارسون شهواتهم. جلف، لكن تقول على أية حال حتى لا تكون لديه شكوى؛ سوف ينام. أمر غريب أن ترى الألعاب النارية. ليلة رطبة خريفية. قالت. عندما فتح الإنجليز نادى سبورتنج ودعوا الناس ليأكلوا ويشربوا ويرقصوا السامبا احتفالا بالهدنة. كانت آريان حينها حبلى. ثميوستوكليس الطبيب قال لها إن لديها اثنين هذه المرة. كان ديونيسيس يعتنى بها كثيرًا. لكن راح ينظر بلهفة إلى شراب المارجريتا. كان يوما مجنونا. استقلوا جميعًا عربة. جلست آريان فى أفضل مقعد بجوارها ميروبى وأمامها جلس زوجها ليونيذاس الذى أجلس على ركبتيه شقيقة زوجته. كان الأمر واضحًا جدًا أنها إحدى محظياته.

حتى ذبحها وهدأ الأمر. بجوار القاتل جلس ذيونيسيس يلملم ركبتيه. بجوار السائق ثميوستوكليس كان يعطى اللجام لميخاليس. كان ستماتيس وكوستيس صغيرين فجلسا مع إحدى قريبات ميروبي. قال لهم الإنجليز أن يأكلوا ويشربوا لكن «لن تأخذوا معكم شيئًا». وكانت القاهرة كلها فى ملابس العيد. أعلام الحلفاء وصور كليمانصو وفينزيلوس وتشارلى شابلن. لم تأسف آريان سوى على النجيل فى ممر سباق الخيل الذى تكلف مالا كثيرًا، والآن يدوسونه بهذه الهمجية. الرجال انقضوا على البيرة أما الأولاد والنساء فشربن الشاى الذى كان الجنود يقدمونه فى أكواب كبيرة من المينا سعة مائة جرام كل منها. السكر والحليب كانا ذوا جودة عالية وبقسماط أسود برائحة الزنجبيل. وعندما حل الليل بدأوا فى الألعاب النارية التى لم ترها من قبل عن قرب. ضغط ذيونيسيس على يدها بينما كانا جالسين على الحشائش وهما يشاهدان الألعاب النارية. كان يستحق قبلة فى هذه الساعة وأعطته إياها. كانت المرحومة مع قاتلها يهرولان فى مطاردة خلف أشجار الأوكاليبتوس. بعد ذلك قال الإنجليز إنهم سينظمون مسابقة للنساء والجائزة هى ماكينة سنجر. كانت فى حاجة إليها، يا للعذراء كم أريدها. لكن عندما اصطففن أحضروا لهن أجولة كى يدخلن فيها بأقدامهن ويمسكونها عند وسطهن. كانوا يسمون اللعبة بالكنجارو وقد اخترعها الأستراليون. جلست على الأرض كى ترتدى الكنجارو وهى فى الشهر الرابع من حملها وبجوارها مارجريتا التى قالت لها ما هذا الصوت. اصمتى يا حمقاء سوف يسمعونها. كانت قد ربطت الأكواب فى رباط جواربها. فى ذلك الحين كان من الصعب إيجاد هذا النوع. وراحت مارجريتا الملعونة تضحك بعصبية

حتى فتحت كليتيها. وهكذا لم يدخلوا المسابقة وراحت السينجر. ومنذ ذلك الاحتفال والإسراف لم يبق لها سوى الأكواب وحتى الآن يستخدمها الأولاد في شرب الشاي. السماء مغزولة بأنوار ملونة لكنها كانت تنطفئ بسرعة.

هل يمكن بالتجويد أو بالخبرة فقط أن يكون لينًا بعض الشيء، ربما يتغير الوضع قليلا؟ جلف، لكن هل...؟ حتى لا تكون أليجرا فقط هى من ترى السماء وردية وتبدأ العصافير فى الزقزقة على أصص الريحان تأكل الفتات. زقزقة. فهذا الجسد له حياة أيضًا، ولا بد له أن يضيع فى موجة من موسيقى الزقزقة ويستريح من الأعمال المنزلية ومشاكل الأولاد فى الحرب. انتهى. ولم تكمم له فمه. وليكن. تحلى الرجل وهدأ... رجلها. الآن سينام. زقزقة. فقط لينام. آه لو أدار ظهره. زقزقة. كى تفكر فى الآخر الذى يحترق من أجلها، ولا يمكن أن يسمح لها بالمساعدة.

لم تسمع مانوس، لا بد أنه عاد قبل أن يصحو الولد من أجل المدرسة. لكن فى التاسعة وصل فانيس ومعه مخلاة وطلب منها أن توقظه. كان يبدو فى عجلة من أمره. تحدثا واقفين.

ـ أمسكنا بهم، قال.

الآخر كان لا يزال يسبح فى أحضان أليجرا، كانت أذناه تطنان من الماء.

ـ أمسكنا بهم أقول لك. سأرحل الآن.

ـ متى؟

- متى ماذا؟

- متى أمسكتم بهم؟

- عند الفجر. جاءت إشارة من الوزارة. الكتيبة الثانية تحركت. وفى الأولى تسير الأمور كما يجب. بالتأكيد كانوا يعدون شيئًا ولحقنا بهم. ليس لدى وقت. الأصدقاء فى المعهد سيخفوننى فى قاذفة للقنابل. كن حذرًا وانتبه جيدًا.

- ماذا أقول لك؟ تثق كثيرًا فى هذا المعهد. لكن هل فكرت أنت وحدك فى كل هذا. أين الآخر؟

- لن يغادر. لا بد أن يبقى مع أحدهم. سيأتى ليجدك.

- أين يقيم؟ لا. لن. هل سأنتظر هكذا دون أن أفعل شيئًا؟

- قال إنه سيجدك فى أسرع ما يمكن. فى الحقيقة لا أعرف أين يقيم.

بدأوا فى الحديث بعد ذلك حول أمور غير مفهومة:

- الحركة، سأل الآخر. الثورة؟

- لا. تمرد ضد الفاشية.

- مسلح.

- بالطبع. هؤلاء، إنهم يجمعون السلاح منذ أيام. ماذا تريد؛ اذبحنى يا أغا كى أتطهر؟

- الآن حدث. لا بد أن تعمل التوعية. أن نتحدث بشفافية، ألا نخفى شيئًا. فقط هكذا سنكسب المترددين.

- هيا ابدأ المعزوفة. لهذا مررت. سأقول لك. لكن انظر. الكتائب الفاشية سوف تورطنا لكى يشوهوا سمعتنا. لا بد أن نؤكد أن أهدافنا هى حربية فقط. قمنا بعملية سرطان دقيقة، وأمنًا جانب الحلفاء على الجبهة. طلبنا التنسيق مع النضال الجارى فى اليونان. أما عن الأشياء الأخرى فليس لنا شأن بها، هى قضية الشعب.

بعد ذلك أغلقا الباب عليهما ثم خرج فانيس مرتديًا زى القوات الجوية مثل ستماتيس. ألقى التحية وغادر. تحمم الآخر وحلق ذقنه ثم ارتدى ملابسه فى زمن قياسي. صنعت آريان له القهوة وبيضة (برشت). لم ينطق بكلمة عن ليلة البارحة. أبواب شرفة أليجرا كانت مغلقة تمامًا. لديها سبب وجيه لهذا. أما هو فكان يسير ذهابًا وإيابًا فى الغرفة. توقف برهة.

- فى أى شهر نحن؟

تذكرت آريان أن البنات طلبن منها خيطا أحمر من أجل شهر مارس. فور أن قالت له، أغلق على نفسه وراح يكتب. بين الحين والآخر كان يخرج سائلا.

- ألم يطلبنى أحد؟

كان يعرف أن الإجابة لا، فقد كان سيسمع دقا على الباب. قبيل الظهيرة دق الكفيف الباب. قفز الآخر من الحجرة وعندما رأى سلطم ثارت أعصابه.

ـ قال: لا أستطيع. سأذهب لأتمشى قليلا ربما أعلم شيئا. إذا جاء أحد، لا بد أن ينتظرني. سأعود بعد نصف ساعة.

بدا سلطم مرهقًا من ليلة الأمس. كان جائعًا. أحضرت له خبزًا وبعض الحمص الذى بقيَ من يوم السبت.

ـ أم ميخاليس، أتريدين أن تسمعى قصة أسمهان؟

ـ يا لمزاجك الرائق. لكن قل لنرى ماذا تعرف.

مدد الأعمى ساقيه وبدأ: «إن عباس الدموى قبل أن يموت جده ويصبح واليًا على مصر، ذهب ذات مرة إلى المولد فى طنطا. هناك تعرف إلى أسمهان. كانت راقصة من القاهرة شديدة البياض، لأنه كانت لها جدة يونانية. أعجبته فضمها إلى حريمه على الفور. هى لم تكن تحبه؛ كانت تخاف منه. ومن أجل أن تعبر عن غِلها اتفقت مع رئيس الحرم فكانت تخرج بين الحين والآخر. إلا أنه فى صيف ما أرسل محمد على الكبير طالبًا حفيده فى الإسكندرية. كانت أسمهان تشعر بالملل؛ دعت صديقاتها القدامى كى يقضين وقتًا معًا. قلن لها، ولمَ لا تأتين إلينا. إننا ننتظر بعض أبناء البكوات والمراسلين الأجانب، ستكون سهرة كبيرة». ذهبت أسمهان ولحظها العاثر كان هناك أمين بك؛ الذى كانت تفض غيظها معه عندما كانت تخرج من الحرم. أمين بك كان قائم مقام الباشا، شخصًا طموحًا ومتملقًا لكنه كان رجلا وسيمًا. قالت أسمهان «لو سيفضح سرها سينفضح هو الآخر وينتهى أمره». وانهمكت فى الرقص. كانت لامعة ومضيئة فى السهرة. وعندما بدأت

صديقاتها فى سحب زبائنهن للخلوة، جذبت هى أحد الأجانب؛ كما تعرفين الدم لا يصير ماء. انتهت السهرة واتفق الجميع أن يتقابلوا فى الخميس المقبل، ومعهم اتفقت لؤلؤة الليلة أسمهان. من ناحية أخرى هرول أمين بك وأوصل الأخبار إلى عباس. قال له «حسنًا، اذهب ثانيةً ولا تقل شيئًا لأحد». قبل نصف ساعة من السهرة وجدته أمامها. كانت تضع حليها فسقطت المجوهرات من يدها. كانت تظنه فى الإسكندرية. قال لها «لماذا توقفتِ، قولى لهم أن يأتوا بصندوق الفساتين، أريدك باللون القرمزي». ارتدت المسكينة اللون القرمزي. أمر الباشا رئيس الحرس أن يقطف كل الورد من البستان، سحب سيفه وقطع رأسها. وضعوا أسمهان فى صندوق الملابس وفوقها الورد وذهبوا بالصندوق إلى مكان السهرة، هدية الباشا. قالت آريان فى نفسها «هذا ما ينقصنا، أن يسحب ذو القرون سيفًا» دون أن تظهر للأعمى أنها فهمت. بالطبع أمين بك كان ستماتيس.

- إذا انتهيت من طعامك فعليك أن تغادر يا شيخ سلطم. فزوجى سوف يستيقظ وكما تعرف هو لا يحب الزيارات.

شرع الأعمى فى الوقوف إلا أنه عاد وجلس ثانية. سمعت أذناه صوت خطوات على الدرج. كان الأخرق الذى ينتظره مانوس. ذهبت به آريان مباشرة إلى غرفة الأولاد وأغلقت عليه. وجدت سلطم يُشمشم فى الهواء مثل كلب بوليسي.

- سأل، من كان هذا؟

. ليس لك شأن. أحد أصدقاء الأولاد.

. أليس هو ذلك ذا المعطف؟

. أنت مخطئ، قالت له: ألم أقل لك أن ترحل؟

. أى صديق للأولاد يا أم ميخاليس، لن تستطيعى خداعي. هذا يجلس مع الأغنياء.

. وهل فهمته من رائحته؟

. لقد قال لنا نابليون. إنه يجلس أمام المفوضية هناك حيث يذهب مستر روبي.

. اذهب من هنا ياثرثار! أمام المفوضية لا يوجد يونانيون.

نهض الأعمى وذهب نحو الباب. أشار بإصبعه إلى أعلى نحو الصليب.

. قال، هناك حيث يقيم لديهم هذا.

. قالت هازئة: نعم، ويرتدون الزى القومى اليونانى أيضًا. هيا اذهب من هنا!

أخرجته ثم صنعت القهوة من أجل الذى يجلس وينتظر فى الغرفة. وجدته يقرأ ما كتبه الآخر. كان قد ألقى معطفه على الفراش ويقف بجوار النافذة من أجل مزيد من الضوء ويتنفس بثقل. تركت آريان القهوة على الكومودينو.

- أتمنى ألا يكون قد ضل طريقه، قال لها.

- فى أى لحظة سيظهر. إنه لا يبدو من هؤلاء الذين يضلون طريقهم.

- ضحك عاليًا عندما يسقط الحجر على رأس الرجل...

لم تقبل آريان أن تسمع المزيد. كان لديها أعمال المنزل لتهتم بها. بعد أن جاء الآخر سمعتهم يتحاورون ويتشاجرون. استيقظ ذيونيسيس وسأل عمّا يحدث. ذهبت لتقول لهم أن يهدأوا قليلا، فسمعت الأخرق يقول بغضب وهو يلهث:

- لا تقل لى فانيس قال: وفانيس لم يقل. هذا الكلام هو محض هراء.

«ينقصنا واحد»، فكرت آريان: «ستماتيس». لكن ستماتيس لم يظهر اليوم.

زغارتا (لبنان)

٣ مارس ١٩٤٣

كيف حالك يا أمي!

كم كنت أتمنى لو كنت هنا حتى تشبع روحك من الرجولة اليونانية. لا تصدقوا شائعات الكتائب الفاشيستية. الروح المعنوية مثالية. كل القطاعات والتدريبات تتم كما كانت تتم فى السابق بل أفضل. الضباط الشرفاء يحملون مسدساتهم. الجنود يعشقونهم. الآخرون أرسلناهم صحبة إلى طرابلس وسجناهم مع هؤلاء من سلاح المدفعية الذين قدموا استقالاتهم.

تم تطهير العالم من ثعابين الخيانة والنفعية. اصمدوا ببسالة مثلما نحن صامدون. لن يجرؤوا على ضربنا. فى الحقيقة، إن قائد المدرعات الإنجليزى قد رفض. الحماس كان لا يصدق. لكنهم اعترفوا أن أهدافنا وطنية. لكن لا بد من أن يقتنع السياسيون بذلك.

ليلا.

الشخص الذى كان يجب أن يأخذ الخطاب، مر وقال لى إن هناك وقتا حتى صباح الغد كى أكتب المزيد على راحتي. لكن لا أدرى كيف أبدأ الآن والعجلة تقتلنى أن أقول لك كل شيء على عجل.

نحن معسكرون فى حقول الزيتون فى الجبل. هذا يلعب دورًا لدى الكثيرين الذين يقولون بأن الموقع يذكرهم باليونان. نحن هنا فى أعالى الجبال والبرد قارص. يومان قبل الحدث غطت خيمتنا الثلوج وغاصت. القفاز والقلنسوة الصوفية اللتين صنعتهما من أجلى لم يعد لهم فائدة. السكان هنا من العرب لكنهم يشبهون الأوربيين، إذ إنهم بيض البشرة ويميل لونهم إلى الأحمر الوردي. لكنهم فقراء، نفس الخرق، نفس الجوع، مثلنا تمامًا. لكن القلب ينفطر من أجل الأطفال. كانوا يتجمعون فى ساعة الغداء وينتظرون بعيدًا. كما تعرفين فأظن أننى كتبت لك هذا من قبل «أصدقاؤنا الإنجليز» وفقًا للقواعد يمنعوننا أن نعطى أى شيء «للسكان الأصليين». وهكذا كل ما يتبقى من أوانى الطعام نحفر وندفنه فى الأرض. حسنًا يا أمي، هنا فهمت ماذا يعنى أن تكون يونانيا، أى إنسانًا من الشعب. الجنود يتصنعون أنهم يأكلون ملعقة أو اثنتين ثم يبتعدون ويعطون أوانى طعامهم

إلى أطفال العرب. كيف لا يحبوننا؟ أحد أثريائهم، مسيحى وشجاع، طلب أن يتواصل معنا. قال لنا إن لديه صلة قرابة بالثوار المسلحين فى الثورة اليونانية. ربما يكون هذا من خيالاته. هذا الرجل عرض علينا أن نخرج من خلال الحقول ويخبئنا لديه ولن يعثر علينا أحد أبدًا. شرحنا له أنه مخطئ، وأن هدفنا هو أن نطهر الجيش من أجل أن نحارب بشكل أفضل. فهم على التو وقال لنا ألا نشغل بالنا. فأتباعه الذين هم قرابة المائتين من المسلحين المختبئين سيكونون منتبهين دائمًا، وفور أن يروا أى تحرك مريب سيخبروننا.

يبدو أننى سرحت مع اللبنانى المسلح وذهب قلمى فى طريق آخر. قبل الأمس كنا فى تدريبات طوال اليوم؛ عندما عدنا لنرى النتائج التى توصل إليها المحكمون، رأينا الوضع مخدرا. الفاشيستيون وضعوهم داخل خيمة وكانوا يعاملونهم برفق، لكنهم أخذوا منهم مسدساتهم. كان رجالنا يتجولون بالأسلحة الأوتوماتيكية، الإصبع على الزناد. حينئذ عرفنا ما حدث فى الكتيبة الثانية، وعلى الفور تحركنا، دون أى جدال. أخرجناهم وعملنا اللازم. سوف تعلمين كل شيء من الصحف.

فى اليوم التالى فى البكور كما لو كنت قد شممت حركة ما. لا أكتب لك هذا يا أمى كى يمر الوقت، لكن لكى يُقرأ على العائلة، ليتعلموا، تفهمينني. وصل بعض الإنجليز من اللجنة وطلبوا أن يقوموا بالتحقيق. رفضنا رفضًا قاطعًا. انضباط واتزان وولاء: رائع. غادروا ومن تعبير وجوههم فهمنا مدى ارتباكهم. لكنهم كانوا ينتظرون وضعًا آخر. فى المساء الأعمال التخريبية

بدأت تُظهر لنا وجهها. جاءنى بعض أبناء وطنى من مصر. «ماذا نريد»، قالوا لي، «أن نتورط نحن فى السياسة؟ هؤلاء الذين جاءوا من اليونان يريدون أن يحلوا مشاكلهم هنا. نحن لم نأتِ إلى هنا من أجل هذا، تم تجنيدنا ولم تكن لدينا حيلة كى نتجنب التجنيد. كل ما نريده أن ننتهى من كل هذا على أسرع ما يكون، ونعود إلى بيوتنا وأعمالنا. فيم يعنينا من سيحكم اليونان غدًا. ميتاكساس أم فنيزيلوس. نحن سيكون لدينا فاروق للأبد». أولا، قلت لهم، «ومن اليونانيين المصريين هناك متطوعون. وهؤلاء قد تركوا عائلاتهم وحياتهم من أجل غاية أنبل، من أجل الحرية.» «صحيح»، قالوا. أكملت قائلا «وأيضًا من هؤلاء الذين جاءوا من اليونان هناك متطوعون من أجل نفس الغاية تغربوا عن وطنهم. ليكملوا الحرب من أجل الوطن». هنا انقسمت الآراء. البعض كان يقول «لا، أنت لم تفهمهم. هؤلاء أتوا لأنهم سمعوا أن الإنجليز يوزعون الجنيهات». قلت لهم « ألم تروا أنتم بأنفسكم هؤلاء الذين أتوا من اليونان، كيف حاربوا فى العلمين؟»، صمتوا تمامًا. قلت لهم، «ماذا تقترحون على أية حال؟»، وهنا ظهرت الخطة التى لم تكن خطتهم، لأنها تحتاج إلى رأس مدبر كى يأتى بها. قالوا لى «نرفع تقريرًا نطالب فيه أن يكون المصريون اليونانيون فى وحدة منفصلة». أتفهمين يا أمى خطتهم الشيطانية؟ وهو ما يعنى أن يهدموا الجيش. الأمر لا يحتاج إلى فلسفة فأغلب التخصصات التى لدينا فى الجيش كانت لهؤلاء الذين تخرجوا فى مدارسنا فى القاهرة والإسكندرية والمنصورة: مسئولى الشحن، مترجمين، كتاب، مهندسين، سائقى النقل والجرارات وضباط المدافع. مما يعنى تفكيكا منظما. كم أتمنى لو أن يكون أمامى هذا الشخص من الكتائب الذى رسم هذا

المخطط كى أنزع له حنجرته. قضيت ساعة أشرح لهم وأقرأ. اقتنعوا فى النهاية وغادروا لكننى لم أهدأ، وذهبت لمكتب التوجيهات وبسرعة أصدرنا بيانات لتوضيح الموقف، ووزعناها على الكتيبة بأكملها، كما أرسلناها أيضًا بوفد إلى الجيش الثانى ومن الممكن أن يكونوا قد وصلوا بالقرب منكم.

نمت هناك. لكن لم يكن نومًا حقيقيًا، فى كل مكان حراسة مزدوجة. فى الصباح أرسل الإنجليز مبعوثهم يطلبون أسماء الكثير من المصريين اليونانيين من وحدتنا ثم وضعونا فى سيارة جيب وصعدوا بنا إلى إهدن، منظر بانورامى رائع. هنا ترين أشجارا يا سيدة ناكسوس تخلب العقل: أشجار الصنوبر والتوت والكروم. الإدارة الإنجليزية كانت فى منزل تركى داخل أشجار اللوز. انتظرنا. كان كل فرد يمر على المحقق ثم يخرج فيدخل الآخر حتى لا يتكلمون فيما بينهم. أنا تركونى للنهاية، فبدأت أفكر فى الأمر برمته. أخيرًا جاء دوري. دخلت حجرة مفروشة بالسجاجيد وبها مدفأة مشتعلة، سجائر وويسكى على المكتب، ورئيس الكتيبة رجل طويل شاحب اللون يرتدى معطفه العسكرى يرتعش من البرد. سألنى عن الاسم والوحدة... إلخ، كان يتحدث اليونانية أفضل منا.

- اسم الأم، ثم راح ينظر لي.

- أريادني، قلت له.

- رد مصححًا، أرياغني.

- قلت له، يعني.

ـ أشار لى قائلا، اجلس. سنحتسى مشروبًا معًا، أشعر بالبرد.

قلت فى نفسي، «يا ميخاليس، افتح عينيك جيدًا. وإلا ستُلصق بك أمور غريبة وستذهب هباء مثل ماصوراس». نظر إليّ مرة أخرى فى عينيّ.

ـ اجلس من فضلك. كيف حال نابليون؟

آه يا أمي، أُصبت بالدوار. هل هذا معقول؟ قلت. لم أتكلم قبل ذلك فى هذا الموضوع لأننى أعرف كم أنتِ امرأة طاهرة. لكن فى تلك اللحظة مر على ذهنى كل الأشياء المستحيلة قصص ومغامرات من «البؤساء» و«أسرار باريس»، و« اليتيمتان»، التى كنت أقرأها خفية وأنا صغير وكنت أقول إن هذه الأشياء لا تحدث إلا فى فرنسا فقط. كى لا أطيل عليك، مر على بالى أن نابليون ربما يكون أخي، وهم كانوا يعرفون وأرادوا أن يهددونى بذلك الآن. كنت مستعدًا لأى نوع من التضحية. لكن رئيس الكتيبة أخرجنى من هذه الورطة.

ـ قال. إن جاركم دكتور ريتشاردز، صديقي.

وكأن حجرا ثقيلا انزاح من فوقي. جلست. شربت الكأس الأولى بلا ماء.

ـ قال، أعرف أنك أحبطت محاولة فصل اليونانين المصريين إلى وحدة منفصلة. مبادرة رائعة أحييك عليها.

ميخاليس صمت.

. نضج سياسى أم عفوية وطنية، أكمل كأنه يتساءل مع حاله. كتبت أن رد الفعل الأول لهؤلاء الذين قدموا هذا البيان هو الأكثر انسجامًا مع نفسية اليونانى المصري. يحتاج الأمر إلى جذور عميقة حتى يتخذ شخص مثل هذا الموقف. لكنى أتساءل، كيف وأنت لم تذهب إلى اليونان من قبل. أملك يا تُرى؟

صمت ميخاليس. لكن كنت أفتخر فى داخلي، دون أن أفقد يقظتي. هذه هى الحقيقة.

. أنت لست متكلمًا يا رقيب ساريذيس. أفهمك. على كلٍ، أحدثك كصديق حقيقى لليونان القديمة والحديثة. إن موت كوستيس بالاماس قد أحزنني.

لم تكن لدينا أدنى فكرة عن موت بالاماس. مع كل هذه الحروب والحراسات والأحداث، غطى كل هذا على التنوير ومر الخبر مرور الكرام. لكنه حشر الأمر فى الحوار. درس. تيقظ يا ميخاليس، فالآن ستأتى الخديعة.

. عمومًا. إن ثورتكم المسلحة تُظهر فطنة سياسية وخبرة تنظيمية.

. احتجاج، يا سيادة رئيس الكتيبة.

. الجيش غير مرتاح يا رقيب ساريذيس!

. أى جيش؟

. هؤلاء الذين يحاولون أن يقضوا علينا من أجل مكاسب حزبية أيا كانت توجهاتهم؟ هل ستقبلون أنتم فى جيشكم أن يستقيل بعض الضباط قبيل المعركة، وبعد ذلك يعودون برتبهم العسكرية نفسها؟

طأطأ رأسه. بعد قليل عاد ونظر فى عينيّ.

. سأعترف لك بما قاله لى رئيس أركان الجيش هولمز: «رجال رائعون، لكن الكثير من ضباطهم فاسدون».

. هل يمكننى أن أعود يا رئيس الكتيبة؟

. توتر. حاول أن يستجوبنى فاستجوبته أنا.

. بالطبع تستطيع، بعد أن قلت لك هذا. لا أريد أن أعطلك أكثر من هذا.

كانت عيناه تلمعان من المشروب. نادى على أحد الحراس المسلحين وقال له أن يعيدونى بالجيب إلى سريتي. صافحني. كانت يده ساخنة. ربما يعانى من الحمى لهذا كان يرتعش.

. قل لأصدقائك إن كل شيء يتوقف على قدرة تحملهم المعنوية. إذا التزموا حتى نهاية الأزمة، هناك ثمة أمل أن نتجنب العقاب.

أهو ينصح، أم يهدد؟ ميخاليس. صمت.

والآن يا أمي، أقبّلك. لديّ أشغال كثيرة.

ابنك الأكبر.

(١٢)

البار والصالون الشرقى لفندق شبرد، حيث كان يتردد مراسلو وكالات أنباء الحلفاء مع بعض أنصاف المثقفين الداعرين والشواذ المتأنقين، كان يضج بإذاعة الأخبار. كان روبى على وشك انهيار عصبي. فى السفارة عبسوا فى وجهه؛ كانوا يتظاهرون بأنهم لا يسمعون ما يسأله ويعطونه دائمًا إجابات غير محددة. ذهبت جوين فجأة إلى الإسكندرية. بيتر سافر من لبنان إلى لندن كى يرافق يورغيوس وتسورذوس كما تخيل أثناء وجودهم فى الشرق الأوسط ليتابعوا الأحداث. استقالة كانيلوبولوس لم تكن مفاجئة؛ كانت متوقعة خاصة بعد الاستنكار الذى تعرض له فى هيدر. لكن حل الأزمة كان يتأخر. كأن أحدًا كان يعطله حتى تتفاقم الأمور. بالطبع الأخبار من السرية كانت رائعة، الكل كان يعترف أنه يسود هناك التزام مثالي، "لو صح ذلك" كان البعض يقول "عن وعي، وعى شديد". مثلا: المتمردون يشكلون محاكمات شعبية ويهددون بالإعدام، وجود التحالف الإنجليزى مع المتمردين سوف يكشف المعسكر. الأسطول والقوات الجوية والتجارة البحرية ساروا فى طريق التظاهر بالقرارات والتليغرافات.

تحركاتهم الحربية استمرت كما كانت وبنفس ضباط القيادة. هذا كان يفسره البعض كنقطة ضعف بالنسبة للمتمردين والبعض الآخر كان يفسره بأنه نضج سياسى للحركة المناهضة للفاشية.

ذات ليلة فى بار شبرد قبل روبى كأس البيبرمنت التى قدمها له مايك نيكلسون. رائد أمريكى شاب قوى البنيان ذو بشرة وردية وله انشغالات غامضة. عندما وصل إلى كأس الويسكى الرابع أو الخامس جاشت عواطفه وراح يثرثر. حكى مرتين كيف حصل على أجمل امرأة فى وسط أوربا. يا لها من امرأة: مصاصة دماء مثل دراكولا. كاد الأمر أن ينتهى بمرض لولا أن أحد الزملاء تدخل فمررها إليه. لا؛ ليس المضحك هنا. أرسلها إليه مع زوجها، بتوصية من أورشليم. سأل روبى "حسنًا" ثم ماذا. "لا شيء يا صاحبي. بعد قليل هو الآخر تعب ومررها إلى آخر". لكن عندما وصل من الكأس الخامسة إلى العاشرة تحول مزاج مايك إلى الشكوى، راح يضرب رأسه على الرخام وراح يرثى حاله وغباءه؛ كيف أهدى امرأة حياته إلى يهودى من بروكلين.

قال نيكلسون إن الأحداث فى الكتائب ليست منفصلة تمامًا عن مرور ريجو على القاهرة. هناك شائعات طبعًا تقول بأن الخطة رُسمت تقريبًا دون أى تحفظات داخل أحد المعاهد. هنا انحشر فى الحديث بيرتون؛ الذى كان يبدو مشدودًا إلى شيء آخر ويمرر يده بانتظام على شعره الأبيض، لكن أذنه لم تترك كلمة تهرب منه.

- هذا الكلام غير دقيق يا سادة، لو تسمحوا لى بالمقاطعة.

أعلم من مصدر موثوق أن ريجو لم يشأ أن يقابل الوفد اليوناني. هذا بالإضافة إلى أنه غير قادر على أن يرسم أى مخططات. إنه مجنون.

تركوه يتكلم بفصاحته الفرنسية التى كلها كرم وفقاعات. راح لونه يحمر ثم يشحب فجأة وبعد ذلك يحمر مرة أخرى. النظرة التى ألقاها مايك إلى روبى كان مفادها: "اتركه. إنه مجنون" . فى اليوم التالى سمع روبى الرواية الأخرى من سكرتير السفارة اليونانية الذى كان قلقًا على عزرا باوند.

نادى عليه بينما رآه متعجلا فى منتصف النهار. دكتور ريتشاردز، هل يمكننى أن أستوقفك قليلا. أظن أنه واجبي... تضامن الحلفاء... كما تفهم. نزلت من عند عائلة ميتراكيس. علم بالتأكيد أن ريجو نصح أعضاء الحركة ألا يشرعوا فى أى تظاهر. تفهمون على ما أعتقد. عندما نقول ريجو هو كما نقول ستالين. إذن فيصح أن توصف الحركة بأنها تروتسكية. هل تتخيل مدى ارتياحي. يكاد الأمر أن يكون مرعبًا، نحن دولة بلقانية، بالتأكيد، والتكتل السلافي... أعتقد أنك تفهمني.

قرر روبى أن يطلب مقابلة مع سيميونيذيس. لم يشأ أن يمر على عائلة ميتراكيس. مجرد الفكرة بأنه سيقابل دورا كانت تثير أعصابه. لكن تلك كانت قصة أخرى. أرسل إليه رسالة قصيرة مكتوبة مع نابليون وحدد معه موعدا فى مساء نفس اليوم فى بيته. عادت الرسالة مغلقة وعليها جملة "انسنى لهذه الفترة" ، مكتوبة وموقعة بخط مائل. فى المساء سأل ستماتيس، ماذا عن ضيفكم؟

- وماذا عن الملعون الكذاب. لكن لا عليك، علمت بأمرهم. يطنطنون بكلام فضفاض عن المثالية والرصانة، وبعد ذلك خلف ظهرك يخدعون النساء المتزوجات. لكن أين سيذهب؟ انتظر فقط حتى تهدأ الأمور وحينئذ سنتحاسب. سأقطع رأس هذا الملعون. سوف أشى به.

لم يجرؤ أن يطلب منه التروي، لأن هذا سوف يثيره أكثر. لكن الوغد انفجر فى أخيه ميخاليس.

- كلهم نفس الشيء. هو أيضًا كان يتصنع القداسة. الآن وجد أن العائد من المخدرات أكثر ربحًا من الثورة والنضال.

- ميخاليس، مخدرات؟

- نعم، ماذا يصنعون بالأظرف الصغيرة، التى يحملونها ذهابًا وإيابًا هؤلاء البلطجية؟ ألا تعرفهم؟ إنهم عصابة من الشوام. فى لبنان وتركيا ومصر فى الموانئ والمطارات وهم من المدنيين والعسكريين. رأيت أحدهم فى البيت. قلت له "ماذا تفعل هنا يا هذا". "لا شيء، خطاب من أجل أمك أحضرت". تصنعت بأننى اقتنعت.

جهز روبى رسالة صغيرة أخرى وكانت فى جيبه عندما قابل آريان أمام الجامع. أوقفها دون أن يفكر. وضع على وجهه تعبيرا لطيفا، أخرج السلسلة الصغيرة التى بها منديل العذراء ولفها على إصبعها. قال لها بسرعة، كل شيء: "نظفوا البيت جيدًا؛ وعلى السيد سيميونيذيس أن يحترس". سمعت آريان ببرود وقالت له بطريقة أقرب إلى القرف، وهى

ترمقه بعينيها الضيقتين "شكرًا يا سيد، إن ستماتيس تلزمه علقة ساخنة لا أكثر. لكن ماذا أفعل لك؟"، ثم ابتسمت له: "شكرًا لك مرة أخرى. الآن فهمت أنك شخص جيد". لكن وجهها شحب. عرب الحى كانوا يراقبونهم وهم يتصنعون بأنهم يتحدثون بغير اهتمام. فلربما لا يجب أن يعرّضوها للحرج:

لكى يصعد ديفيد الذى يعمل بالاستخبارات الطوابق الثلاثة، هذا يعنى أن الذى جاء به هو أمر مهم. كان مقعدًا إثر إصابة فى الحرب فى فلاندر، وغاز المسطردة قطع أنفاسه ومن حينها وهو يعيش فقط على الحليب المخفف بالماء.

- أنت هنا على ما يرام، هكذا تقريبًا كنت أتخيلك. قال وهو يرمق الأثاث بعيونه الثاقبة.

كان لون بشرته شديد الاصفرار، ويضع فى فمه طاقم أسنان كان يمنحه ابتسامة بيوريتانية مزيفة. كانوا يلقبونه فى السفارة بالـ "مبتسم". خلف مكتبه كان هناك لوحة بالخط الجوثى مكتوب عليها: "Keep Smil-ing". عندما كان أحد الزائرين يغضب. كأن هذه اللوحة تعطيه سببًا كى يثار غضبه فى الداخل. كان ديفيد يشير خلف ظهره بطرف القلم الرصاص.

- فى الحقيقة كنت أود أن تخبرنى ماذا تعرف عن دورا ميتراكيس. الدب الكبير يرفض أن يدعوك إلى السفارة. قال له أحدهم إن الليدى ويلنجتون تعرفت إلى هذه المرأة من خلالك.

ـ لا بد أنها هى نفسها من قالت هذا. لا أفهم لماذا؛ هل هو سر؟ أنتم تعرفون ميتراكيس. أنا لا أقرأ مذكرات عشيقها.

ـ لكن هل تتخيل أنها قادرة على...

ـ قادرة أن تكون هى من استفزتكم كى تقوموا بفحص بيتها؟ أعتقد أنها تستطيع وببراعة. من كان يعرف أن الجنرال كان يحمل معه نسخة من الرسالة الخاصة بموضوع الملكية؟ السيد ميتراكيس هو من حث وكتب إلى السير مايكل باليرت، على افتراض أنه نيابة عن السياسيين اليونانيين. لم تجدوا الأصل. لكن من أشار عليكم بأن تبحثوا فى جيوب الجنرال؟

ـ ألم تكن مدام ميتراكيس ستفعل هذا؟

ـ كى تتخلص منه.

ـ هل لأنها كانت تغار عليه؟ أم تغار منها؟ هل تعرف أننا أحضرناه إلى هنا بإصرار منها؟

ـ أعلم هذا.

ـ ولماذا لا تطلب منا أن نعيد إرساله مرة أخرى؟

ـ لا بد أن يوافق هو نفسه على هذا.

ـ هو طلب منا هذا منذ الأسبوع الأول الذى وصل فيه. وهذا ما قالته الليدى ويلنجتون.

. بالضبط. عصفوران بحجر واحد. لا تتركه يعود إلى اليونان ولا يدخل الحكومة.

. ونجحت.

. الحكومة أزمة مستمرة.

. لكن الجنرال غادر. أنا من رافقه إلى المطار.

صمت.

. إلى اليونان أم إلى موسكو؟

. طهران. أى أنها ستكون محطته الأولى.

. وماذا عن السيد ميتراكيس، المستفيد من البعثة؟

. ليس هناك موضوع. هل كنت تتخيل أن اللورد باليرت يوقع على ورقة دون أن يزن الموضع من كل جوانبه؟ كان هذا بوازع منى كى نغطى على الفضيحة.

. لا أفهم.

. إذن فلا بد أن نتوقف هنا.

دخل سليمان وقال إن الحليب قد فسد، فماذا تطلبون يا مستر، عصير برتقال أم شاي؟ أرسلوه كى يشترى الحليب. دخل مرة أخرى، وقال لهم إن الثلج فى البراد. صرخ روبى "اذهب". لكن ديفيد راح يغطى طاقم أسنانه الزرقاء، أشار خلف ظهره على لوحة افتراضية.

. اعترف روبي، أنا لا أحبه. هل هى، إذن امرأة تلعب على أصابعها بسياسة إمبراطوريتنا؟ حل ميتراكيس سيرضى النفعيين وبعض الفينيزويليين والمتملقين. الفجوة...

. الفورين أوفيس يفكر بشكل مختلف. لكنهم لا يريدون التورط. ينتظرون أن يأتى تلميح من المتمردين.

. كن متأكدًا من هذا: متى!

. إلى متى سيظل هذا الوضع معلقًا؟

. لا أدري. أنت من لديك كل الوشاة.

. المتمردون يتمنّعون عن الحديث فى الأمر السياسي.

. ألهذا أتيت؟

. جئت من أجل ميتراكيس.

. ومن أجل الجنرال. تعلمون أننى أدعم ترشيحه فى كل مكان.

. نعلم هذا. لكن لم آتِ لهذا. رغم أن الدب الأكبر يود ذلك. هل قلت لك إنه طلب ملف تقاريرك؟ أقول لك فيما بيننا يا دكتور ريتشاردز: لم يكن من الحكمة أن تكتب عن هذا المتشرد الصغير.

تهديد. كان روبى ينتظره منذ شهور. كم كان يعرفهم جيدًا، كم كانوا يصيبونه بالاشمئزاز.

- أما عن الجنرال، فأظن أنه لا يزال من الممكن أن يصير شيئًا. إذا كتبت إلى كيزي، إذا أرسلت رسالة طارئة إلى "رينولدز نيوز"؟

- لو أردتم أن تعروا الفضيحة التى غطيناها بصعوبة... التفتيش فى منزل ميتراكيس تم للتمويه. التفتيش الحقيقى حدث فى جرسونيرة مدام ميتراكيس. لم يكن الجنرال وحده.

- بالطبع.

- هل هذا وعد منك؟

. . . .

- الليدى ويلنجتون تؤكد أن هذا كان فخا. تركتهم مدام ميتراكيس وحدهم ثم مرت إلى الشقة المجاورة، ومن هناك اتصلت باللورد طومسون. فوجئ عندما دخل شقتها. تظاهرت بأنها دخلت للتو. لكنها اعترفت بأن الجنرال كان يأخذ منها المفتاح باستمرار.

- أرأيت على أى شخص تعتمد؟

- إن أقذر شيء فى العالم هو السياسة يا دكتور ريتشاردز.

لم تكن للزيارة أية نتائج. تجاهل روبى التهديدات ونزل إلى بازار الجدل السياسى داعمًا على الدوام الجنرال. الآن يأكل فى سان - جيمس، يأخذ الشاى فى شبرد ويسهر فى كباريه ناشيونال. كانت هذه هى النقاط الرئيسية. كانت أول مرة ينفق فيها مرتبه قبل نصف الشهر، واضطُر أن

يلجأ إلى حسابات توفيره البنكية. كانت هناك لحظات يتساءل فيها: ما الذى حدث له؟ أين فلسفته؟ كيف لم يختنق من القرف والوضاعة والمؤامرات؟ هل كان يصدق كل الدعاية التى كان يقوم بها من أجل الجنرال؟ أم كان محض عناد؟

ذات يوم دخل فى حديث مع أحد اليونانيين المصرفيين. كانا قد تعارفا من قبل، فقد كان روبى يعطى دروسًا لابنته التى كانت القاهرة كلها تعرف أنها ابنة أحد أصحاب المصانع. فعلى أية حال الشيك بأجر الدروس كان يصدر من صاحب المصانع. كان معروفا أن المصرفى أيضًا يدير صندوقًا لجمع التبرعات يُدر عليه ربحًا كبيرًا. تكلم عن التمثيل المتوازن فى الحكومة، وكيف أن اليونانيين المصريين الذين قدموا تضحيات كبيرة فى قضية الحلفاء، كان من الواجب أن يتم إعطاؤهم وزارة واحدة على الأقل. ورشح عشيق زوجته. نادى روبى على الجرسون ليأخذ طبقه إلى طاولة أخرى. قال، "إذا أردتم صحيفة "المحارب" كى نفتح كشف حساب عن أموال صندوق التبرعات، تعال واجلس معي".

قال لشخص آخر كان يقود الدعاية لميتراكيس لمنصب رئيس الوزراء: "ربما لو كنا فى لابلاند (القطب الشمالي). لكن من حسن الحظ أن الغزلان قليلة فى اليونان؛ أما فيما يخص غزلان الرنّة، فعليك أن تفتش فى جغرافيتكم". لم يفهم الآخر. ظن أنه سكران فرفع كتفيه بامتعاض.

ذات ليلة سأل روبى بيرتون إذا كان يصدق ما يشاع عن حركة تروتسكية.

ـ قال الفرنسي وهو يدس أصابعه في شعره، زميلي العزيز، كيف يبدو أنك لم تنس هومير. في كل معركة تبحث لتجد خوذة أثينا المقدسة؛ شيء مثل قبعة ستالين في هذه الحالة. هو شخص بريء. الاحتجاج المسلح كان انفجارا فوضويا. أتعرف أنه لم يكن أحد ممن يترددون على ميتراكيس لديه أي فكرة؟ لا تخف... أعرف الشخصية اليونانية جيدًا. هذا هو أمر لا يمكن أن يدركه رئيسنا المُشعر.

ـ أتنسى عالم النساء يا زميلي العزيز.

ـ لم أنسَه، كان يراقبه من الجهة المقابلة بذكاء مغرور: مسحته من ذاكرتي كما مُحي من على رداء فرنسا بالنار.

ـ كلهم فارغون ونفعيون. طيلة الفترة التي لم ينشغل فيها روبي بالسياسة، كان يستمتع وهو ينظر إلى كل هذا العبث. طبيعته البشرية التي كانت تعمل على مستوى التعميم والتجريد كانت تحميه من قبح الحياة اليومية.

جاء تسوذروس واتخذت الأمور أبعاد المهزلة. يوميًا كانت هناك ثلاث وزارات تتشكل في الكواليس، واحدة في شبرد، أخرى في سان ـ جيمس، والثالثة في ناشيونال. المصممون كانوا حثالة الخيام الأثرية من الأثريين، بعض الساسة والمراسلين والجواسيس. بعد أن رجاه كثيرًا منح بيتر نصف ساعة لروبي كي يتحدثا. تقابلا في المساء في حديقة جروبي الشتوية.

- قال بيتر، إن تشرشل غاضب جدًا من كَانيلوبولوس لأنه تعجل بحماقة. الآن يتجه نحو ميتراكيس ليجد حلا. أتمنى أن يستطيع أن يعوض مافاته. فى اليونان سيتخذون تدابير مماثلة. سيدعمون زيرفوس إلى أقصى حد. وهذا بالطبع هو أسوأ ما فى الأمر. أشعر أننى أشاهد تراجيديا يونانية، أعرف المآسى التى يمر بها البطل، أعرف كم يعانى كى يغير من قدره وكلما حاول غرق أكثر. أود أن أصيح فيه "انتبه" لكن كونى مشاهدًا يمنعنى من هذا.

- أظن أنه ليس هناك مجال للتردد. لا بد أن نقول هذا لأصدقائنا.

- إلى من؟ ميتراكيس أم ميخاليس بن آريان؟

- هل تعرفت إليه؟

- روبي، انتبه. أحدثك بمسئولية. اغلق فمك وركز فى عملك الجامعي. وإلا سنتسبب فى مشاكل وخسائر. تشرشل قد اتخذ قرارته. سوف يفتت القوات اليونانية إذا ما حَكوا تحت أنفه. الكتائب اليوغسلافية أكدت تأييدها لتيتو وأغلقت الأسلاك.

- لكن هذا لا بد أن يعلم به أصدقاؤنا.

- أنا أمنعك، هل تسمع؟

- وهل هذا ما تسميه حرية! هل قامت الحرب من أجل أن يحكم العالم الـ.... من هم على شاكلة ميتراكيس.

- لا أعرف، قال بيتر بصراحة. قبل بضع سنوات كنت سأجيبك بثقة. الآن، كل الأمور ارتبكت.

- وأنا أيضًا قبل أيام كنت سأجيب بثقة الأصم الذى لم يفهم.

ضحك بيتر دون سبب: قال، سامحني. هل تعرف النكتة؟ اثنان من الصم يقولان فيما بينهما قصصا فاضحة. بعد ذلك ذهبا ليغسلا أيديهما. اليوم جاءنى الجنرال ويلسون ليحصل على معلومات؛ سوف يقابل تسوذروس. عندما غادر؛ وددت أن أغسل يديَ.

- لقد سبقك الطيار.

- روبي! ماذا بك؟ أين حس الدعابة لديك؟

- هل قابل ويلسون مدام ميتراكيس؟

- نعم... أى أنه صباح اليوم قد عرفتهما.

- يا لك من رومانسي. هل تعرف ما قاله ديفيدز؟ إن أقذر شيء فى الحياة هو السياسة.

- صحيح. حتى ولو أن ديفيدز هو من قال هذا. لكن هل تعنى أن دورا وديفيدز يعرف أحدهما الآخر قبل ذلك؟

- من اليونان يا غبي. فكر قليلا: من أرسلك إلى لبنان؟ ويلسون. أليس غيابك يأتى دومًا مناسبًا بالنسبة لدورا؟

- إنك تبالغ، لكنى أفهم فكرتك.

- ماذا سنفعل يا بيتر؟

- سننتظر. ذات مرة قلت أنه من المستحيل أن نكون جميعًا كورت ستيتلين.

- لكن لنحاول. هل ثمة ما يمنعنا؟

- هذا، قال بيتر وهو يشير نحو رأسه.

رغم ذلك فضل روبى أن يتبع قلبه. فور أن عاد إلى البيت كتب إلى "المحارب" رسالة قصيرة فضح فيها ميتراكيس. وقع باسم "بايرون" وإن كان الشاعر من القرن التاسع عشر الذى يصيبه بالاشمئزاز. لكن سليمان عاد وصرخ مجددًا على نابليون. أعطاه الخطاب ليسلمه إلى يد آريان أو إلى السيد ذى العلامة على جبهته وليس إلى أحد آخر. عاد الولد وقال إن المهمة تمت. روبى الذى كان يعتقد أنه نزع فتيل الانفجار، انسحب من خط النار وجلس ينتظر الانفجار. مرت ثلاثة أيام: لا شيء. أرسل له بيتر العدد الأخير من "المحارب" ليعطيه ملاحظاته. تصفحه بسرعة ورأى ثانية أنه: لا شيء.

ليلة ٢٣ مارس فى شبرد علم أن الحكومة التى أعيد تشكيلها حلفت اليمين. نجاح ساحق لدورا. شعر أنه لو فتح فمه سيصيح أو أنه سينخرط فى البكاء. دون أن يحيى أحدًا انسحب نحو باب الخروج. أين يذهب؟ إلى مانوس، إلى بيتر، أم إلى دورا؟ وما الفائدة. الآن كل شيء انتهى. أقذر

شيء فى الحياة هو السياسة. يستحق ما يحدث له. حتى لا ينحشر فيما لا يعنيه مرة أخرى.

عطور، خذ قدر ما تستطيع من العطور. يا حكيم زمانك.

ولكن كاد يختنق من شعور بالعزلة. لقد خدعوه. من، أين، متى؟ لا يهم. لقد خانوه. كان وحيدًا. غير قادرعلى أن يكون له أى تأثير على الأحداث. هو من كان يسيطر عليهم بنظرته السلمية عندما ذهبوا إلى البازار. لكن ما تبقى له هو العقل ومرارة الحلق. لم يكن يجب أن يترك شبرد. كان يجب أن يصعد على إحدى الطاولات ويلقنهم درسًا. يسرد الأحداث والأسماء. حتى ولو قاطعوه ولو أنزلوه. حتى ولو فعلوا به الـ...، هذا ما يبغيه! سوف يرجوهم بكل هذه الأسرار التى كشفها حتى يضطروا أن يعدموه بلا محاكمة.

لكنه لم يعد. توقف أمام حانة البوظة. دق على النافذة. فتحوا له. دخل. وقف فى الصف، دفع ثمن السلطانية الممتلئة، وجد ركنًا على أحد المقاعد وجلس. السائل كان سميكًا ولاذعًا وصعب الابتلاع. رفع عينيه. الحشد المعروف تبسم له بود. راح بعضهم يشجعه أن يجرب مرة أخرى بأن يشربه دفعة واحدة بلا توقف. مال وأدار لهم ظهره متجاهلا بحركة نسائية. فضحكوا. بعد قليل سمعهم يطلبون شيئًا آخر. رفع السلطانية وأفرغها باستعراض على الأرض. ضحكوا مرة أخرى، ولا شيء آخر. تجاهلوه.

نهض وخرج. سيذهب إلى بيتر. سيسبه، سيرجوه أن يضربه. لكنه يشعر أنه غير موجود، كيف لم يكن بهذه الأهمية. عند موقف التاكسى اختار

السيارة الأخيرة. أعطى للسائق عنوان بيتر. لكنهما لم يصلا وحدهما. على بعد عشرين خطوة توقفت سيارة جيب. الأمر مضحك فلم يكن المدخل هنا، بل كان سور الحديقة. دفع روبى للسائق وبدلا من أن يدخل البناية اتجه إلى الناحية المقابلة عند باب السفارة الكبيرة. ثم انحرف وهو يمر ملامسًا سياج الحديقة الحديدي، فى الظلام لم يكن هناك شيء غير نباتات الصبار. لا أحد. فقط صوت الحذاء العسكرى للحارس. استمر نحو النهر وفجأة عاد مرة أخرى ونظر. لا أحد. ربما تكون محض مصادفة.

سار بحذاء السور المنخفض ووصل إلى الدرج، نزل ببطء ووصل إلى حافة النجيل. كان النيل يتهادى أمامه واسعا وقويا ومليئا بالأصداف بدرجات ألوان برونزية إثر انعكاس ضوء القمر عليها الذى كان يسافر بعد أن تآكل ربع حجمه. رائحة طمى طيبة اختلطت بالليل وأصوات سائقى المراكب من جزيرة الروضة. نهض جسد من على النجيل ووقف أمامه.

- سعيدة يا خواجة روبي.

- نابليون! كيف أتيت إلى هنا هنا؟

- هكذا، أحب أن آتيَ إلى هنا أحيانًا.

جلس روبى على الحشائش واحتضن ركبتيه. تحرك الولد وجلس للأمام. وجلسا ينظران إلى النهر. مد روبى يده ولمس بحنان خلف رقبة الولد.

- هل طردك والدك ثانيةً؟

ـ هو مريض. الآن لا يغادر البيت أبدًا.

دخل عفريت فى جسد أبيه. من ليلة الذكر عندما سقط يونس. لم يعد يأكل ولا يعمل ولا يضرب. أحضروا الشيخ وقرأ عليه؛ أحضروا امرأة تفك التعاويذ؛ ذبحوا طائرًا وألقوه عليه كى يفزع وينهض، لا جدوى. كان يحرك يده قليلا ويقول لهم: اتركوني. انتهى العالم، انتهت الدنيا. ذهبت زوجته وأحضرت زوجته الأخرى من بولاق وهى شابة ناضرة. لم ينظر إليها. أشار لها بيده أن ترحل وقال. انتهت الدنيا.

ـ هل تأكدتم أنه ليست لديه حُمّى؟

ـ لديه مارد. أمى تعرف لمن يكون هذا العفريت، لكنها لا تقول. وأنا أعرف أيضًا لكن لن أقول لك. ليس ذنبها. فهى لم ترسله. هذه الأشياء تحدث من تلقاء نفسها.

مارد العشق. النهر، الأشجار، القمر، جسد الإنسان. الأشياء الأخرى، الطموح، ماكينات الخياطة، الخيانات، كلها أشباح. لكن الولد؟

حدثه الولد عن كيداهم. لقد رآها آخيرًا من النافذة الصغيرة الخلفية فى العربة. إنها صغيرة. صغيرة جدًا حتى إنها عندما رأته ينظر إليها لم تغضب. أخرجت له لسانها وضحكت. لسانها وردى مثل البونبون.

انحنى نحوهم رجل. لاحظ روبى على معصم يده شعار النبالة البرونزى المرصع بأسود الإمبراطورية، وسام ضابط صف السجون.

- قال له، هاللو سيرجينت.

- قم واقفًا يا وغد!

- قال روبى وهو يهب واقفًا، انتبه لكلماتك.

تلقَّى لكمة فى بطنه. وبينما كان ينحنى لكمه السيرجينت بركبته فى وجهه.

- صرخ روبى وهو يرجع للخلف، النجدة.

فإذا بالآخر يضربه خلف رقبته بحد كفه. سقط. بجواره كان نابليون يحمى نفسه بيديه ورجليه فى صمت. قطعوا له بنطلون بيجامته. رفعوه على أيديهم.

- ضعوهم بالسجن، قال السيرجنت من نافذة الزنزانة: هنا سيحدث العملي.

- ستواجه مشاكل كبيرة، قال له روبى بشفتيه المتورمتين.

- اخرس!

كانوا أربعة. كلهم من الحرس الأسكتلندي. لم يطلبوا حتى بطاقة الهوية. كانوا يعرفونه. أحضروا نابليون للداخل عاريًا تمامًا. كانت يداه مقيدتين بقطع من قماش بنطلونه.

- قال لهم، على الأقل لا تعذبوا هذا الطفل. ماذا تريدون؟

- الحقيقة. وتوقَّع على أقوالك. واقعة ارتكاب الفاحشة على أراضى الملك.

- أريد اللورد طومسون.

الآن راحوا يضربونه بالعصيّ على أكتافه وركبتيه وقفاه. لو كانوا ينفذون الأوامر سيتوقفون إذا وقّعت على أقوالي. لو كانوا يتصرفون من تلقاء أنفسهم فلا بد أنها ستكون النهاية، سيقتلونه ويخفونه. وإلا ستنتظرهم محاكمة عسكرية.

- أرسلوا إلى الكولونيل ديفيدز. سأوقّع أمامه.

يبدو أن هذا استوقفهم قليلا. نظر بعضهم إلى بعض. كان نابليون يجز على أسنانه حتى لا يبكي، لكن دموعه كانت تسيل. دخل السيرجنت إلى الغرفة المجاورة. سمع صوت "كليك" يبدو أنه رفع سماعة التليفون. بعدها أغلق الباب. بعد قليل خرج وكان غاضبًا. لا بد أنهم وبّخوه على فعلته. أمسك بالعصا مرة أخرى وضرب بطن روبي، كما لو كان مضربًا وكرة.

- قال روبى للآخرين الذين بدأوا الضرب من جديد، ارحموني.

- وقّع.

- مستحيل. سأهلك إذا فعلت.

ظلوا يضربونه ويركلونه حتى انهار وتكوم على أرض الزنزانة الإسمنتية. بعدها وجد نفسه فى سيارة تاكسي. ملابسه كانت لها رائحة الفينول وبجواره نابليون عاريًا يرتعش.

- قال الولد، وضعوا حافظتك فى جيبك مرة أخرى. لم يأخذوا منها شيئا.

(١٣)

إحدى جمعيات المهجر نظمت احتفالا بالعيد القومى فى إحدى دور السينما الصيفية. القاعة امتلأت باكرًا بالمدنيين والجنود والنساء والأطفال. الأصوات اختلطت بالضجيج الآتى من الشارع، أبواق السيارات وصرير المكابح وهدير القطارات التى كانت تمر فى الخارج. على الأسطح المجاورة تجمع الناس ليتابعوا الحدث. فى اللحظة الأخيرة وصل ناسوس وتسورذوس وجلسا فى المقاعد الأولى مع الحكومة الجديدة. كان هذا هو المشهد المبهر فى السهرة. الوجوه كانت لامعة، المسئولون كانوا فى الداخل والخارج، تصفيق وتهانى؛ صيحات النصر على أية حال. لكن حدثًا عارضًا جاء ليذكر بالعدو المرابض. المتحدث الرئيسى راح يقارن حروب عام ١٩٢١ بالنضال الحالي، واحتد وراح يهتف حتى خرب مكبر الصوت فراحوا يطالبونه من أسفل المنصة أن يعلو بصوته. رفع الخطيب صوته ومدد جسده حتى يصل صوته إلى مدى أبعد، لكنه بالكاد كان يصل إلى الصفوف الأولى، كان مجلس الوزراء معتدا بنفسه وبأدب شديد ينتظر الخطيب أن ينتهي. صرخ أحدهم من العمق "تقويض" فرد عليه آخر "هدوء". التفت

ونظرت. كان فى أحد الأركان يقف الضئيل التافه بنظارة سوداء يشرف على المراسم وكأنه خبير. انتهى الحفل وعندها تحرك شخص كان يبدو كهربائيًا. أصلحت مكبرات الصوت. صعد بيرتون على المنصة وتحدث عن أصدقاء اليونان، وحول الأمر إلى حفل تأبين لكوستيس بالاماس.

كنت حزينًا وأنا أشرع فى المغادرة وغير مستقر على قرار؛ هل نجحت الاحتفالية؟ هل تؤمن الحكومة الجديدة بأسباب ومتطلبات النضال والتى صاغها الخطيب فى نهاية الاحتفال؟ مر على السامعين مرور الكرام، ببساطة هم لم يكونوا منصتين. وهناك وسط هذا الجمع الذى انحشر عند باب الخروج لمحت عيناى وجها مألوفا. كان ينظر نحوى كى أنتبه. "أنت!"، قلت. غمز لى بعينه. أردت أن أقبّله وأعصره بين ذراعى محتضنًا إياه. لكنه أشار لى بأن نترك حفاوة الاستقبال لما بعد. كان غاريلاس.

. أتعرف مكان تجمع الطيور عند النيل؟ سنتقابل هناك بعد ساعة. استقل سيارة تاكسي. سينتظرك فانيس.

. متى عاد؟

. قبل ثلاث ساعات وصلنا.

. أخيرًا.

. إذن، اتفقنا. حسنًا، سأكون أنا أيضًا هناك.

أخيرًا! قلتها من أعماق قلبي. غاب فانيس لثلاثة أسابيع وكنت أشعر أننى أسبح فى مياه غريبة. ليس هكذا بالضبط، الأمر الآن أكثر تعقيدًا.

لابد أن أفكر فى الأمر وأحلله، لكن كلما شرعت فى هذا أجد نفسى أؤجل الأمر كما لو كنت أخاف من شيء. ربما كسل أو احتياج نفسى ألا أضع نفسى فى صراع مع مرشدي، تركت رغبة التافه تجرفنى وشيئًا فشيئًا صرت أنصاع له. من آن لآخر كنت أسمع صوت تمرد فى داخلي؛ لكننى لم أجرؤ أن أستمع له، ولا حتى أنحنى عليه لأسمعه. وبعد ذلك كان حضن أليجرا الدافئ الهائج كالأمواج؛ كنت دائمًا ألجأ إليه فكان يذهب بى إلى عوالم أخرى ويرفعنى نحو النجوم.

منذ اليوم الأول الذى بقيت فيه وحدى اشتبكت مع التافه الضئيل. لكن الوقت كان حساسًا، كان يجب على الفور أن يتراجع واحد منا. كان مستحيلا بالطبع أن يتراجع هو. قررت ألا أقول رأيى فى شيء، وأن أنفذ حرفيًا ما يطلب مني. أما النقد، آه، النقد سيحدث فيما بعد؛ النقد الأبدي... التافه الضئيل كان يعمل بشكل مختلف. هذا هو الخط، هنا الضوء. الخامات، يعنى الأحداث والناس، بالحالات الطارئة وغرابتها، كل شيء كان يجب أن يسير على هذا النهج. لو كانت هناك اعتراضات أو أنه أفسد أمرا ما كان يتخلى عنه. كل من كان يريد أن يقتنع بالخطة أو يعبر عن تردد كان طبقيا بالضرورة أو مريبا. كل خلل كان دائمًا خيانة. قريبًا ستحل قيادة فانيس ذات القوة الخفية "القبضة". وفى هذا سيسعد فوتيروس الذى وصل من الإسكندرية على رأس وفد من عمال الموانئ. التافه جعله معاونه على الفور. كان هو من أرسلني. سعدت برؤيته، وبدا هو متأثرًا بلقائنا مرة ثانية. دخلنا فى الأمور العملية، وعندها فهمت أن فى كل شيء كان رأيه مشكلا من قبل. لم يكن شيء يجعله يعدل عنه. "لا بد"، ولا شيء

آخر. بعيدًا عن هذا كان دافئًا على الدوام ورفيقا عاطفيا، رغم أنه لم يقل كلمة عن زوجته.

فجأة أثناء مقابلة مع أحد الأشخاص من قسم النشر، وجدت نفسى أقول : "لا بد". صارت عادة لدى فى أقل من أسبوعين ونصف أسبوع. بالطبع كانت أجواء الأزمة سببًا، الأعصاب قد بدأت فى الارتخاء قليلا تحت الضغوط اليومية: الإنجليز سيضربون، هل سينحنى تشرتشل؟ وها هو الحل قد أتى وانكشح الكابوس. طريقة القبضة لم تكن سيئة على الإطلاق. جاءت بنتيجة. بالطبع عند مغادرة الجنرال المفاجئة دون أى ترتيب ولا تفسير، كان يسميها التافه عصيانا، امتلأنا بشعور بغيض. رغم أن الشكوك بقيت عندي. هل هذا هو قدر المثقف اللعين؟ ربما. لكن لماذا أتوق إلى حضور فانيس؟ لماذا أحتاج إليه فى قول نعم أو لا ؟ هل أشتاق إلى شخصه؟ كما كان فى أورشليم، كان التافه يبنى ويسير، لكن ثمة شيئًا كان يجذبنى للخلف. لم أكن أتبعه دون قيود. إذن هو كره شخصي. ألم يكن هذا هو تشخيص فانيس؟

لكن لماذا أركب التاكسى وليس الترام؟ لماذا عند الطيور؟ لم تكن هذه أماكن اللقاء التى اعتدت عليها. هل الآن وبعد أن انفرجت الأزمة تتضاعف التحفظات؟ هل حدث شيء؟ وجه غاريلاس كان به شيء من التحفظ، شيء رسمى بينما كان يتحدث.

ركبت التاكسى من على جسر بولاق وعبرنا الجزيرة، ومن هناك إلى الضفة الغربية نحو الجيزة. لم يكن أحد خلفي. أمام الحديقة قلت للسائق

أن يتوقف. بقيَ طريق قصير. دفعت واتجهت شرقًا نحو فيلات على النهر. التاكسى أخذ طريق العودة نحو المدينة. كانت الليلة باردة. هناك طريق موازٍ للنهر يصعد يصطف به النخيل واللبخ وأشجار الجازية وأشجار الفلفل. فى الأمام كانت هناك عربة ترمس. علبة من الصفيح كانت تعمل كقنديل مرشوق فى جريدة يخرج منه دخان جريء وضوء ذهبى مع سخام أصفر. اشتريت قرطاسًا من الترمس كى أفعل شيئًا وأكملت السير. جاءتنى من داخل الحدائق على اليمين رائحة مُسكرة: زهر البرتقال. أليس الوقت قريبا كى تزهر؟ سوف أسأل آريان. وهكذا تذكرت أليجرا. لا بد أن أعتنى بأمر أن يكون لى مكان مستقل. لقد عاد زوجها من الإسكندرية لكنها لم تيأس؛ كانت بإشاراتها المتكررة تخبرنى بأنها تريدني، تريدنى جدًا، ولا بد أن أرتب لقاء. لا بد أن أقول إنها كانت رائعة معي، فلا يمكن أن أشتكي. رغم أننى كنت أشعر بشيء من الذنب، شيء أشبه بجرح اللاجدوى. هل كان بسبب الحرب أم أنه هو قدرى الذى يجعلنى أقع مع نساء لا تقاوم؟ ميشيل ونينا وأليجرا. وإيمي. آه، إيمي. توقفت ونظرت خلفي. لم يكن هناك أحد. رميت القرطاس. الآن أستطيع أن أذهب إلى موعدى هادئ البال.

وجدتهم جالسين على طاولة على حافة الماء. أى أنهم هم من رأونى وصفروا لى كى أنتبه لمكانهم. المقهى كان محشورًا داخل أشجار الصنوبر والأوكاليبتوس وتعريشات من اللبلاب والدافنى وشجيرات أشبه بالأعشاش؛ منها الصغيرة من أجل العشاق والكبيرة من أجل تجمعات الأصدقاء الكبيرة. الممرات كانت مفروشة بالحصى الصغير الذى يطقطق أثناء السير عليه. فى العمق كان هناك كوخ، هو المطبخ؛ من هناك كان يُسمع

صوت الجرسونات بالطلبات وصياح المدير وأصوات الأطباق والأكواب، رائحة حرق دهن الطيور فى الزيت. أشجار الأوكاليبتوس كانت تصدر رائحة زكية إثر سخونتها تحت الشمس طيلة اليوم. بين الحين والآخر فى الظلام كان يصعد صوت آهات وضحكات فنانة عربية تتسامر مع صُحبتها. كان ضحكها يجرى فوق سطح النهر؛ بوارج واسعة كانت تسير ببطء تحت ضوء القمر محملة بأجولة بذور القطن. بعيدًا على الضفة الأخرى كانت تبدو بعض النيران؛ لا بد أنهم بعض الحراس الذين أشعلوا نيرانا بالجريد كى يصنعوا الشاي.

ـ أنت من سيدفع الحساب لأننا كلنا مفلسون.

كانت أمامهم زجاجة بيرة كبيرة. المصباح داخل التعريشة كان يضيء وجه فانيس الذى كان يبتسم نحوي.

ـ سألني، ما الأخبار؟

هكذا كان يبدأ بأن يقيس عمق الأمور التى يحملها الآخر.

ـ الأخبار قالها لك غاريلاس. التجمع كان بلا طعم ولا معنى.

ـ كيف بدت لك الحكومة؟

ـ اللعنة، كنت أتوقعهم أكثر انفتاحًا، أهكذا يكون هذا أول اتصال بينهم وبين الشعب؟ لم ينطق منهم أحد؟ لم يشكروا أحدا أو يعطوا لأى أحد على أية حال أى إحساس بأنهم يقدرون الوضع والواقع.

.لكن عمومًا كيف بدت لك الحكومة؟

الآن غاريلاس هو من سأل. لقد طلبونى كى يسمعوا رأيي.

. بعد مغادرة الجنرال غير المفهومة، أظن أنه ليس ثمة حل أفضل من هذا.

. بـ ميتراكيس؟

خطوات. كان الجرسون. أخذ الطلبية ثم غادر.

. قلت، انتظروا. روسوس، فنيزيلوس، ميتراكيس، كارابانايوتيس، سوفوليس. خمسة أسماء، رأيتها مكتوبة. عندما ضيق تسورذوس على الوفود كى يضعوا أسماء. ذهب عمال الموانئ، وخلال الحديث لا بد أنهم قد تركوا هذه الأسماء تُطرح. وهكذا حدث.

.لقد أوقعنا فوتيروس فى الفخ، قال فانيس.

. قال غاريلاس. أعطينا بأيدينا أهم الوزارات إلى الاستخبارات.

. قاطعتهم، من فضلكم. فوتيروس لم يكن يفعل شيئًا من رأسه. كان التافه هو من يوجهه.

سقطت الزجاجة على الحصى. لحسن الحظ كانت فارغة. أسقطتها يد فانيس.

. قال لي، يا رفيق. أستاء عندما أسمعك تقول هذا.

ـ لكنه يقولها تدليلا، قال غاريلاس دون ثقة فيما يقول. وأنت يا مانوس، اسمع. لا تعرف الأمور جيدًا. فوتيروس أثناء اضطرابه ذكر اسم ميتراكيس؛ ومن حينها انتهى الأمر. لم يتبق أى وفود عن جهات أخرى كى يصححوا الخطأ. كل الوفود من الأسلحة الثلاثة الأخرى كانت لديهم أوامر ألا يتدخلوا فى شأن الأسماء.

ـ حسن، هذه أمور معروفة، قلت. لكن كان لديّ انطباع بأن فوتيروس كان ينفذ قرارا ما. أقول لكم لقد رأيت الورقة قبل أن تذهب إلى تسوذوروس.

ـ لم نقرر نحن لأى أحد، قال فانيس. فقد تركنا الجنرال، عند الحاجة كان بإمكاننا فقط أن نقبل الآخرين فى صمت. لكن ميتراكيس أبدًا.

ـ إن فوتيروس يتم توجيهه من ... حسنًا، لم أقلها ! كان يثق فيه ثقة عمياء، منذ أيام إسبانيا. لو أن هناك مسئولية على ميتراكيس، فليتحملها آخرون.

ـ قال فانيس، أنت تقول كلاما بلا معنى. هل كان يعرف أن ميتراكيس يعمل مع الاستخبارات. كنا نعرفه نحن. قال لنا الجنرال هذا الأمر. الخطأ الذى أتحمله هو أننى كتمت الأمر كأنه سر. لو كنت تعرفه أنت هل كنت ستوقف عمال الموانئ عندما رأيت الورقة.

فكرت. ابتلعت ريقى الجاف. المغنية العربية راحت تطلق العنان لصوتها بـ "الأمانات". حشد العمال على الباخرة فى النيل علت أصواتهم.

قلت، لا أعرف. لكن الحقيقة هى أننى لا أعرف ماذا كنت سأفعل. أولا، لأننى اعتقدت أن الورقة كانت تأتى من جهات عليا حتى الآن... لكن أن تقفز المجاملات. ثانيًا، لأن العصبية قد وصلت لذروتها، وكان لا بد أن يُوضع حد. ثالثًا، لأنه منذ عشرين يومًا لم أقل رأيي، وعندما طُلب منى كنت أعرف أنه غير ذى أهمية بالنسبة لهم.

. قال فانيس، عدنا إلى نفس النغمة. ما قلته أخيرًا يؤكد مسئوليتك فيما حدث.

. لديّ مسئولية، أعترف. الآن أفكر فى أننى لم أذهب عندما أرسل إلى ريتشاردز. نعم، حتى لا أسمع ثرثرة أخرى... نعم، لم أذكر الأمر. ربما كان لديه ما يقوله؟ لا أدري. فى هذه اللحظة ذهب عقلى إلى شيء آخر، إلى علاقاته الشخصية. كتب ميخاليس أن الرائد بيتر كان معكم فى الكتيبة. ماذا كان ريتشاردز سيقول لي. هكذا فكرت. كان هذا خطأ مني. بالتأكيد عندما رحل الجنرال كان يجب عليّ أن أذهب إليه بحثًا عمّا يعرفه من معلومات.

خطوات. وصل الجرسون بالبيرة ومعه صبى يحمل صينية كبيرة. طيور مشوية على الفحم، سلاطة طحينة، طماطم مع الجرجير، بطاطس مقلية، طرشى الخيار، فطائر محمصة، كل خيرات الرب. وكان الهواء منعشًا مع ضوء القمر ورائحة الأوكاليبتوس وصوت مياه النيل وغناء المغنية العربية وصوت طيور الليل تزقزق فوقنا. هجمنا على الطعام. ملأ غاريلاس الأكواب. "فيفا". كان لا يزال هذا الـ ميتراكيس عالقًا فى حلوقنا.

لكن التوتر قد انتهى. كان الأمر جديرا بالاحتفال. كانت خطوة. تعلمنا أشياء كثيرة.

. قال فانيس، هناك أيام صعبة فى انتظارنا. المقاومة كسبت معركة بميتراكيس. لكننا خرجنا منها أكثر قوة. أقوى درس تعلمناه هو؛ أنه من المستحيل أن تبدأ نضالا مسلحًا وتتوقف فى منتصف الطريق. لا بد أن تكمل الأمر بمطالب سياسية. وإلا يظهر لك شخص حاذق ويسرق نضالك. إن ماقمنا به تحول فى النهاية إلى انقلاب أعطى السلطة إلى الفينزويليين والاستخبارات. كنا سُذجا عندما ظننا أنه عندما نسيطر على الفاشيين تنتهى مهمتنا بذلك. علينا أن نضع هذا صوب أعيننا من الآن فصاعدًا.

. قلت، كان علينا أن نبرز الجنرال.

. هذا ما كان ينتظره الإنجليز حتى يصير صيدًا سهلا ويتهمونه بأنه المحرض على التمرد المسلح. كان تخطيطنا صحيحًا، المطالب السياسية كان لا بد أن يطالب الشعب بها. لكن أين الشعب؟ لقد منعوا الوفود من معسكرات اللاجئين من الحضور.

. قلت، الجاليات.

. كى نضع قروشًا أخرى فى رقبتنا؟

. أنا أحدثك عن البسطاء، عامة الشعب.

. تفضل، ها هى مهمة عمل أخرى لا بد منها.

ـ قلت له، هل تسمح لى بملاحظة شخصية. لماذا لا تسكن فى القاهرة؟ هنا "مكة"، المركز، من هنا ستُحل جميع الأمور.

ـ ذهبت بقرار؛ فى الكتائب كانت نقطة الضعف. لو خرج الوضع من أيدينا سيدمر الإنجليز الجيش. هذا إذا لم يرجمونا بالقنابل، كما قلنا.

ـ أنت لم تكن هناك لترى، قال غاريلاس. تصرف الأولاد ببراعة. لكن من بدون فانيس لا أدرى إذا كنا سنتجنب العواقب الوخيمة.

ـ الآن يا فاسيليس بدأت أنت فى الحماقات. صب لنا البيرة كى تنزل المرارة من حلوقنا.

هل رأيت كيف نقص وزنه، قال لى غاريلاس عندما ذهب فانيس يغسل الدهن من يديه. "سيعود ويطلب سيجارة. لم يهدأ فى العشرين يوما التى مضت. لقد كلفه أمر ميتراكيس الكثير". تحدث معه حتى لا يُصيبه الحزن بشيء. إن وجوده قيم. بهدوء شديد وحد صف الجيش، جنود وضباط فى جسد واحد. كنا نقول نحن إنه بلا جلبة لا يمكن أن تحدث تعبئة، لكن فانيس يا صديقى بلسانه الدافئ وكلامه الـ...

ـ يا لعادتك الأبدية يا غاريلاس. دائمًا يجب أن تجد شخصا تعجب به. قبل عام كان الضئيل التافه.

ـ أنت تبالغ يا سيميونيذيس. أنت لا تذكر جيدًا ما كنت أقوله. كل شخص له محاسنه.

عاد فانيس غارقًا فى التفكير. لم يجلس، طلب منى سيجارة. أمسكت بعود الكبريت مشتعلا فى يدى حتى أتفحص ملامح وجهه. نظر كل منا للآخر. جلد وجهه امتلأ بالتجاعيد، تحت عينيه خطوط زرقاء. إنه ينهار.

ـ قال، أنا سأذهب، مع السلامة. لديَ شيء أقوم به قريبا من هنا.

ـ قلت له، خذ فاسيليس معك لو لم أكن أنا مناسبًا لصحبتك.

ـ أنت أكثر من مناسب، لكنى لست فى حاجة لصحبة. سنتقابل غدًا. هل تتذكر الموعد؟

ـ لديه ميعاد مع الصديق الذى كنا نحكى عنه، قال غاريلاس بعد قليل. لم يكن لديهم الوقت كى يتحدثوا فى كل الأمور. أراهن أنه سوف يسأله عن ورقة فوتيروس.

ـ إذن فأنت أيضًا...

ـ اهدأ، لا تتعجل. هل تعلم أنك لم تسألنى عن أخبار الطبيبة؟

ـ فعلا، كيف حال نينا؟

ـ أرسلت لك التحيات. وتخبرك بأنها فور أن تلقت التليغراف أرسلت إليك الطبيب الذى طلبته.

ـ فور أن... هراء. لقد جاء بعد ما يزيد على ستة أيام.

ـ لقد وضعته نينا فى القطار صباح الجمعة. وصل تليغراف فانيس إلى يورغى ورسالة أخرى إلى المحليين من الأصدقاء فى المعهد.

- إذن ما الذى أخَره؟ لقد رأيت بعينيّ ساريذى الذى أحضره بالعربة يوم الثلاثاء.

- هنا يكمن السر. هل تريد أن أخبرك؟ جاء الصديق، تحدث مع ريجو، رجع إلى أورشليم ثم عاد مرة أخرى. لماذا؟ كى لا يعطى حسابًا لأحد، عمّا تحدثا وماذا اتفقا.

- هذا أمر رهيب.

- لا، ليس لهذا الحد. هو أمر أحمق ربما. لو أن ريجو لم يكن ريجو الذى نعرفه، لقلنا إن هناك أمرًا مريبًا.

- ريجو جيد وجدير بمكانته، لكنه يمرر من فوق رؤوسنا.... وما رأيُ فانيس فى هذا؟

- يحاول ألا يصدق الأمر. تعرف كم يكره الثرثرة والنميمة. لكنه تأثر فى أعماقه. ألا ترى كيف صار أشلاء، كلنا صرنا... دعك من هذا، اللعنة. ليست لدى أحد منا أوامر كى يكون هنا. لكن عندما يأتى شخص مثل ريجو ويقول: هذا وليس الآخر...

- وهذا يأتيك بـ ميتراكيس...

- إيه، تمهل ولا تبالغ. بطريقة تفكيرك هذه ستقول بعد قليل إن ميتراكيس جاء بأمر من ستالين. هل يوزع من أملاك أبيه؟

- لم يصل الأمر إلى هذا الحد يا فاسيليس. لكن أقول إنه فى وجود ريجو كحماية بسرية المتآمر التى لدينا، يغوص الضئيل ويخوض بلا أخلاقيات، وفوق هذا يجب علينا أن نهنئه.

- هل رأيت الورقة فى يد فوتيروس وبها الخمسة أسماء؟ قبل أن يذهبوا إلى تسونوروس؟

- قلت لك. من قبل، من قبل، من قبل.

- حسنًا، لا تصرخ. لديّ فضول كى أعرف ماذا سيقول لفانيس.

- سيقول له إننى أكذب، وأن أمر الورقة هو من خيالي.

- سنسأل فوتيروس.

- سيقول لكم ما يلقنه إياه الضئيل الذى يصدقه كأنه إله.

- إذن فموقفك صعب، أنت تفهم؟

- صعوبة الهراء. لن نواجه محكمة مدنية. سيعطلنا أمر الحصول على الأدلة المادية؟ لكننا لدينا العقل لنصل لجوهر الموضوع.

- الخلاصة ستكون أنك تشهّر بعضو أعلى من أجل خلافات شخصية.

- هل تخيفنى يا فاسيليس؟

كاد يقول شيئًا لكنه توقف. بعد قليل.

ـ اللعنة على الساعة. هكذا تؤول الأمور عندما تكون هناك خلافات بين الرفاق. لا تعرف من تصدق. لا تستطيع أن تقول رأيك بوضوح وعلى الملأ، فسوف يعتقدون أنك تحاول أن تغطى على أحد. دعنا لا نستمر فى هذا. هذا الأمر ستحله فقط لجنة تحقيق.

ـ قلت له، متفقون، هل نذهب نحن أيضًا؟

ـ كنت أفهم أنه يريد أن يبقى، لكن المنظر الذى كان يستمتع به كان يضايقني. جاءت مركب ململمة الشراع وتوقفت أمام المطعم. كان عليها أربعة أو خمسة من البدو وبعض المحليين. كانت معهم دربوكة يدقون عليها بين الحين والآخر، كان يغنون مقطوعة ثم يصمتون. كانت هناك نارجيلة عليها فحم تذهب من فم إلى آخر. لا بد أنهم كانوا مجموعة من الحمالين أو سائقى الحنطور قد استأجروا الباخرة كى يدخنوا الحشيش. وهنا بدأت آهات آمانات المغنية ثانيةً، دقوا لها الدرابوكة. أصوات من المركب مع تصفيق. نزلت مهرولة المغنية على ضفة النهر وهى تدوس بحذر متنقلة على الحجارة. توقفت، مدت ذراعيها الممتلئين ب«غوايش» ذهبية وكريستالية وفجأة هزت فخذها إلى الجانب فراح رأسها إلى الناحية العكسية فبدا كأنه مفكوك. "يا قمر" صاحوا بإعجاب من المركب. أعطتها الدرابوكة الإيقاع : كان الدق طويلا ومرتعشًا تلاه آخر قصير ومقتضب. وصلت صحبتها إليها. واحد يمسك بزجاجة والآخر بكوب وآخر يصفق بجنون. كانت صحبة أنيقة يرتدون الطرابيش بزر من خيوط الحرير والياقات العالية. كانوا يبدون مثل المحامين أو من كبار الموظفين. أحدهم نزع الكرافتة وأعطاها إلى الفنانة التى

ربطتها بقوة حول حوضها. غيرت الدرابوكة الإيقاع إلى إيقاع بطيء كالذى كان فى البداية فى المركب. صنع الآخرون دائرة ورفعوا الأكواب فى نخب المرأة: نظروا فى ضوء القمر كم تبقّى من المشروب ثم شربوا. راح جسدها يتموج مثل ثعبان كهربائى من قدمها حتى رأسها؛ بينما كان الارتعاش ينزل من رأسها توقف عند أردافها التى راحت تهتز كالفرسة، ثم توقفت بميل. "يا قمر!" صاح الرجال. كان غاريلاس ينظر بعينين جاحظتين، لا بد أنه فى حاجة إلى امرأة.

- قلت له، هيا نذهب إلى المطبخ لندفع الحساب. فلن يسمعنا الجرسون بكل هذا الضجيج.

- قال متنهدًا، من الأفضل أن نذهب. حقيقة، كيف تسير أمورك فيما يخص موضوع النساء؟

لم يكن لديّ سبب كى أخفى عليه وحدثته عن أليجرا.

- قال وهو ينظر إلى الفنانة، أنا سعيد، سعيد جدًا من أجلك.

غسلنا أيدينا، وجدنا الجرسون ودفع الحساب، أخرجت سيجارة وأشعلتها. ذهبنا من الممرات ونحن نجعل الحصى يدق عاليًا تحت أقدامنا كلما رأينا أعشاشا مظلمة.

- هل علمت أن صديقتك النمساوية أنجبت ولدا؟

قال هذا عن إيمى بينما وجدنا أمامنا إصيصا كبيرا من الصبار قطع علينا الطريق. قلت فى نفسى "هذا الإصيص لن أنساه أبدًا".

- كيف علمت؟

- من الطبيبة. هى من ولَّدتها. لماذا لا تسأل لمن يكون الولد؟

- فاسيلي، كف. لا أريد ان أعرف.

تنهد الرافيق بجوارى ونظر بصبر نحو السماء. أنا كنت أنظر إلى الأرض. صعدنا الدرج الحجرى وسلكنا ممر أشجار النخيل الذى يذهب نحو الميدان أمام كوبرى الجيزة. كنا لا نزال فى الظلام عندما أمسك غاريلاس بذراعى وتوقف.

- انظر إلى الجهة المقابلة تحت الشجرة الكبيرة على اليسار.

كانت سيارة "جيب". لا، كانت سيارة جيب خاصة بالمراقبة. كان الإنجليز يغطونها بقماش كاكى للتمويه. لكننا كنا نعرف أنه فى الخلف كان هناك ثقب من الجلد يمر من خلاله عامود الإشارات. دون أن نقول كلمة عدنا للخلف. سلكنا نفس ممر النخيل بخطوات بطيئة وتظاهرنا بأننا نتحدث، لكننا كنا نحرص على درجة صوتنا حتى لا يفهم بأى لغة نتكلم. لا أحد. وصلنا إلى أعلى وانحرفنا نحو اليمين عند بعض البيوت القديمة ووقعنا فى أحياء الجيزة الشعبية.

- قال غاريلاس، أتمنى أن يكون فانيس قد انتبه لهم.

- كانوا ينتظروننا نحن؟

- يبدو لى مستحيلا هذا الأمر. هل انتبهت جيدًا فى طريق قدومك؟

استيقظت فى الصباح . آريان هزتنى برفق من كتفى حتى لا أفزع. أشارت لى برأسها أن أخرج من الغرفة. فى الفراش المجاور كان ستماتيس ينام بعمق.

. قالت آريان: غاريلاس أرسل يقول لك إن الضوضاء قد بدأت. انتظر نيكوس خارج المدرسة، تحدث معه وأرسله إليَ. يقول إنه ينتظرك فى مقهى كاريوتيس، لكن توخَ الحذر. لا بد أن تدخل من عند الخياط، قال إنك تعرف.

فهمت. دكان ألبان كاريوتيس، وليس المقهى، كان مكانا مفتوحا فى أحد الشوارع المركزية بلا أبواب. لكن كان هناك حاجز حديدى فى العمق يخفى المقاعد والدواليب والمبرد. كنا ننزع نافذة حتى ندخل إلى هناك عندما كنا لا نرغب أن يرانا أحد. من النافذة كنا نصل بعد أن نقطع فناءً مليئا بالحديد القديم من خلال ممر طويل كنا نصل إلى العمارة المجاورة التى بها الخياط، نتصنع أننا ذاهبون للتبول، ثم ننزل من على سلم الطوارئ ونخرج إلى الفناء.

وضعوا طاولة وكرسيًا لغاريلاس خلف الحاجز الحديدي، وكان يأكل أرزا باللبن. هناك وجدته. أحضر كاريوتيس كرسيًا آخر. طلبت حليبًا وقهوة، فلم يكن لدى وقت كى أتناول فطوري.

. لم تكن لسهرة البيرة بالأمس نهاية طيبة يا سيميونيذيس. بدأ الإنجليز فى الهجوم. فانيس الغ موعدك. نضبط أمورنا أولا وسوف نرى.

- الجيب؟

- هناك ثلاث أو أربع. فى البداية شعر بهم الصديق الذى تحبه. كانوا يتبعونه من التجمع فى السينما. عندما فهم دخل إلى حديقة الأزبكية. وهناك حصر عددهم: ثلاث سيارات جيب عند الثلاثة مداخل. تسلق السياج الحديدى الذى يطل على الحى ببيوت الدعارة وقفز من فوقه. استقل سيارة تاكسيًا، وبعد قليل غيره واستقل آخر. وهكذا ذهب إلى موعده. بعدها بقليل قال لفانيس أن يغادروا. لم يجدوا سيارة تاكسيًا واستقلوا الترام. وهم يعبرون الميدان رأوا سيارة "جيب" لنا تحت الأشجار. يقول فانيس إنها جاءت خلفك من التجمع. رغم أنه وهو يخرج من عند مكان تجمع الطيور تفحص المكان إذا ما كانت هناك أى حركة مريبة ولم يلحظ أى شيء.

- على كلٍ، فانيس بات ليلته فى مكان آخر. وأنا أيضًا، مصادفة. عند إحداهن. كما تفهم، بعد ليلة الأمس وتلك الراقصة الملعونة... حسنًا يا صديقي. منذ الصباح الباكر والتحقيقات فى كل مكان. ماذا عنك؟

- لا شيء.

- جميل. لا تعبس هكذا. قلت: عظيم. أعنى لحسن الحظ.

- وهل قاموا بالتحقيق مع الضئيل التافه؟

- حققوا مع أحد القدامى من السنة الماضية. الجديد لا يعرفه أحد. المطلوب الآن هو أن نخرج بعض الأشياء من هنا. كنا نحفظها فى بيت لكن اصحابه أصابهم الرعب وأحضروها إلى كاريوتيس. وهو يضغط عليّ أن آخذها.

فى حقائب من القماش السميك كانت هناك آلة نسخ، آلة كتابة وجهاز إرسال ألمانى معطل من غنائم العلمين. هذا يجب أن نتخلص منه والأشياء الأخرى لا بد أن ننقذها بأى وسيلة. لكن أين؟ هل أذهب بها إلى أليجرا؟ جرأة مبالغة. لا بد أن أسأل آريان. كاريوتيس أعطانا مهلة حتى الظهيرة، وإلا سيلقيه فى فناء الحديد القديم، وليحدث ما يحدث.

ـ حسنًا، سأتولى أنا أمرها، قلت لغاريلاس. سأجد حلا. من سيغادر أولا؟

ـ ارحل أنت. وإذا استطعت بَدِّل محل إقامتك، ما رأيك؟ لكن أظن أنه من الأفضل أن تبقى حيث أنت. لم يضايقوا ضابطًا حتى الآن. لو تُهت منهم سيبدأون فى الشك.

رتبنا موعدًا مسائيًا غدًا ونهاريًا لبعد غد. قفزت من النافذة وخرجت من الأزقة الضيقة. ذهبت مباشرة إلى آريان. فور أن حدثتها استبعدت أليجرا.

ـ هذه أمور مقدسة لا تدنسها بالفحش فتجلب لك النحس. أرشدنى عن مكان كاريوتى وسأتصرف أنا. لن يجدها ولا الجن الأزرق. لم تقل لى هل هى ثقيلة؛ أى سأحتاج إلى عربة؟

ـ تستطيعين حملها، لكن ستُجرَح يديك. هذا يتوقف على بعد المكان الذى ستذهبين بها إليه.

- لا يشغلك هذا. ما دمت أستطيع حملها. وإذا احتجتموها سوف تأخذونها.

ارتدت حذاءها، ربطت على رأسها وشاحا ونزلت. تمددت ثانية حتى ألملم أفكارى قليلا. أردت أن أفكر فى ترتيب الأمور الغريبة التى بدأت تحدث لنا فجأة. كان ستماتيس قد غادر فى هذه الأثناء.

(١٤)

الحقائب قد جرحت يديها ولم يكن لديها صبر أن تحكى شيئا.

. قالت بعد أن أزاحتها بكوعها. افسحى لى يا حمقاء. أى شيطان يركبك؟

كانت المرأة تجلس على العتبة متكومة، وقد وضعت رأسها وسط ذراعيها المعقودتين. عرفت آريان من حذائها، فهبت واقفة كما لو أنها رأت عقربًا. ثم خفضت رأسها فى طاعة لكنها لم تتزحزح من على البسطة. قالت لهم شيئا، كان على آريان أن تفهمه. لم تظهر المرأة الآن لأيام كى تقوم بالغسيل ولا لشراء الأغراض، والصبى قد اختفى هو الآخر. مشاكل اليونانيين لم تدع لها مجالا كى تفكر أن تسأل نيكوس أو سلطم. لكن الأعمى قد اختفى أيضًا. ما الذى حدث لهما فجأة؟

. افتحى النافذة يا غبية.

لم يكن الظلام فقط، ولكن رائحة الهواء المكتوم فى البدروم. لم تطأ قدمها منذ زمن بيتًا عربيًا. دفعت المرأة النافذة بكف يدها. صدر صوت

صرير من النافذة. فى الركن على الحصيرة كان يونس قد استلقى ولف ظهره.

.لمَ لم تقولى لى إنه نائم؟

أخذت المرأة الحقائب من يدها ووضعتها على الأرض وقرفصت بجوارها. فمها مغلق تمامًا.

. هل هو مريض؟

لمعت عيناه ثم اغرورقت. ولم تنطق بكلمة. أمسكت آريان يونس من كتفه وقلبته. كان نائمًا. لحيته طالت وقد غار خداه. أمسكت بجبهته. نزلت بركبتيها على الحصيرة ولمست جبهته بخدها. إنه بارد. لكن أنفاسه لها رائحة كريهة، لا بد أنها من الجوع. همت المرأة ووقفت فوقها مثل طائر أسود.

. لماذا لم تأتِ لتطلبى منى بعضًا من اللحم؟

حرّكت هى يديها بتململ. كما لو أنها أرادت أن تقول: وماذا أفعل به؟

. هل لم يأكل شيئًا من يومها، سألت آريان بصوت مختنق.

. من يوم الذكر.

لماذا؟

. الدنيا انتهت. هكذا يقول. لا يريد شيئا.

نهضت آريان وبحثت على الأرفف فوجدت فقط خبزا جافا.

. قالت لها، انتبهى لهذه الأشياء حتى أعود. لا تتحركى من هنا.

تجمعت النسوة فى الزقاق خارج المنزل وكن صامتات. فور أن رأوها عرّين وجوههن واقترين كما لو كن يحملن الموت. تعرفت إلى أم فلفل: أمسكتها من يدها وجذبتها معها. تحركت معها فى طوع، وراح خلخالها يرن فى أقدامها الحافية. كن يقفن بعيدًا. بعد قليل اقتربت نساء أخريات على مضض.

. يا أم ميخاليس، دعك منه. لن تستطيعى فعل شيء. إن يونس قد ركبه عفريت، قالت إحداهن.

. عفريت يأتى ويأكلكن يا مجنونات. الرجل جائع، ألا تفهمن؟

. نظرن إليها كما لو أنها دخلت إلى الجامع بأقدام متسخة بالطين. أمسكت إحدى العجائز يدها.

. قالت: يا أختي. إن لديك زوجا وأولادا. لا تتدخلي.

حينئذ قاطعت آريان. كانت طيلة الوقت تفكر أنه ليس لديها فى البيت سوى فاصوليا مسلوقة. هل تحضر له اللبن؟ الأفضل من اللبن هو حساء الكوارع. يشرب هذا الحساء فيدفأ ويتعافى فى الحال. لكن هل بائع الكوارع فتح دكانه الآن؟ إن الوقت ما زال باكرًا. كانت تحمل فى صدرها ورقة نقدية بقيمة شلن مطوية على أربع من أجل العربة التى لم تحتجها فى

النهاية. وضعت الشلن فى يد أم فلفل وقالت لها أن تذهب وتحضر الكوارع بسرعة. فى نفس الوقت ستذهب هى لتحضر الخبز والدواء وأى شيء آخر إذا وجدت. سلكت طريقها دون أن تستمع إلى ما يقلنه خلفها. على الدرج لحقها نابليون.

. أين كنت أنت، ولمَ لم تأتِ لتخبرني؟

نظر إليها الولد فاغر الفم. كان يرتدى بيجامة جديدة، وقد شمر بنطاله حتى ركبتيه. صعد معها.

. وهل تصدق أنت ما يقولونه عن أبيك؟

. يا أم ميخاليس، هناك أحد أمر العفريت أن يدخل إلى جسد أبي.

. هل هو أبيض أم أسود؟

. أنثى، قال نابليون.

التفتت ونظرت إليه فى عينيه. كانت تعرف، وأمه كانت تعرف، والنساء فى الحارة كن يعرفن. الآن؟ جاء مانوس ليسألها ماذا حدث بالأشياء.

. اصبر قليلا يا بني. لن يأخذها أحد.

بعد ذلك ندمت لأنها لم تحدثه بلطف. ذهبت إلى الحجرة وقالت له بطريقة أخرى ألا يقلق. "عندما تتولى آريان أمرا تنجزه" . أعدت المائدة، لقنته ماذا سيقول لذيونيسيس إذا سأل عنها، وأين سيجدون الطعام عندما يعود الولد من المدرسة. من دولاب المطبخ أخذت زجاجة من العرق. قطعت

خبزا، أخذت جرة الزيتون الأخضر المملح، ذهبت بهدوء ودون أن تُحدث صوتًا إلى غرفة النوم وأحضرت القنديل وأطفأته، أخذت قرنفلا جافا من عند لوحة الأيقونات، رسمت على صدرها علامة الصليب وهى تنظر لأعلى إلى الأكاليل فى الحقيبة ثم خرجت. وضعتها كلها فى حوض رصاصى مع شمعة وأعواد ثقاب وأعطتها إلى نابليون. أخذها الصبى وانطلق أمام آريان. فى الحارة بدا وكأن الحوض يطرد الناس. النساء العربيات كن ينهضن من على العتبات ودون أن يتعجلن كن يدخلن إلى بيوتهن. خارج البدروم لم يكن أحد. دخلوا. المريض كان يجلس عاقدًا ساقيه على الحصيرة، وعلى كتفه شال قطنى ويحاول أن ينهض. لكن لم تكن لديه القوة فأحنى رأسه وجسده.

- لقد دخل النور إلى بيتي. قال لاهثًا وهو ينظر إلى الأرض.

بجواره كانت سلطانية الكوارع يتصاعد منها البخار. أشارت لها المرأة أنه لم يضع شيئًا فى فمه. جلست آريان على الحصيرة وعقدت ساقيها بعد أن شدت ثيابها كى تغطى ركبتيها. قالت لنابليون أن يحضر لها الحوض. أفرغته من محتوياته ثم وضعت فيه القنديل وأشعلت الفتيل. بعد ذلك نزعت دبوسا من ضفيرتها، فردته، وضعت فى طرفه القرنفل الجاف وأشعلته من الفتيل. رسمت الصليب على يونس وتفوهت باسم دون أن تُسمع. المرأة غطت فمها بكفها وبالكف الآخر غطت فم الصبي. تجمدوا فى أماكنهم. احمرّ القرنفل. أطفأته آريان فى الماء، أخرجت الدبوس وألقته فى الحوض. أشعلت آخر ثم آخر. "تش، تش!" كلما أطفأته فى الماء. الرابع انفجر أثناء اشتعاله وأصدر صوتًا مثل دوى الرصاص. تمتمت بأشياء خفية. قالت فى

داخلها. "أنا من حسدت الرجل".. أشعلت قرنفلة أخرى، لكن كانت تعرف أنها تشعلها دون جدوى. رفع هو رأسه وراح ينظر. مسكين يا يونس. وضعت أصابعها فى الماء ورشت عليه. ضحك هو وبكف يده راح يمسد فوق حاجبيه وشواربه الماء المزيت. أعطته الحوض وقالت له أن يشرب رشفة، ورشفة أخرى. بعد ذلك أخذت السلطانية وأعطته إياها. راح هو ينظر إلى الخبز الأبيض. قطعت له قطعة ووضعتها فى يده. وضعها فى الحساء، فتح فمه وأكلها. رفع السلطانية وراح يشرب منها. المرأة راحت تربت على ظهر ابنها العاري، بينما كانت شفتاها ترتعشان.

- قالت له آريان، كُل زيتونًا حتى تُفتح شهيتك.

أمسك يونس بأصابعه عظمة وراح يمصمصها. ألقت آريان قليلا من العرق فى زجاجة القنديل وخففت الماء والزيت فى الإناء. فشربه أيضًا. هجم على الخبز واللحم والتهمه. "تمهل"، قالت له آريان، "سيحدث لك شيء فأنت صائم عن الطعام منذ أيام". توقف يونس كأنه تذكر شيئًا ثم تجشأ بقوة.

- الله أكبر، قالت المرأة. سيكافئك الله يا أم ميخاليس.

تجشّأ مرة أخرى.

خرجت من البدروم سعيدة. بجواره كان نابليون يحمل الحوض. الدعوات بالخير من النسوة العربيات كانت تحوم حولها أثناء مرورها. قالت فى نفسها "يا ويلي، يا ربي، أهكذا كان يشعر المسيح عند قيامته".

كم سيكون رائعًا أن تطرد مآسى وعذابات الناس بحرق القرنفل... لكن كيف عرفن وخرجن على العتبات؟ لا بد أن هذا قد حدث عندما أخرجت آريان المرأة والصبى كى تتكلم مع يونس. من النافذة للأبواب انتشر الخبر.

قال لها "لا عليك، أعرف أين سأخبئه". كانت آريان أيضًا تعرف ولكنها تحفظت أن تقول: فى حفرة فى البيت المهدوم، هناك كان يخفى السلاح الذى كان يجمعه. قال لها الصبى ذلك ذات يوم، عندما قال لهم عن العفريت. كان يونس قد وضع عينه عليه؛ ستأتى له منفعة ذات يوم. وانظر الآن. كان عدوه وعدو ابنها ميخاليس ومانوس عدوًا واحدًا: الإنجليز. على ذيونيسيس أن يعى ذلك جيدًا الآن.

كانت متعجلة كى تصعد، ستجدهم على المائدة يأكلون. لكن الولد وقف عند الباب.

- يا أم ميخاليس، من قبل لم آتِ إلى هنا من أجل أبي. كان الخواجة روبى يطلبك.

- ليس لدى مزاج لهذا. ماذا تفعل أنت معه؟

- إنه مريض.

- يا له من يوم. وضعوا الحوض عند العجلاتى وذهبوا نحو العمارة الكبيرة. كان الولد يهرول أمامها متعجلا، وتظاهر بأنه لا يسمع ما تسأله آريان. أخرج المفتاح من تحت سجادة الباب، فتح وتركها تدخل.

. أليس لديه طباخ عجوز؟

. لم يظهر منذ أربعة أيام.

لأربعة أيام لم تنظف الشقة لكنها كانت مرتبة. قالت فى داخلها "أيًا كان هذا المنحوس، لكنه نظيف ومرتب". أدخلها الولد إلى غرفة النوم.

. شكرًا على مجيئك يا سيدتي.

. يا للمسيح الحي، قالت وهى تنحنى فوقه.

- من؟

هذا ليس مرضا، لكنه متورم من الضرب. عيناه وشفتاه متورمتان ومجروح أيضًا.

. لنقل إننى اشتبكت مع لصوص فى الليل. أشعر بالضيق عندما أتكلم فى هذا الأمر.

هذا ما يحدث لأمثاله. يأتى لهم ذات يوم أحد ويعريهم، يعطيهم المال ولا يجرؤون أن يفتحوا أفواههم بكلمة. شيئًا فشيئًا بدأت تتفحصه. كانت تتعجب بين الحين والآخر؛ أما هو فكان يشكو ويتأوه كامرأة. كان الولد كلما يسمعه يتأوه يشب على أصابع قدميه ليرى أفضل. جروحه كانت مثل عيدان بوص ذابلة. من يدرِى بما ضربوه. كانت حرارته عالية. إنه يحتاج أن يذهب للمشفى.

. لا، قال لها. لن أخرج من هنا. هل لديك طبيب من طرفك؟..

- لسنا بحاجة إلى أطباء! هذا غير أنه ليس لدينا فائض من المال...

- من طرفكم، أعني يساري. عفوًا.

هل هناك أطباء لليسار؟ عندما يدرسون، بالطبع، فكيف يأخذون الشهادة. طيّب الله وقتك يا ثموستوكليس. الطبيب طبيب. يتقاضون مقابلا للزيارة. وعندما يشم رائحة خوفك يحملك بقائمة من الأدوية ويرسلك إلى الصيدلية التي يأخذ منها عمولة. كيف يصبح الإنسان جشعًا؟ لكن لم يكن هذا الشامي ذو الشوارب الذي أنقذ أورانيا لم تحضره إلى البيت كي يكشف على الشاب؟ لقد تقاضى عشرين قرشًا. وهو شخص جاد. إنه معتاد على بيوتنا على أية حال. ممم، ماذا، هل أرسل إليه وأحضره؟

اتفقنا على الشامي. لنرسل الولد بسرعة. لكن هل سيهتم بشأنه وهو عارٍ هكذا؟ قال لها أن تجد قلمًا وورقة، يا للعذراء. أحضرتهما له فكتب بالإنجليزية شيئًا وأخذ الصبى الورقة. هل تذهب إلى المطبخ لتغلى له شيئا؟ وهذا الطباخ لم يجد وقتا أنسب من هذا ليمرض؟

- لست متأكدًا أنه قد مرض. كان سيترك خبرًا.

- هل ترك العمل لديك؟

- إنهم يمنعونه. هؤلاء الذين فعلوا بى ما ترينه. ربما يكونون قد حبسوه كى يحققوا معه.

لهذا كان يطلب طبيبا يساريا؟ لم يكن الأمر كما كانت تظن آريان. لأسباب سياسية ضربوه. لكن المريض بدا وكأنه قد ندم لأنه تحدث، غطى رأسه بالملاءة وبقيَ ثابتًا. وذهبت هي بدورها إلى المطبخ. هناك، ظهرت يد نابليون. كل شيء مغسول ونظيف، لكن لم يكن مرتبًا. الأطباق الكبيرة مع الصغيرة، كلها في خزانة الأطباق. في البراد أوانٍ فارغة ورغيفان من خبز الخميرة ملفوفان في ورق. هذا شغل عرب. دق الجرس فوق رأسها. الباب؟ لن يلحق الولد أن يصل إلى شارع الدواوين. كان المريض هو من يدق الجرس.

- عفوًا، لقد تذكرت شيئًا، لكن لا أقوى على النهوض. هناك خطاب أرسلته مع الصبي، هل أعطيته السيد سميونيذيس؟

آه يا آريان! ماذا ستقول الآن؟ لقد وضعت الرسالة في درج الكوميدينو، لأن مانوس كان غائبًا. أعطتها له فيما بعد؟ لا تذكر.

- رسالة؟ آه، نعم.

- هل قرأها أمامك؟ حاولي أن تتذكري، من فضلك.

- هل لهذا علاقة بما حدث لك؟

لمَ يجب أن تسأل. المريض أمسك بالملاءة ولملمها في كفه. غضب لكنه تماسك. من الأفضل أن تقول الحقيقة. الأمر صعب، لكن لا بد. ربما كتب فيها أسرارا. من صغرها لم تشعر باحمرار وجنتيها. لكن المريض كان يسمع ويتنهد بارتياح.

. ربما أخذها شخص آخر، سألت.

تبادلا النظرات وفهما مباشرة من المقصود.

. هو ابني، أعرف، وأستاء عندما أعترف بهذا. دعنى أبحث فى الأمر.

. تذكرين عندما حذرتك. الآن أرجوك ألا تقولى شيئا. افترض أنه أعطاها إلى قائده. فى هذه الحالة فإن السيد سيمونيذيس فى خطر. لا بد أن تقولى هذا الموضوع له على الفور. أرسل إليه بعض الأدلة كى ينشرها فى "المحارب". الشائعات بخصوص ميتراكيس. لكن الآن كل هذا لا فائدة منه. سيكون من الأفضل أن يبدل محل سكنه. لا يجب أن يأتى إلى هنا، فهو بالتأكيد مراقب. وقولى له أن ينتبه فى الطريق من سيارة جيب.

من فرط تعجلها نسيت أن تأخذ الحوض من عند العجلاتي. كان ديونيسيس قد رحل، لا بد أن لديه نوبة مسائية؛ نيكوس لم يكن فى البيت. مانوس نائم. أيقظته وحكت له. أومأ لها برأسه بالموافقة "حسنًا": "الآن أفهم بعض الأمور. ريتشاردز المسكين. هو متورم، أليس كذلك؟ وسيارة جيب، صحيح. ليست واحدة، بل أربع".

لكن عندما قالت له أن ينهض ويخرج، توقف ليفكر فى الأمر، لم يكن البقاء فى الدفء سيئًا. هل كان ينتظر ستماتيس؟ هل سيتشاجران؟ لا ينبغي. ولا يجب أن يُظهر له أنه يعرف. لا لم ينتظر ستماتيس، قال لها. ربما الأمر يتعلق بأليجرا، هل وقع الرجل فى حبها؟

ـ قال، أليجرا. لكن الأمر ليس متعلقًا بها. سأقول لك: لا أدرى أين أذهب. فمستحيل أن أذهب إلى كاريوتيس لعجوز فلديه دكانته. سيتصرف الرفاق ويجدون لى مكانًا، لدينا مقابلة مساء غد. هذا غير أنهم لا يقومون بالاعتقالات إلا فجرًا. لدينا وقت. رغم هذا يا سيدة ساريذيس أعبر لك عن إعجابى الشديد. فإن عقلك، لا أدرى كيف أقول، مفعم بالحيوية. لا تنسوا أبدًا أن المرء هو جسد أيضًا. فى هذا الشأن أنت صارمة جدًا ومودرن فى نفس الوقت. لم تكن أمى لتفعل ما فعلته من أجلى ولو ذبحوها.

ـ قالت له، آه، يبدو أنك لمرة أخرى لم تفهم. لا يعنينى لا جسدك ولا أليجرا. كانت أرواحكم مريضة يا مسكين! أما عن الجسد، فإن ستماتيس، معذرة، قوى البنيان، لو شعر بصفيرك فى الشارع ستلقى ما لا قد يشغلك بعده أمر ذى القرون.

أرادت أن تقول له أيضًا إنها ليست من طبقة أمه الاجتماعية، هى ربت أولادها فى الحواري. لكن كانت ستعكر صفوه إذا ذكّرته بالفروق بينهما وصمتت. غاص هو فى التفكير. آريان كانت تعد القهوة وهو يرتدى ملابسه. وضعا الصينية على المشمع الأصفر وجلسا. مظلة أليجرا كانت مُسدلة. كان حذاء ذى القرون يظهر وهو يروح ويجيء. كانت أصواتهما تُسمع، كانا يتشاجران.

ـ سأل مانوس، هل قال ريتشاردز شيئًا لصديقه بيتر.

ـ لم يشر إلى شيء كهذا. هل هذا هو الذى كتب لنا ميخاليس عنه؟

- بالضبط. أردت أن أعرف الدور الذى لعبه.

- هل هذا هو من يسكن أمام مبنى المفوضية؟

- لم أسأل، لكن يجوز. كل ما أعرفه أن عشيقته هى زوجة وزير يوناني.

- هذا هو. يسكن على نفس السطح مع الكاهن.

- مستحيل! هل تعرفين أين يسكن؟ من قال لك هذا؟

- لماذا تندهش هكذا؟ لقد رآه نابليون. وقال لى الأعمى ذلك، سألت الصبى وقال لى بالفعل إنه رآه.

وكأنه سمع من يناديه، جاء نابليون. أحضر الحوض من عند العجلاتي. كان مانوس كالمجنون. جعلها تسأل الصبى مرة أخرى. فى البداية راح يبلغ عن أخبار الإنجليزي. شكر آريان مرة أخرى، كان يشعر بتحسن. أما عن الخواجة ذى المعطف، هو لم يعد يسكن فى ذاك البيت. اختفى. "من حينها"، سأل مانوس. "منذ جاء صديق الخواجة روبي"، أجاب الصبي. "هل كان يعيش فى شقته؟"، "لا. كان يعيش فى الشقة المجاورة، مع امرأة". "أى امرأة؟"، "وكيف لى أن أعرف؟ امرأة".

- صرخ مانوس، مستحيل، هذا الولد الملعون يلعب بعقولنا.

راحت آريان تحاول مع نابليون بلطف. "ربما هُيئ لك يا ولد. ربما اختلطت عليك الأمور". لكنه كان مُصرًا. شرح لهما بأنها كانت تتسلل من سلم الخدم حتى لا يراها البواب، وأنها كانت تذهب إلى المنور لتراقب

حركة الأسانسير وفى طابق يقف، وأنها كانت تصعد الدرج وتتنصت على الأبواب، بالأخص تلك الرسوم مرسوم عليها الصليب. وفجأة تذكر شيئًا. "انتظرا، سأحضر لكما شيئًا كى تصدّقا". وغادر.

ضحك مانوس عاليًا وبعدها عبس. "مستحيل"، راح يقول وهو يضرب كفًا بكف. "هذا أمر جاد للغاية، لا يتسع له عقلي. ومن هذه المرأة؟".

. عشيقة الآخر، حائط يفصلهما، قالت آريان وهى تجرب الفكرة فى رأسها:

. أنا لم أحب أبدًا هذا الرجل ثقيل الظل.

بعد قليل قال لها: "سيدة ساريذي، أكبر شعراء إنجلترا، قبل ثلاثمائة عام تقريبًا، نحت اسمًا صاغه من اسمين من اللغة اليونانية القديمة: أرياذنى وأراخني، أرياخني! هكذا لا بد أن أناديك. فمن ناحية تأتين بالخيوط ومن ناحية أخرى تغزلين الشباك، وإذا بالذبابة... مستحيل!

أعجبت فلسفته آريان. لكنها تذكرت الحقائب. ألا يجب أن يعرف أين خبأتها؟ لربما حدث لها شيء.

. قالت له، الأشياء محفوظة عند يونس. إذا ما احتجتموها وأنا غائبة سيحضرها لكم نيكوس. لا تقلق. هو أهل للثقة.

. الآن قد حدث. أنت تعرفين أفضل.

على أية حال لو كان الأمر بيدى لما وثقت به. لو ضاعت هذه الأشياء سيكون الأمر كأننا نسلم إحدى قلاعنا أو بارجة حربية. سأجن وأنا أعلم أن الذى يحرسها عربي، يقبل أن تطعمه امرأتان ويترك ابنه عاريًا، هذا الذى رأيته يفعل ما يفعله فى الذكر...

. يا مسكين، لمرة أخرى لا تفهم. مع من تريدون أن تقوموا بما تفعلونه؟ وحدكم؟ وهؤلاء؟ ألا يريدون أن يغيروا العالم؟ والسيد روبرت؛ هل ستطردونه؟ ألا تتساءل كيف ولماذا صار فى هذه الحالة؟ ربما هؤلاء يريدون الشيء نفسه وأكثر منكم. ليعودوا مرة أخرى بشرا. أنتم تفتخرون بكونكم بشرا.

. لكن شخصا مثل يونس، مثل ريتشاردز، لديهم نقاط ضعف، لن يتحملوا المغريات والتعذيب.

. وستتحملونها أنتم؟ تتحملون حتى تنحنوا. وماذا بعد: لا أعرفك ولا تعرفني. رجال... أى نعم، هناك بالتأكيد رجال شجعان ومستقيمون؛ سيكون الأمر محزنًا كثيرًا لو قالوا لى إن هذا النوع غير موجود. لكنى أريد أن أراهم يتحملون ليس يومًا واحدًا، ولا شهرًا واحدًا، لكن ثلاثة وعشرين عامًا.

وهنا فهمت أنها قد باحت بسر وأمسكت بخديها. لحسن الحظ عاد الولد فى اللحظة التى كان الحديث عن أبيه وقاطعهما. وقف أمام مانوس وأعطاه علبة سجائر كارتونية.

ـ نعم. هذه هى الماركة التى كان يدخنها فى فلسطين. وماذا بها؟

ـ قال لها، اقرئي. هذا هو خط يده. أعتقد أننى رأيته وهو يكتب ما عليها، لكن لا أتذكر متى؟

المكتوب على العلبة : "دورا. م. ١١، جاردن سيتى الدور الرابع. صليب".

قضى مانوس المساء فى غرفته وأغلق عليه. هكذا لم يشعر بفلفل وقوطة عندما جاءا بنيكوس غارقًا فى دمه. حرب الحجارة، قالوا لها. فى الحى المجاور. لكن الجرح كان صغيرًا فى رأسه. ملابسه كانت تحتاج إلى الغسيل على الفور، ماذا سيرتدى غدًا؟ خرج الحوض الصدئ مرة أخرى. غسلت آريان الجرح بالعرق وكتمته ببن مطحون. كان الثلاثة صامتين. بعد الإلحاح قبل فلفل أن يحكى كيف حدث هذا. كانوا قد استأجروا دراجة، وراحوا يعلمون سلطم كيف يقودها. الأعمى لم يشأ أن يمسكوا له المقعد من الخلف، وراح يدوس على البدال بسرعة فهرب منهم، بعد قليل ترك مقود الدراجة بعد أن اشتبكت جلابيته فى تروس الدراجة، وسارت الدراجة بلا قائد حتى وقع. قالوا أن يذهبوا إلى الشارع الآخر لأنه أهدأ. لكن هناك راح أولاد كاكاليذيس البقال يقذفونهم بالحجارة هم وأصدقاءهم. وصارا جيشين.

ـ سألت آريان، من الذى قذفك يا نيكوس؟

ـ صمت نيكوس. فلفل قال إنه لم يرَ. لكن قوطة باح.

ـ كانت حجرة من الشيخ سلطم.

ـ آه، حسنًا، قالت آريان. قولوا لى إنه كان خطأ، لو لم يكن الأمر هكذا لذهبت إلى كاكاليذيس و...

فى بيت أليجرا كان الشجار مستمرًا. كان ذو القرون يصيح مثل خنزير يشوونه على النار. لا أفهم منهم شيئًا، أى لغة ملعونة يتحدثون؟

ـ قال نيكوس: لم يكن خطأ. سلطم يقذف بأذنه. وهو قوي.

ـ لكن كى يصيبك، لا بد أنه قد أخطأ. لا يضرب أحد أصدقاءه.

ـ لم أكن معهم، قال الولد باليونانية.

ـ لكن مع من كنت؟

ـ أمي، ألا تفهمين؟ كاكاليذيس يورغيوس زميلى فى المدرسة. خرج وناداني: يا عربى يا ملعون، يا خائن، من هنا اليونانيون!

ـ وذهبت مع هؤلاء الذين سبُّوك؟

ـ تلعثم الولد. كان على وشك البكاء.

ـ دخلت فى المنتصف يا أمي، قلت لهم أن يتوقفوا. ماذا كان يجب أن أفعل؟

سألت آريان الآخرين بالعربية:

- هل كان سلطم يعرف أين يقذف؟

نفى فلفل، لكن قوطة اعترف.

- أعرفه هذا الأعمى. لقد فعل ذلك عن عمد، قال آريان. إنه طماع! هيا اذهبوا الآن، ستبحث عنكم أمهاتكم.

بدأ النهار فى الزوال. صعد الشيخ إلى المنارة ورفع الأذان. مر بائع الألبان. أليجرا وزوجها لم يهدءا بعد، كان هناك صوت ضجيج، من يضرب من؟ أشعلت آريان مصباحا فى غرفة الطعام. غادر فلفل بهدوء. أما قوطة فكان ما زال ينتظر وعيناه مثبتتان على الحوض.

- أم ميخاليس، افعلى لى ما فعلته ليونس. حتى تذهب عنى حبة الطماطم هذه، هى التى تشرب دمائي.

- "آه، يا للمسيح، ماذا تقول للولد الآن؟". ذهبت إلى المطبخ وقطعت شريحة من الخبز ووضعت عليها السكر وأعطته إياها. سحبته من يده نحو الباب.

- لا شيء ينفع، أليس كذلك؟ تصبح على خير يا نيكو، تصبحين على خير يا أم ميخاليس.

انحنت وقبَلته على خده. أغلقت الباب خلفه. كان يعرف طريقه فى الظلام.

بعد قليل، دق الباب مرة أخرى. هذه المرة كان الدق على الباب بقوة.

- مدام آريان، افتحى لي!

كانت أليجرا شاحبة اللون بشعر منكوش وتنورتها ملتوية وأنفها أحمر. كانت تلهث من الهرولة. أخذتها آريان إلى حجرتها كى لا يسمع الولد.

- هيا اهدئى يا جارة، ماذا بك!

- أين مانوس؟ أريده الآن، فى التو. ليأخذنى من هنا وليحدث ما يحدث. لقد سحب عليّ سلاحا ليقتلنى المجرم.

اهدئي. أول شيء، دعينى أحضر لك كوبًا من الماء. كان حلقها جافا ولسانها يكاد يلتصق فى سقف حلقها مما يجعلها تتأتئ. أجلستها على الفراش. عندما عادت وجدتها تبكي.

- لم أعد أحتمل. قلت له أن ننفصل. أين مانوس؟

فى الحقيقة هذا أمر سيئ، لم تسمعه يخرج من جحره؟ وهنا دق نيكوس برفق على باب غرفة النوم. فى الأنتريه كان ذو القرون يقف تائهًا. هجمت آريان فوقه وراحت تفتشه.

- قال وهو مشوش، تخلصت منه يا سيدتي، لقد تخلصت منه.

سمعت صوت أليجرا تخرج. بدأ الشجار مرة أخرى. راح يصيح وهو يتكلم كما لو كان يقرأ تعاويذ. توقف. فبدأت أليجرا. كانت تتكلم وتحرك

يديها. أمسكت ثدييها من أسفل وراحت تزنهما مثل أكياس الجبن الطازج؛ راحت تمسك بردفيها وتقرص وجنتيها ثم تشير إلى بطن زوجها وأقدامه القصيرة. أخرج هو منديلا بنقوش خضراء وراح يمسح عرقه. بدأ فى الصياح مرة أخرى. لحسن الحظ لم يخرج مانوس.

لم ينقص آريان الآن سوى وجود التوأمتين كى يكتمل الحفل. لقد جاءتا فى موعدهما، ها هما!

حاولت أن ترسلهما مع نيكوس إلى غرفتهما. لكن كيف تنصاع بنتان فى سن الزواج تكسبان قوتهما وحدهما. قالت كاليوبي: "أريد أن أعرف ماذا يحدث. أليس هذا بيتي؟"، لم تقبل بأن الزوجين جاءا إلى أمها كى تصلح بينهما. لا. شيء آخر قد حدث. وأشارت إلى أليجرا وشعرها المنكوش. أورانيا كانت أكثر دبلوماسية، أخذت ذا القرون وحده تتحدث معه. وذو القرون ذاك بما أنه ذو قرون حكى لها الحقيقة.

. قالت لأختها، كاليوبي. تعالى أقول لك.

. صاحت مثل ممثلة مسرحية. ماذا، فى بيتنا تحدث هذه الأمور؟ هذا الملعون المتمرد؟ لا بد أن يخرج من هنا فورًا.

هرولت إلى حجرته وهى تصرخ وفتحت الباب بعد أن دفعته.

لقد اختفى مانوس.

(١٥)

تحت الساعة الكبيرة التى أمام محل بيع ماكينات الخياطة سنجر تقابلت بالكاد فى الموعد مع فوتيروس، سيذهب بى إلى الاجتماع؛ ذهبنا صامتين إلى حى شبرًا مفضلين أن نسلك الشوارع الكبيرة، لكن من على الرصيف المظلم. بالأمس قابلت غاريلاس سريعًا على كوبرى الجزيرة وقال لي: "لا يمكن أن نتقابل أبدًا على الكوبري، هناك سيارة جيب فى كل ركن، ماذا تفعل إذا حدث شيء، تقفز فى النهر؟". استطعت رغم ذلك أن أخبره بشأن الضئيل التافه. سمعنى لكنه لم يُبدِ رأيًا. غدًا، غدًا سنتحدث. كان متعجلا للغاية. لكنه عاد وقال: "لم أسألك. كيف هى أمورك مع الرسل؟"، كان يعنى الأصدقاء من المعهد الذين كان يحشدون ويجندون نفوذهم الكبير. قضيت أربعا وعشرين ساعة دون نوم أتسكع طوال الليل فى الحدائق، أجلس أحيانًا على المقاعد وأحيانًا أخرى أقفز فى الترام إلى أى طريق يذهب؛ ثم أعاود الكرَّة ثانية، على المقاعد، حتى الصباح. قضيت الصباح كله فى المتحف حتى الظهيرة، بعد أن أُنهكت قدماى تمامًا جلست فى أحد المطاعم الشعبية ومنها إلى المقهى حتى جاءت ساعة الموعد مع غاريلاس.

تم حل مشكلة سكنى بسرعة من الأصدقاء وجاء الحل فخمًا. محامٍ أرمينى أخذنى بسيارة ليموزين إلى فيلا أنيقة، أسكن فيها وحدي. كانت فى الطريق المؤدى إلى الأهرامات وكان يستخدمها وكرًا له فى الصيف. لو كانت لديّ صديقة كان من الممكن أن أستفيد من الوضع، هذا ما قاله لى أيضًا. لكن بربك، لا تعقد اجتماعات هنا، تفهمني؛ أليس كذلك؟ حتى لا يقلق البستانى والحارس من العابرين. سيستغربون دخول وخروج الناس، ولا نريد أن تحوم الشكوك حول المكان، لأننا ربما نحتاج المكان لأغراض أكبر. كانت الفيلا مضيئة فى وسط الحقول ووسائل الموصلات صعبة منها وإليها. قال غاريلاس، "ستبقى هنا إلى أن نجد مكانًا أفضل. أحضر أليجرا إلى هنا كى تفرح". أين يجد المزاج للمزاح؟

فوتيروس كان يسير دون أن ينطق بكلمة. حاولت أن أفتح معه حديثًا حول الوضع، لكنه كان يجيبنى باقتضاب. فصمت. شعور غريب، أشبه بحقد، أشبه بكراهية تسير معنا وتكمم الأفواه. خطواته ثقيلة، جسده كان يصعد ويهبط دون أن ينحنى مع قدميه وكأنه يسير على شيء مثل بطانية. بينما كان يحنى رأسه ويتقدمنا بخطوة كما لو كان متعجلا، كما لو أنه يسحبني. كان لدى شعور بغيض: "كأنه يذهب بى للإعدام". بالمعنى الحزبي، شطب. مرت فى ذهنى ثانية الحورات مع غاريلاس. كان كلامه مقتضبًا أيضًا، كان يتهرب من الحديث. كما لو أنه كان يحتفظ به لاجتماع اليوم بكل ما أراد أن يقوله فيما يخص الضئيل التافه.

عندما تأكدنا بأننا غير مراقبين، دخلنا فى الأزقة خلف دار المسنين. درج مظلم ورائحة خضار مسلوق؛ صفائح القمامة على السلم العريض؛ القطط خافت وهربت فجأة من بين أقدامنا؛ رضع يبكون خلف الأبواب؛ أصوات من أجهزة المذياع. أشعل فوتيروس عود ثقاب وسار أمامنا. وصلنا إلى السطح. داخل حجرة الغسيل كان هناك إسكافى يجلس على مقعد صغير يقطع بإزميله جلدا مبللا. رأى فوتيروس فأومأ له محييًا برأسه الأصلع المسطح. يبدو أرمينيًا هو الآخر. دق فوتيروس الشعار على الباب المجاور. فتح لنا غاريلاس. كانت شقة مرتبة بها نقوش على الحجارة من جنوة والبندقية معلقة على الحائط. فى المنتصف طاولة عليها مفرش مخملى عسلى اللون منحول من جوانبه من فرط الاستعمال والترقيع. فى المنتصف كانت منافض السجائر. جلسنا؛ فانيس، الضئيل التافه، فوتيروس، غاريلاس وأنا.

- أعطنى سيجارة من معك، قال فانيس.

نظرت له. يبدو مرهقًا لكنه هادئ. هذا مؤشر طيب. المحكوم عليه بالإعدام لا يطلبون منه سيجارة، بل يعطونه. نظرت إلى الضئيل التافه. يبدو أن رياحا مرحة غير متوقعة خففت حواجبه الثقيلة؛ لكن قدميه كانت كالعادة تهتزان بعصبية تحت المنضدة. لم أستطع أن أستنتج شيئًا. غاريلاس بدا غامضًا وكأنه يصر على شيء. كان فوتيروس ينظر إليّ من طرف عينه بابتسامة شريرة.

- قال فانيس، جدول الأعمال. لدينا اليوم موضوعان. الأول: ميتراكيس. المقرر هو الرفيق وأشار نحو الضئيل التافه. الثاني: نقل المشاة، المقرر... أشار إلى نفسه.

- قلت، فيما يخص الموضوع الأول، اطلب الكلمة.

- قال لي، بعد المقدمة الكل سيأخذ الكلمة. شاء أم أبى.

أخرج الضئيل التافه من جيبه بعض الملاحظات المدونة وأشعل سيجارة. أخرجت أنا الكارتونة المكتوب أسفلها التى أخذتها من نابليون ووضعتها أمامي.

- بدأ هو، فى الشهور الأخيرة وبفضل نضال المستعبدين والحرب القومية السوفيتية وحلفاء الشعوب، حدثت إعادة تصنيف للعالم. الحركات القومية فى أوربا خلال هذه المرحلة اكتسبت خبرة تنظيمية عسكرية وخبرة إدارية وسياسية، والآن القوى الأوربية تسعى لأن تكوِّن جيشًا منظمًا جاهزًا ليس فقط كى يشارك فى الضرب الذى قريبًا سينهال على جيش هتلر، لكن سيضع حلا دون تأجيل أو تجريب لكل مشاكل ما بعد الحرب الناشئة عن ميثاق الأطلنطي.

"مرحى، نهض الملائكة مرة أخرى. لو انتهينا قبل الفجر سيكون جيدًا"، قلت فى نفسي. نزعت ربطة عنقي، ففككت زر الياقة، واتخذت وضع الاستعداد لقطع الرأس. على جبهة فوتيروس اللامعة كان ثمة ظل، كانت طريقتى تضايقه؛ لكن عينيه كانتا تتجهان نحو المتحدث، كان يسمعه بنفاد صبر.

مرت ربما نصف ساعة حتى يبدأ فيما يخص أمورنا. جرس دار المسنين يدق بلا توقف. لا بد أن الساعة الآن التاسعة. الآن كان الضئيل التافه يتحدث بسرعة، كان يقول جملا قصيرة وقاسية، كما لو أنه كان يجلد التوجيه بسبب أخطائه. راح ينتقد بكلام لاذع "عدم وجود خطط إعداد مفصلة"، الأوهام فيما يخص إيقاف الحدث "عندما سيكون لدينا مزاج"، الإهمال فى توجيه "جماهير الجاليات"، وكذلك "مثالية الثورة دون حشد وغطاء شعبى ويتحدث عن الانفصال عن أرض الوطن". كان يبالغ عن عمد حتى يحمل الذنب للسكرتير العام، وقبله أى أحد فانيس، كان يُحمِّله أثقل وأكبر الذنوب. لكن السكرتير كان يسمع بهدوء مؤيدًا بهز رأسه. كانت عينا فوتيروس تلمعان، كان متحمسًا بأننا ندين عيوبنا دون تمويه. كان غاريلاس بجوارى يدخن. أنا كنت أربت على ظهر الورقة الكارتونية التى فى يدي. الورقة الكبيرة الرابحة التى ستقضى على كل هذا النصب.

عبر المقرر بالحديث إلى "نقاط الضعف الشخصية". كان يتكلم بشكل غير محدد دون أن يذكر أسماء. تكلم عن الجبن والتردد والنفاق وعدم الطاعة، وهى من الأشياء التى حدثت، لكنها كانت أحداثا فردية. تحت غطاء المسئولية الجماعية راح يضع الذنب على الجميع، هكذا مما يجعل المرء يتساءل ماذا نفعل، نحن هنا مجتمعون مخاطرون أن يتم القبض علينا جميعًا مثل الفئران ودون جدوى. من نقاط الضعف الشخصية التى أشار إليها سريعًا ودون ترتيب استطعت أن ألاحظ بعضها من خلال كلامه تخص حضرتي: الذاتية، تذبذب فى المزاج الثوري، رواسب طبقية، هوس ثقافي، ارتياب. لكن عندما انتقل للحديث عن "الجانب الإبداعي" كان نقده

خفيفًا ومديحه يتم على استحياء بالأخص عندما تحدث عن الإصابة وحالات المرض العضوي. والتقلبات النفسية ولا أدرى ماذا. انتابتنى رعشة وطويت الورقة الكارتونية فى يدي. هل كان يحاول أن يعلى من قدرى أم كان يحاول أن يقول بأننى مجنون مقدمًا؟ لأول مرة بعد وقت طويل ظهرت على فانيس بوادر الاستياء.

فجأة مر المقرر سريعًا نحو القرار الذى أرسله سكرتير الكتيبة، قال إن مسئولية إدارة الأمور السياسية سيتحملها "بالكامل". كان على استعداد أن يتحمل مسئولية تعيين ميتراكيس. نعم، هو بنفسه من كتب الخمسة أسماء وأعطاها عمال الموانئ. سمع تنهيد من فوتيروس بعدها فرد ظهره على الكرسي. كان فانيس يسمع بتركيز وهو يحرك شفتيه بلا صوت، كما لو أنه كان يعرف نص الخطاب وأنه قد قرأه مع المقرر. أكمل هو: "أتحمل كل المسئولية. كنت أعرف أننى أخالف القواعد، كنت أعرف أن ميتراكيس عميل للاستخبارات الإنجليزية. إذن فلماذا فعلت هذا؟ هنا، يا رفاق، أستطيع أن أقول آلاف الأعذار: إننا وصلنا إلى طريق مسدود، العصبية وضغط وتردد الضباط، انسحاب المؤيدين، عصيان الجنرال". أستطيع أن أقول "كلب أبيض وكلب أسود". نعلم عن ميتراكيس لأنهم أخبرونا عنه. لكن من منا يعرف شيئا عن آخرين، إن لم يكونوا كلهم، عملاء للاستخبارات؟ يمكن أن أنتهى قائلا بأنه بالضبط لأن ميتراكيس عميل، وزملاءه فى الوزارة ليسوا كذلك، وأنهم يعرفون ذلك، لا بد أن نحشره بينهم كى ينكشفوا سريعًا. سأستطيع أخيرًا أن أؤكد أن العميل الحقيقى ليس هو، ولكن زوجته، وبما أن ذورا ميتراكيس لم تصبح وزيرة، فليس ثمة كارثة.

إلى ماذا يرمي؟ لماذا بعدها يفجر كل الجسور؟ فهمت فجأة. لا بد أن ريجو هو من حمله بكل شيء، وأنه فعل هذا بأمر منه. "الآن أمسكنا بك" قلت فى نفسى وأنا أفرد بأظافرى الكارتونة المشقوقة.

- لا يا رفاق، لن أقول شيئا من هذا. الحقيقة، الحقيقة المرعبة هى أننى هدمت حركتنا المعادية للفاشية من أجل امرأة.

انحراف مائة وثمانين درجة! لكن لم يُظهر أى من الموجودين الدهشة. حتى إن فوتيروس بدا مهللا. هكذا فهمت من ابتسامته: كان يرى إذن؟ الضئيل التافه أشعل سيجارة وراح يقلب فى أوراقه ثانية ورمقنى بنظرة بطرف عينه. إذن كان يعرف ما سوف أقوله. لنرَ الآن كيف سينجو.

دخل فى التفاصيل. أنه فور وصوله إلى القاهرة مدعوًا من السكرتير، ذهب ليختبئ عند أحد أقاربه، من الأحرار القدامى. وأنه بينما كانا فى طريق النزول بالمصعد فى تلك العمارة، رأيا دورا ميتراكيس تدخل معهما إلى الطابق الثالث؛ تمت التعريفات ومزحوا قليلا حتى نزلوا إلخ.. إلخ. "تلك النساء شيطانات، يا رفاق. من هم مثلنا من أبناء الشعب يضيعون فى لحظة". بعد ذلك قال إنه ربما تكون مغادرة القائد نتيجة لهذا. أنهى كلامه بأنه أعلن ندمه على خطئه معتبرًا نفسه غير كفء بأن ينتمى لصفوف الحركة، وطلب شطبه وتمنى أن ما حدث له يكون درسا وعبرة للآخرين.

فاصل مؤقت. جرس دار المسنين يدق بلا توقف، وكأنه كان ينتظر التوقيت المناسب. قال فوتيروس "لا بد أن إحدى العجائز فى ساعاتها الأخيرة والراهبات ينادين على الطبيب".

- قال فانيس: مانوس، دورك فى الحديث.

- الأفضل أن نلتزم بالدور. لماذا لا تتحدث أنت الذى تجلس إلى جواره؟

- لأنك طلبت الكلمة أولا. دعنا لا نضيع الوقت.

- قلت باختصار. كل ما كنت أود أن أقوله من اتهامات اعترف بها وحده. أقترح شطبا بقرار خاص، يشير إلى ما فعله، وببطء رحت أقطع الورقة الكارتونية إربًا إربًا.

- غاريلاس.

- ماذا أقول لكم يا رفاق؟ لم تأتنى مرارة كهذه منذ أن مات ابني. لكن شطب، لا. لنأخذ قرارًا آخر. الرفيق ندد بفعلته من نفسه، مما يعنى أنه فهم خطأه. من الآن فصاعدًا سوف ينتبه. لا، شطب لا. لسنا فى وضع يسمح بالخسائر.

- فوتيروس.

- لا شيء. هذا الشخص كتلة من الخراء، قال وهو ينظر لى كأننى السبب فيما آل إليه الضئيل التافه.

- ماذا تقترح؟

- أوافق على ما سيقوله السكرتير.

ـ أولا وقبل أى شيء، قال فانيس وهو ينظف حنجرته، أقبل ما قاله الرفيق فى المقدمة كنقد عادل. إن مسئولياتى ثقيلة جدًا، لأنه من عجزى عن توقع تبعات الحدث الأخير الذى قررناه، بدأت كل الخسائر التى نراها اليوم. إذن أنا مخطئ. لن تكون هناك أى قرارات لأى رفيق فى التوجيه عادلة إذا تركتنى دون عقاب. بالأخص فى قضية ميتراكيس، المسئولية تقع عليّ أنا، لأننى لم أخبركم بالمعلومة أنه عميل منذ سنوات، عميل مدفوع الأجر. لم أكن أعلم عن زوجته، الآن عرفت هذا. أعترف أننى كنت أشك فى فوتيروس، وأنه مظلوم، أنا سعيد بأنه بريء، وأطلب منه أن يسامحني. ليست هناك مسئولية على غاريلاس. للأسف لا يسرى نفس الشيء على سيميونيذيس، لأنه بنفسه اعترف لى بأنه تخلى من مسئوليات التوجيه، وكان يكتفى بتنفيذ الأوامر. لو كان قد قام بملاحظة دقيقة للرفيق لكانت علاقاته بميتراكيس قد انكشفت، ولم نكن قد وصلنا إلى ما وصلنا إليه. أتساءل أيضًا: كيف أن سيميونيذيس الذى ينتبه دائمًا لمسئوليات غيره لم يعتنِ بمسئولياته هو هذه المرة، وأعطى الانطباع بأن كل ما يشغله هو شطب الرفيق. من سيميونيذيس الذى هو أكثر تعلمًا، لا نطلب فقط قراءة نفسية لسلوك الرفيق، لكن تحقيقا أعمق عن الأسباب التى أوصلته إلى هذه الحالة، كى نتعلم مما يحدث ولا نلجأ لقطع الرقاب فقط. فى هذه النقطة خذلنى بموقفه غاريلاس الذى كان عبارة عن انفجار عاطفى دون أى نقد بناء. لكن فوتيروس أيضًا موقفه سلبي، لا يحاول أن يبحث فى الأمر. حدقت عيناه وراح ينظر إلى سيميونيذيس.

ـ قال فوتيروس، أنا لا أكره الرفيق، صدقوني. أكره العالم والطبقة التى أطاحت بعقل أفضل الأعضاء.

ـ هذا ليس عادلا يا فوتيروس. قاطعه فانيس بغضب. سامحني، أضاف وهو يعيد اكتساب سيطرته على نفسه: هو لم يكن مبتدئًا كى تلعب بعقله امرأة مثل السيدة ميتراكيس. هو لم يقل الأمور بشكل صحيح، إن نقده الذاتى كان مثل الألعاب النارية ليصرف انتباهنا عن الحقيقة بحديثه عن النساء الشيطانات وأبناء الشعب. لم تدعه أنانيته يخوض فى الحقيقة بعمق ويقول الأسباب الحقيقية. سأقولها أنا له. إنه طموحه فى التفوق بأى شكل. إنه استبداده وأنانيته. هذا هو ما يكمن فى روحه، ودلو صدق أنه صار شخصا آخر. إنه هو من سينقذ العالم ولا يكفيه سوى أن يمسك بزمام الحركة. القرارت والالتزام والديمقراطية هى أمور لازمة ورائعة، لكن للآخرين. يأمرهم بها ويطالبهم بها، لكن من أجل نفسه كل الحرية فى يده ويسير بثقة. التحفيز والخداع والحزبية والفئوية هى سرطانات ولا بد من التخلص منها، لكن ليس بالنسبة لحضرته. من أجله كل هذا مباح، لكن لابد أن تُعمل فى الخفاء حتى لا تحسب ضده. لأنه فى داخله مقتنع بأن كل هذا يحدث من أجل الشعب، أما الأشياء الأخرى، انتهاك المبادئ الحزبية هى تفاصيل تافهة ستظهر أنه على حق عندما يحقق نجاحاته. أراد أن يعطى نهاية بكل وسيلة كى يستقبل التهانئ. لكن من السيدة ميتراكيس كان يعرف أن الإنجليز لا يريدون ولا يقبلون سوى حل واحد: أن يدخل زوجها فى الحكومة. والرفيق وصل إلى صفقة. ليس جسد امرأة، ولا شرف أن يتقاسم الفراش مع زوجة أحد رجال الاستخبارات وعشيقها

رجل الاستخبارات الآخر. لكن أن يعود غدًا إلى اليونان ويطالب بمنصب قيادى فى الحزب عن فئة العمال. هذه هى الحقيقة. وأشعر بالحزن والقرف فى اللحظة التى أذكر فيها كيف أن الرفيق كان يحاسب سيميونيذيس حساب الملكين، ويتهمه ظلمًا بأنه على علاقة بأشخاص من الاستخبارات الإنجليزية، فى نفس اللحظة بالضبط التى كان يحمل فيها علبة السجائر المدون عليها الموعد مع السيدة ميتراكيس. هاتها، أعطنى هذه الأوراق التى قطعتها، قال لي.

راح الجرس يدق من جديد برفق وحزن.

- ماتت، قال فوتيروس.

- لكن هذا غير آدمي، قال غاريلاس. ألا يفكرون بأن هناك عجائز آخرين يسمعون هذا؟

- الصفقة، أكمل فانيس وهو يجاهد من أجل أن يعيد تجميع أوراقى الممزقة، قام بما قام به بقسوة وهو واثق أن أحدًا لن يعرف عن علاقته بميتراكيس. وعندما ستأتى لحظة الاعتراف عن إدارة الملف السياسي، سيقول لنا أسبابا مثل التى قالها الليلة بهذه السلبية، وكل هذه الهراء من قبيل "أستطيع أن أقول كذا...، وأستطيع أن أقول". فقط، وأؤكد فقط عندما علم عن الأدلة التى جمعها سيميونيذيس وقلتها له مساء الأمس كما نقلها لى غاريلاس، غير مساره تمامًا الآن ويقرأ لنا سيلا من عبارات الانهيار والندم. لكن مع الأسف يا رفاق، حتى الآن هو لا يقول الحقيقة.

وإذا وجب عليّ أن أصنف تصرفه هذا، لا أجد كلمة مناسبة أكثر من كلمة جريمة.

قلت فى نفسى "انتهى، تم تدمير الضئيل التافه". ورفعت عينيّ كى أنظر له. كان هادئًا غير قلق، كما لو أن هذا الكلام موجه إلى شخص آخر خارج هذه الغرفة.

ـ لا بد أن أعترف لكم بشيء، أكمل فانيس. بالأمس، عندما ذهبت للنوم، مر بذهنى شك مريب: قلت هل من الممكن أن يكون الرفيق قد طلب من ميتراكيس أن تنهى أمرنا سيارات الجيب الإنجليزية؟ لم أغلق عينيّ حتى الفجر. فكرت فى الأمر ووازنته من كل جهاته بهدوء مرارًا وتكرارًا. تأكدت فى النهاية أنه بريء. استيقظت وكنت مريضًا من الخجل والعار لأن فكرة كهذه مرت بعقلي. الرفيق، عندما أدرك الخطر، نظر إليّ أنا أولا ثم إلى نفسه. لأنه كان فى نفس الخطر مثلنا وربما أكثر. فإن ميتراكيس سيراقب بكل سعادة انتهاء أمر المدبر الذى أمسك له بالسلم كى يتسلق هو إلى السلطة، لأنه سيكشف أمره آجلا أم عاجلا. بل سيكون عبئًا وغير مفيد بالنسبة له. مانوس، أعطنى سيجارة أخرى من سجائرك.

ـ المقرر، قال فانيس وهو يسحب أنفاسًا سريعة من السيجارة التى أشعلتها له، وعاد إلى بداية نقد الرفيق الذاتية: كلب أبيض، كلب أسود، كل الكلاب ملة واحدة. قال هذا كى يرفض المبدأ، لكن كان محض حيلة. الويل لنا إذا أثر علينا هذا. سنقع فى شراكهم. ليس كل الفنينزويليين عملاء للإنجليز أو لجواتيمالا، على العكس. إن حزبهم صار أمرا واقعا، يعبر عن

مصالح شريحة كبيرة من الطبقة الوسطى، لهم ميول معادية للحرب. فى هذه اللحظة التى نتحدث فيها هناك ضباط منهم يقدمون مساعدات فنية إلى حزب إلاس دون أن يرفضوا حزبهم. مثال آخر: أحد الوزراء الجدد طلب منى ألا أذكر اسمه، وعلينا أن نحترم رغبته. لدى معلومات منه سنتفحصها فى الموضوع التالى لهذا الاجتماع. أريد أن أقول: بشر مثل الرفيق عندما تفشل مخططاتهم يتبعون أسلوب هدم كل شيء، كى يأخذوه معهم إلى القاع. علينا أن نضع هذا نصب أعيننا. إيه، وبعد ذلك تنتظرون أن أتفق مع سيميونيذيس، أن أقترح الشطب أنا أيضًا؟ لا، يا رفاق. إن سيميونيذيس لم يكن فى باله سوى شيء واحد وهو الانتقام. لهذا طلب أن يكون القرار على مستوى القاعدة. ولو كان قد طلب هذا من أجل الحركة فليقاطعني. لكنه يلتزم الصمت، أرأيتم؟ هيا بنا الآن نذهب على مستوى القاعدة، إلى هؤلاء الرجال الأشداء، صياد ميتيلينيس، عمال الدخان فى ساموس، مزارعى خيو، فلاحى ثراكيس واليابسة، عمال الفحم فى إيكارياس، العمال والعائلين الذين نطلب منهم أن يرفعوا عاليًا شرف الجندى اليوناني، أن يغلقوا أعينهم ويولوا وجوههم إلى الناحية الأخرى، عندما تمر الاستفزازات من داخل بساتينهم وحدائق أرض كنعان والبنات اليهوديات بالسراويل المزركشة، هيا نقول لهم حينها، أتدرون، إن التوجيه وصل بكم إلى الهاوية، وضعوكم فى خطر أن تسحقكم المدافع الإنجليزية، وبعد ذلك سوف يبيعونكم بثمن بخس من أجل شعيرات معطرة، من أجل جاسوس. وبعد ذلك تعالوا نتحدث عمّا سيحدث للكتائب، والأسطول والحركة بأسرها. كى ننتهي. أقترح ألاّ نأخذ أية قرارات، بمعنى أن الاتهام لا يزال قائمًا، وسوف يحقق فيه الحزب فى اليونان. فهم المنوطون بمعاقبة الرفيق على خطئه.

هذا انحراف آخر. لماذا تراجع فجأة؟ هل يمسك الضئيل التافه عليه شيئا؟ هل يخضع فانيس للتهديدات؟ لكن موقف الآخر من البداية كان يظهر أنه كان يعرف بالقرار. هل كان السيد ريجو يحميه؟

- سألت، هل هذا يعنى أنه سيظل فى التوجيه.

- نعم.

- هناك أمر من ريجو، قلت.

- من ريجو، قال فوتيروس وكأنه يسقط من السماء. ريجو، رفيقنا من إسبانيا؟

- نعم، قال له الضئيل التافه. لقد مر مصادفة من القاهرة، لكن...

- قاطعهم فانيس، يا رفاق، ليس لدينا أمر ريجو فى أجندة اليوم.

- إلى التصويت على اقتراح السكرتير، قال غاريلاس.

الضئيل وأنا صوّتنا بالشطب. الآخرون اتفقوا مع فانيس.

صارت استراحة صغيرة وذهب فوتيروس كى يحضر الماء. عاد فى الحال؛ كانت خلفه سيدة عجوز نحَيلة ومنحنية القوام ترتدى وشاحا أسود. كانت تحمل صينية خشبية عليها القهوة والتمر المُحَلى داخل كوب فضى ومعه ست ملاعق معلقة حولها، الماء فى أكواب كبيرة وبسكويت بالمستكة. حيتنا بيدها المرتعشة ووضعت الصينية على الطاولة. بدأنا كلنا معًا نقول إنه لم يجب أن تجهد حالها، وأنه لا داعى لكل هذا، وكان فوتيروس يترجم

لها. كان يحدثها بلهجة يونانية محلية، كانوا من نفس القرية وبينهم صلة قرابة بعيدة. ابنها هو الإسكافى الذى كان يقوم بالحراسة فى الخارج، كان ثالث أحد أبناء عمومته. وأنا ظننته أرمينيًا. العجوز كانت تضحك ملء فمها حتى أظهرت لثتها العارية وتقول بسعادة "يونانيون، يونانيون" وهى تضع القهوة أمام كل منا. انتهت، أمسكت بيدها رأس فانيس وقبّلتها. بعد ذلك فعلت نفس الشيء مع الضئيل التافه. "يا للهول" قلت فى نفسى وقلبى يعتصر، "لو قبضوا علينا الآن سيسحلون العجوز وابنها لأنهما كانا يحميان من؟ آه، كم نستحق العقاب لهذا..". عندما وصلت إلىّ وقفت، أخذت يدها وقبّلتها. لكنى لم أحسن صنعًا. لأنها أخذت يدى بدورها وراحت تقبلها بورع كأننى طاغية. لحسن الحظ، لم يمر بذهن أى منهم أن يضحك.

- قال فانيس بعد أن غادرت العجوز: كما كنت أقول لكم من قبل، لدينا معلومات من اجتماع الوزارة السابق عن نقل الكتيبة الأولى والثانية. الاتجاهات: دمشق - بالميرا - الفرات. وسيلة النقل: سيرًا على الأقدام. انتظروا، لم تسمعوا شيئا بعد. الصديق الذى نقل لى المعلومة متأكد أن قرار النقل جاء بإيعاز من ميتراكيس. كان ثمة همس فى الأيام الأخيرة وزملاؤه كان منهم من يتفق كثيرًا ومنهم من كان لا يتفق على أنه من الأفضل أن تبتعد الشاكسات مئات الأميال عن القاهرة. إلى هنا، حسنًا. أعطوهم الملفات الوزارية، الآن لابد أن يكملوا تدريباتهم بعيدًا عن أنوفنا. لكن الرسالة التى تلقاها من المجلس العسكرى لم تكن تتحدث عن تدريبات. كانت تتحدث عن عقاب. الكتائب، الثورة المسلحة كما يلقبونها، أرادو بكل السبل أن يفرضوا الانضباط العسكرى ويضعوا قدمى كل جندى فى حذاء واحد. من الحوار

ظهر أن الوزير الآخر يؤيد قرار الإنجليز، لكنه أضاف بعض المعلومات كى تتسع الآراء داخل المجلس العسكري. بمعنى: الرائد بيتر مستشار الشئون اليونانية، قال إن هذا لا يعد فرض انضباط على العكس، إن المتمردين هم عناصر محاربة ومعنوياتهم يحسدون عليها. لن يكون عدلا أن يعاقبوا على موقفهم الرائع بالعقاب الذى يوازى الأشغال الشاقة. الجنرال ويلسون كان له رأى مخالف. الآن بعد أن هدأت الأمور لا بد أن يقطع الشر من جذوره، وإلا ستقوم حركات تمرد لأتفه الأمور. صدرت الأوامر للمسيرة بشكل يجعلها مستحيلة التنفيذ بشكل إنساني. آجلا أم عاجلا وقبل أن يصلوا إلى الفرات سيهلك حتى مَن أكثرهم قوة. هذه ستكون حجة قوية كى تُحل الوحدات وتنغلق هناك كما حدث مع اليوغسلافيين. لكن كعسكري، لم يستطع ببساطة أن يدعم بضعة آلاف من الرجال من جبهة الحلفاء. لكن لو وصل المتمردون إلى مقصدهم، وهو أمر مستحيل بالطبع لكن فرضًا، حينها سيضربون عصفورين بحجر واحد: سيتم ترويض النزعة الفردية لدى الجندى اليوناني، وستتشكل وحدات صلبة من أقوى ما يكون فى الشرق الأوسط من البيض والسود. الرائد بيتر اتفق فى هذا. كان كلامهم يُذكر بخطاب الفيلق السابع للحركة، وهو لو استطعنا أن نحتفظ بالالتزام حتى نهاية الأزمة لن تكون هناك حركات مضادة. الآن سيكون لدى البعض الحق أن يكرروا شعارت العدو عن العار والجبن فى ألبانيا. أجاب ويلسون بشكل قاطع بأنه عسكرى وليس سياسيًا. حيث إن بيتر كان يعتقد أن أمر الالتزام مفروغ منه، لكن هناك وسيلة كى يتم إثبات ذلك: أن يسيروا حتى الفرات. هنا سأفتح قوسًا. هل الحوار المتبادل بين ويلسون - بيتر كان

مرتبًا؟ أنا أميل لقبول فكرة أنه كان مرتبًا، لكن هذا كثير جدًا. سنعطى قليلا من المصداقية للمدعو بيتر الذى هو على أى حال منافس لرفيقنا من هنا فوق فراش ميتراكيس القذر. لكن الاحتيال أو ما يُسمى بالسياسة المزدوجة للفورين أوفيس، يظهر هنا فى أن حوارا سريا كهذا "تم تسريبه" من مجلس الوزراء ووصلنا. أغلق هنا القوس وأكمل. انقسم مجلس الوزراء حول هذا. الغالبية وأولهم ميتراكيس يقولون إن إدارة الحرب فى يد الإنجليز، وأن ما بين أيديهم الآن هو قرار من المجلس العسكري، وسوف يكون ضد "المصلحة القومية" إذا ما عارضوه. صديقنا الوزير يقول إنه عارض الأمر بقوة. قال لهم أن هذا الأمر يمزق كبرياءنا القومي. إنهم يعاملوننا معاملة الكفار. ومن هنا يمكن أن نتنبأ بالطريقة التى سوف يعاملوننا بها بعد الحرب. صرح وزير آخر أنه لا يوافق على هذا الأمر، وطلب أن تتم أشياء على التوازى فى الخفاء كى يتغير خط السير. قال، لأنه سيحدث أمر من اثنين: لو أنه مثلما يقولون، لا يقبل النقاش، حينئذ فإننا بتوقيع واحد من الحكومة نبطل أربعة أخماس الجيش. وإن حدث حينها سنكون قد حوّلنا ثلثى الجيش إلى مؤيدين متعصبين لفيلوخيوتيس. بقيَ الشأن هنا حتى تصلنا معلومات إضافية ونتحدث فيها مرة أخرى. لكن الصديق يعرف أن الضغط يحدث من ميتراكيس، وأن تسوذورس قد أعطاه تأييده. أضاف، كى لا تكون لدينا أوهام، إنه حتى هذه اللحظة لم يمر بذهنه أن صديقنا الوزير سيتقدم باستقالته. ولا أى أحد منهم قد أقدم على هذا: مسيرة؟ متفقون، سنقوم بها نحن مع الجيش. هو قد أوصلنا إلى البداية رغم أنه لا بد أن يعاقب على هذا الفعل، ونحن أقل ما نريد هو الإعدام.

طلب فوتيروس الكلمة: كان يعلم أين يقع نهر الفرات، لكن لم يكن يفهم لماذا يبدو لنا الأمر مستحيلا أن نصل إلى هناك سيرًا على الأقدام.

- قال له الضئيل التافه، كى تفهم. عندما كان روميل يسير من الإسكندرية كان يخشى أن تقع الخيانات وكى لا نقع فى الفخ، نستطيع أن نرسم خطة كى نصل إلى الفرات فى كاميونات. اسأل سيميونيذيس الذى صنفها على أنها خردة. لا بد أن نعبر أربعمائة كيلو متر من الصحراء الحارقة.

- قال غاريلاس، من قبل روميل. كان هناك فيلق إنجليزى أظن كان اسمه مانشيستر، تم الحكم عليه بنفس المسيرة بعد أن شنقوا رئيس الكتيبة. من سبعمائة جندى وصل فقط أربعون منهم. كى تعرف لماذا يريدون لنا هذا الطريق.

- gang Chain، قلت. أخذوه من الأمريكيين من تجار العبيد. لكن هذا كان يعني...

- سنتجاوز هذا، قاطعنى فانيس متضايقًا من الحوارات الجانبية.

- لماذا يا رجل، هل قررت بالفعل، سأل الضئيل التافه. هذه ليست مسيرة، ليست رحلة فى قعر سفينة، هذا إعدام مباشر. سنلعب لعبتهم.

- إعدام، غير إعدام، أول ما يجب أن نفعله هو أن نعود إلى كتائبنا. قال غاريلاس.

- قال الضئيل التافه، إذا كنت تتوق لهذا.

- ستذهب يا رفيق، كلنا سنذهب، قال فانيس.

سيبقى فوتيروس فقط ويتسلم الإسكندرية وسمينونيذيس فى القاهرة، لأن إصابته ستقتله تحت صهد الشمس. ستذهب اليوم وستتولى توجيه المسيرة. سآتِ معك لكن ليس هناك متسع للأوهام. بهذه الحالة التى وصلت إليها سيكون مستحيلا أن أقوم بدورى على ما يجب. هذا إذا لم أقتل نفسي.

فهمت الآن تمويهه، ولماذا لم يقترح قرارات عقابية، لم يشأ أن يتركه فى الخلف، أن يصول ويجول فى القاهرة. أراد أن يجعله تحت عينيه، أن يمسك زمامه.

- قلت لفانيس، أشكرك لأنك فكرت فى إصابتي. لكن أظن أن استثناء كهذا شيء غير مشرّف. سأذهب مع الجيش. لن يحدث لى شيء، أعدكم بهذا. لكن أنت من يجب أن يبقى هنا فى القاهرة بالتأكيد. بلا رومانسية. تعرف جيدًا أن مكانك هنا.

- اسمعوا، قال. دعونى أنتهى من كلامي. ليس أمامنا أن نختار. لا بد أن ننضم للمسيرة وننتصر. لو بدا أننا نرفض سيسحقنا الإنجليز بمباركة الحكومة التى أتينا بها. لا بد أن نظهر لهم أننا بلعنا الطعم: وأننا سنذهب للتدريب. بثقافة إرساء النموذج الذى لا بد أن نلهم به شعبنا بثقة، وهو أن اختبار المسيرة هو معركة أخرى من أجل تحرير اليونان. أيًا ما

كان، وسوف ننتصر. لا بد أن نجعل الجيش وكل جندى فيه أن يكون بطلا بمفرده. لا بد أن يكون جيشنا لا يقهر.

لا بد، لا بد، لا بد. ها هو يقول هذه الكلمة كثيرًا. لماذا لا تضايقنى الآن؟

- اتفقنا، قال غاريلاس. أقترح لجنة ثلاثية من أجل المسيرة. سكرتير أنت، وأشار إلى الضئيل التافه. أعضاء: أنا، وأشار إلى نفسه وأنت، وأشار نحوي.

- تعيش يا فاسيلي، قلت له.

تصويت. اعتُمدَ بالإجماع. كانت أقدام الضئيل التافه تهتز كثيرًا. مقلتا عينيه جحظتا مثل قطة فى الظلام.

- قال فانيس بصوت مجروح، لديَ دائمًا الحق فى أن آتِيَ.

- ليس لديك. لقد اتخذنا القرار، قال له غاريلاس.

انتهينا ولم نصل بعد حتى منتصف الليل. يبدو أن فوتيروس سيبقى مع أقاربه، لأن فانيس قال إنه ترك لهم أمر خروجنا. "اثنان كل ربع ساعة كما أتينا"، قال هو ثم أكمل: "فانيس وغاريلاس سيغادران فى النهاية". قال لى فانيس: "خذ الرفيق لينام عندك، ليس لديه مكان ينام فيه الليلة". بعد أن رأى كيف عبس وجهى قال: "لا عليك فهو يعرف البيت، قال له الأصدقاء فى المعهد".

غادرنا كما رتبنا. الضئيل التافه لم يعد يرتدى ذلك المعطف الكريه ولا تلك القبعة. قفزنا فى الترام؛ نزلنا فى بولاق. أخذنا تاكسيًا وصلنا حتى الكازينو عند الكوبرى الصغير. دخلنا من باب وخرجنا من الآخر. حتى إننا لم ننظر على الإطلاق إلى الذين يرقصون على المسرح المكشوف داخل الظلام تحت الأضواء الملونة. صعدنا الطريق بجوار النيل. حتى الآن لم ننطق بكلمة.

ـ قلت له: حقيقة ليس لديك مكان تبيت فيه؟

ـ فقط الليلة. ها ها. علمت أنك بالإضافة لكل شيء عبّرت عن شكوك لأننى لا أقول أين أسكن. سأبوح لك بالسر فربما تحتاجه. أنا لا أسكن فى أى مكان. كل ليلة أختار شخصا وألتصق به، ويعلم هو بالأمر فى آخر لحظة. فلا أتحرك. فهمت لماذا. هكذا تصادف أن أبيت ليلتين عند دورا. من يدرِ فى أى من المرتين رأيتنى أدخل.

لم أنطق بكلمة.

ـ قال فانيس: إنك تجمع أدلة حتى تكشفني. لا أفهمك. هذا يعنى عداء منظما.

لم أنطق بكلمة.

ـ لا تحزن يا صديقي. دعنا ننس ما مضى. الآن لا بد أن ننظر كيف ستتم المهمة. لقد فعلها بى فانيس الملعون.

كانت أصداء قرع أجراس دار المسنين تطن فى أذني.

. قلت له: أتساءل من أين تأتى بهذا المزاج كى تمزح: لو حدث لى ما حدث لك الليلة لم أكن سأستطيع أن أنطق بكلمة.

. ولماذا؟ لقد قمت بمحاولة وفشلت. وماذا بعد؟ لم ينتهِ العالم. بالطبع من الأخطاء نتعلم. سوف أسمع عن غنائم وأبدل طريقي. لكن، على أية حال. أنا ما زلت فى خدمة الحركة. سأكفر عن خطئي. سننجح فى المسيرة، سترى يا سيميونيذيس. وإن حكم الأمر أن أضحى بحياتى من أجل أن ننجح.

. لن تكون وحدك. وآخرون على استعداد أن يعطوا حياتهم من أجل الشرف. لكن أنا أعنى شيئا آخر. سيكون قرار الشطب مكتوبا على جبهتك.

. أهذا ما يشغلك؟ إن الجبال معتادة على الجليد. دعنا نعش أولا. وبعدها، هذه الأمور تنتهى هكذا. مع الوقت تتلاشى، ها ها.

أصابنى بالاشمئزاز. وسعت خطواتى وكأننى بهذا سوف أتخلص من حضوره. كنت طالبًا عندما انضممت للحركة. كنت أنام وأصحو بقلق ألا أرتكب أى خطأ يترك لى أثرًا.

والآن هو لديّ يجلس فى بلكونة الفيلا، متمددًا على الشزلونج المجاور ينظر معى إلى النجوم التى تتلاشى شيئًا فشيئًا. كنت أرى سيجارته المشتعلة تعلو وتدنو بضوئها الأحمر على شفتيه المعقودتين.

. قلت له: فيما يخص ريجو، لم تحسن التصرف.

- أنت مخطئ، لكن أنا أتفهمك. مع الوقت ستفهم أنك كلما صعدت في القيادة كلما زادت الأسرار التي يجب أن تحميها بكل السبل. والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون. وشيء آخر. الجماهير يسمعون عن القيادة والتوجيه ويظنون أنهم يتعاملون مع بشر خارقين. كلما صعدت، كلما أدركت نقاط ضعفهم. ولكن تفهم بشكل أكبر ضرورة أن تحمي وضعهم. لا أقول هذا عن ريجو. لكن أشير إلى نقاط الضعف.

- هل قابلته على أية حال؟

- قابلته.

- هل قلت هذا لفانيس؟

- حتى لا يسأل فانيس لا بد أنه يعرف.

كان يتنفس بجواري وأنا أنظر إلى أرض الدلتا السوداء وهي تتحد مع ظلام الليل. نسيم جاف راح يهب محملا بروائح الروث والعشب الأخضر. لم أشعر اليوم برائحته. في إحدى القرى التي تظهر في العمق كانت الكلاب تنبح. على يساري صفوف أشجار الكازورينا المستخدمة سورًا للفناء تهفهف بلطف خلفها، كنت أعرف أن من هنا يبدأ مرتفع الأهرامات. طيلة حياتي كنت أتوق فقط أن يكون لي الحق في اختيار الأصدقاء بمفردي. لكني كنت أعرف أنه محض حلم، حلم حالم أرستقراطي. لو هجم علينا الإنجليز سأضع جسدي حاجزًا كي ينجو أكثر إنسان كرهت في حياتي. كان هذا هو قدري منذ وطئت أقدامي الشرق الأوسط. عشنا مغامرات

كثيرة، فى أربعاء أغسطس، الإسباني، ألبانيا وتتقاطع طرقنا. هنا كنا نتعثر من البداية. كيف ننجو وقد وضع النضال الأصفاد فى أيدينا؟ كنت أحاول التخلص منه دون جدوى، كان دائمًا يأتى ويعود بى للخلف. القرار المجنون أن أعود إلى اليونان، القرار الآخر أن أذهب إلى الجبهة، كانت كلها تأتى من داخلي، من الرغبة أن أوجد بعيدًا عنه. لكن على نفس السفينة سافرنا معًا، وكان لزامًا أن نحارب معًا كى ننجو من العاصفة التى كانت تضرب ببأس.

النسيم كان يهب من داخل فروع أشجار الكازورينا فيصدر صفيرًا لطيفًا. فى البداية كان الصوت يأتى من بعيد، يزحف مثل أنفاس تتهادى إلى همس فيبقى الصفير فى النهاية، مثل شعار حب فى ريف صيفي. خلف الفيلا، أو ربما خلف الطريق، كانت الديوك تصيح. الهمس فى الأغصان كان يُذكِّر بالطنين الذى يُسمع من القواقع عندما توضع على الأذن. الآن صرت أفرق بين صوت الأمواج وأصوات الغرقى. لو عشت لما بعد الحرب سأضع هذا الصوت فى كتاب وبجواره جمرة سيجارة الضئيل التافه بنفسه، من بداية الكتاب وحتى نهايته.

- بمَ تفكر؟

- أفكر أنه بعد سنوات سأكتب كتابًا وأضعك بمميزاتك القليلة وعيوبك الكبيرة، كى أخرجها من نفسى وأتحرر.

- ها ها ها. بعد سنوات، ستكون قد نسيت كل هذا. لو جلست لتكتب ستنبش فى الماضي. ستصبح شريرًا دون مقابل.

- أشعر كأنك مثل الصفراء تعكر دمائي. لكى أستطيع أن أفكر فيك بهدوء لا بد أن أتمهل. كى أستطيع أن أرقص بك مثل الدراويش. لو عملت فى هذا الكتاب جيدًا وبصراحة، سيؤخرنى جهدي. ستصبح مثل كيان مستقل، بعيدًا عني. ستوجد. كإنسان، سوف أتقبلك مثلما يتقبل المرء المآسى الكبيرة. والطعنة والموت.

- وستذكر الأشياء مثلما حدثت؟

- لا أدري. هذا لا يستطيع أحد أن يتنبأ به من الآن. على حسب ما تدق لى الطبلة سوف أرقص.

- لكنك ستضع الأمور السلبية.

- سأضع الحقيقة، هذا أقوله لك من الآن لأنى أعرفه. سأخلطها بالخيال وفى أشكال لا أستطيع أن أتنبأ بها. لكنى سأضع الظلال. وإلا سأصنع شيئًا مزيفًا.

- هل ستعطى سلاحًا للعدو.

- على الإطلاق.

- ستصبح وحيدًا. عدوك سيضربك وذووك سيرفضونك.

- أنت ماذا ستفعل؟

- ها ها ها. سأضربك بالطبع.

ـ رغم أنك تعرف أنها الحقيقة، أن هذا هو ما اقترفت؟

ـ أنا شيء والحركة أمر آخر. الحركة أحبها، ولن أدعك تضرها.

تثاءبت. انطفأت النجوم فى السماء. بعيدًا فى عمق الأفق، ظهرت أشياء أشبه بخيالات. هل هى نخيل أم أعمدة التلغراف؟ أم صلبان؟

لقد حان الوقت أن ننام قليلا.

(١٦)

كان روبى يعرف ما يحدث فى العالم الخارجى من الصحف التى كان يحضرها له نابليون فى الصباح والمساء. لكن كانت هناك رسالتان وصلتا إلى روبى بقيتا دون رد. لم يعد سليمان. من يدري ماذا فعلوا لهم وأرهبوهم. مشكلة الطبخ تم حلها بشكل أو بآخر بمساعدة الولد وبالنسبة للغسيل كان نابليون يحضر أمه لتقوم به. بين الحين والآخر فى المساء كانت تظهر آريان. ليس من أجل المساعدة. كانت تأخذ أحد المقاعد المرصعة بالحيوانات الخرافية البرونزية، المنتصبة والصلبة مثل مقاعد الأسقفية، كانت تضعه بجوار الفراش وتجلس. هو كان يتصفح كتابًا، كان يخلع نظارته وينتظر. لكن المرأة كانت تصمت. لم تكن تسأل عن صحته، لم تكن تحكى عن الطقس والمعيشة الغالية، لم تكن تشير إلى ما حدث له، لم تكن تباشر أعمال المنزل التى يقوم بها الولد. كانت تأتى وتمكث ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات أحيانًا، ثم تغادر. لم تكن تحيك شيئًا ولا حتى تلفلف أصابعها حتى يمر الوقت. كانت مثالية. كان روبى يشك أنها تحاول بزياراتها الصامتة تلك أن تعيد له كرامته. عندما كانت تشرع فى الرحيل كانت تعيد المقعد إلى مكانه،

تتظاهر بأنها ترتب الغطاء على الفراش، تغلق الباب خلفها برفق وهى تقول "تصبح على خير يا سيد روبرت". كانت تأتى فقط من أجل هذا. راح روبى يتذكر خطاب أوسكار وايلد: "هناك بشر يذهبون للجنة لما هو أقل من هذا". عندما أحضروه من السجن إلى محكمة الإفلاس بين شرطيين. كان روبرت روس ينتظر فى الممر المعتم كى يخلع قبعته بجدية، بينما كان وايلد يمر بالأصفاد فى يديه وهو مطأطئ الرأس.

كيف يرد المرء الجميل للإنسانية عندما تكون لديه منذ زمن قناعة بعدم جدوى الإنسان؟ ذكرى كورت كانت تأتيه ليلا باستمرار وتوقظه. كتفه المعوّج، خطوته الزاحفة، حنجرته المبحوحة كانوا يطردون من الفراش العميق انحناءات جسد أبولونى بخطوات راقصة. كان هذا هو الطريق الآخر، طريق التضحية. لا، لن يمنحهم هذه السعادة بدون إثارة. فى البداية سيقذف فى وجوههم كرهه. كتب ثلاثة خطابات إلى بيتر وأرسلها له مع نابليون. نعم، كان هناك؛ أخذها وأغلق الباب فى وجه الولد مباشرة.

فى الصباح التالى أخبرته الغسالة معلومة من يونس. فى طريقهم كان هناك مخبران سريان من الشوام يسألانهم عن تحركاته. كان يرسل فى كل مرة شخصا آخر بدلا من نابليون، بلبل قوطة، وفلفل. هل كان الولد فى خطر؟ على الإطلاق. لكن هكذا أراد أن يربكهم. كان يونس يتابع الأمر.

إذن شرع ديفيدز فى الهجوم. حرية المعتقد والرأي، كلها أمور رائعة ومقدسة؛ لكنها كانت تابوهات مادامت تأتى على عكس مصالح السادة. روبى وَشَى بكل هذا، كتب إلى "المحارب" ثم أخبر المحليين. كانت هذه هى

جريمته التى لا تغتفر. وإذا طُلب من بيتر سبب أنه يتحاشاه، كان سيختلق له عذرًا. ضحك روبي. وهن الغضب الواعى على الحمق الإنساني. أبيات من الرباعية الأخيرة لإليوت. لم يكن زملاؤه البعيدون فى الجامعة يعرفون مدى الارتياح الذى منحوه عندما أرسلوا له هذه القصيدة فى نسخ كثيرة. تمزَق الضحك عند كل ما لم يعد يسليك. ذهنيًا، فى فراش أبولونى أعاد روبى تمثيل كل ما فعلت وكل ما كان موجودا. الخجل من الأسباب التى ظهرت فيما بعد أو عندما عرف أنه لم يصح أن يفعله أو فعله كى يُضر بآخرين، فكان يعتبره عملا مشينًا. آه، أحيانًا كان يثير إعجاب الحمقى ... من خطأ إلى خطأ. لكن الآن سيتم الإصلاح. داخل النيران المشتعلة كان لا بد أن يتحرك بإيقاع راقص.

لم تكن لديه آلة كاتبة. انحنى على مكتبه فى الليالى الأخيرة وراح ينسخ آخر تقرير له. بعد ذلك وزع النسخ على الأولاد كى يلقوها فى صناديق بريد مختلفة. أرسل إلى اللورد طومسون، إلى جوين وبيتر ونانسى وإلى أكسفورد كوليدج وإلى جامعة الجيزة، ورونالدز نيوز ودايلى وركر، وإلى مايكل نيكلسون وبيرتون والملحق الصحفى فى جاردن سيتى الذى كان يُكن له الإعجاب. خمس عشرة نسخة. أعطى آريان نسخة كى تحتفظ بها، ليس فى درج ستماتيس بالطبع. أما النسخة الأخيرة فاحتفظ بها لنفسه ليقرأها بين الحين والآخر لكى يبتهج.

فى البداية طلب أن يُلغى إعفاؤه "بسبب البعثة التعليمية" وأن يعطوه وسيلة كى يصل إلى وحدته أو إلى وحدة أخرى، لو أن هذا سيختصر

فترة الانتظار. تبعه سبعة وسبعون تباينا حول موضوع "نفاق ألبيون؟".
"بنينا إمبراطورية واسعة ونحن نحمل فى اليد القلم وفى اليد الأخرى المسدس. والجيوب ممتلئة بالمخصصات المالية". هكذا بدأ. وانتهى بالشأن اليونانى وبعدها مباشرة ذكر "نواح كاساندرا". كان نصًا لاذعًا، مصاغ كى يثير ويؤلم، انتفاضة غضب يعبث بقواعد الكتابة والتاريخ. الكولونيل ديفيدز و"أكثر المؤسسات نجاسة فى إمبراطورية محكوم عليها بالفناء والعار" يأخذون نصيبهم. كان روبى ينهيها بوصيته. المنفذ هو اللورد طومسون. الوريث العام هو طلبة بن يونس المحروس الشهير بنابليون، المقيم بالقاهرة، حى باب اللوق، حارة السفنج، الموازى لشارع البلاقسة. يترك لنانسى بورتريه ساباتيه، وهى تعرف أين ستسلمه إذا ما طلبوه يومًا ما. إلى جوين أزرار العقيق، ذكرى للحظة جميلة. إلى بيتر؛ ندما لا مفر منه لدراما الغد لأكثر شعوب أوربا مأسوية. وإلى آريان المبرد. تحت توقيعه وضع "ملاحظات"، مثل، على الأقل، بمثابة ضمانات:

تلك هى النهاية. (توقيع بالأحرف الأولى).

إشارة إلى الكولونيل. أنا، ٢٤. (توقيع بالأحرف الأولى).

الكولونيل. gang Chain.. (توقيع بالأحرف الأولى).

الاستخبارات: بلا تحقيق؟ عار! (توقيع بالأحرف الأولى).

لم أتكلم أبدًا مع سيميونيذيس عن كورت. ولا حتى آنذاك فى الحوارات الفلسفية فى البنسيون، عندما كانوا يسهرون حول قدر الشاى

للسيدة فراو فيلدمان والليل الأخضر المائل للزرقة يحل على أورشليم. كم مرة شعر بإحساسه المأسوى للحياة (لكن هل كان إحساسا متأصلا فى مانوس أم كان يمر بأزمة ما؟) فكر فى أن يكشف عن الصفاء فى العقيدة الحيوية التى تبشر وهى تعرج على رافعة مكسورة، مُريد فان ديرفوجل المتأخر. لكن دائمًا كان هناك شيء يوقفه. مرور كورت لم يغير حياته، فقط أثراها. أول ليلة عند البقال، ظلت تجربة يُعول عليها. كأنه كان يحمل نظارات المسرح المكبرة وجاء كورت وأخذها منه ثم أعطاه لينظر. الوجوه والمشاهد صغر حجمها وابتعدت. لكن الآن صارت الألوان أكثر وضوحًا وحيوية. رؤية الحلم. لم يتبنها. لكنه حفظها فى روحه مثل كنز. مثل ذلك النور الأخضر فى نوتردام الذى غطى قلبه المجروح من التسلق على أعمدة العمارة الجوثية ذات مساء مثل بلسم. مثل ذكرى أصداء الخطوات خارج الزمن فى ورود إيليوت الغامضة. مثل إيقاع الشمس المنتصر بعد عاصفة ممطرة على صفيحة نحاسية لرمبرانت فى متحف برلين. مثل قطرة النشوة داخل غابة حواء المشعرة فى لوحة الحفر الفوتوغرافية اليابانية التى لم يستطع الحصول عليها. مثل تلك الأبدية فى الأكروبول تحت ضوء القمر وأسفله ألفان وخمسمائة من سنوات احتكاك الجسد بالرخام والجير. مثل بصيرة نابليون، سريعة وغير مبالية مثل قوة الطبيعة. كان يحتفظ بمثال كورت للحظة المناسبة. والآن قد غادر سيميونيذيس، للمرة الثانية والأخيرة يفترقان. مهما حزن لن يعيد مرة أخرى الفرص الضائعة. وربما مانوس لم يفهم كورت كما لم يفهمه بيتر. كان بين مانوس وبيتر هذا العامل المشترك: كانا يقبلان بالأمر الواقع. وما أهمية أن تحاربه، أن تدافع عنه أو أن تتعقبه،

لأنك تريد الأول وتفعل الثاني؟ على أية حال أنت تدور فى دائرة جحيمه. لكن كورت جاء ـ وحده، دون أى مُخرج يكتب له الإرشادات. تجاهل الأمر الواقع، وقال "نعم" للحياة. كان يجد السعادة فى الحليب المعقود وفى لوزة مقشرة. كورت والطعام، كورت والألوان، كورت والموسيقى؛ كان دائمًا على وصال؛ الأمر الواقع والقيم المفروضة لم تجد أبدًا شرخا كى تنزلق من خلاله. من الخطوة الأولى نحو فان ديرفوجل وضع الأساس لآخر متعة له: الخطوات الماثلة داخل بوابة من السلك الشائك فى معسكر فى كينيا. تجربته الصوفية داخل حانة البوظة الشعبية كشفت له كيف يقلع نهائيًا عن رواسب الانحياز للقطيع. آخر أعماله كان نصرا ساحقا. لا، ليس كبش فداء، لقد وصفه روبى بشكل خاطئ. ببساطة وصل إلى نتيجة ناجحة للمعادلة الرياضية. نفذ بنود العقد الذى وقعه مع فان ديرفوجل بحذافيره. حساسيته العنيدة المفرطة أبطلت النظام. لم يكن منهم، كان منبوذا باختياره، وقد أثبت ذلك. إنه لأمر غريب أن اللجنة الشعبية فى متاهة الحوارى لم تختطف حياة كورت كى تصنع منها أسطورة. أن تجعل منه قديسًا. ربما لأنه فى تواصله مع الناس كان هناك دائمًا ثمة حجة. كان يمر بجوارهم كمن يسير نائمًا بالليل. كان البشر يجذبونه أو يكهربونه، لكنهم لم يثيروا أحشاءه. كان يسوعًا حصريًا لاستخدامه الشخصي. على العكس من آريان، سيجعلون منها قديسة قبل أن تموت. وربما سيكون هذا أكثر عدلا.

والآن، الآخر، روبي. أمور متواضعة. عندما كان يختبر نفسه فى لحظات صدق كان يجد أمورا ومحاولات رديئة لتقليد كورت. مثل هؤلاء السائحين فى أورشليم الذين يبدأون طريق الاستشهاد المقدس بكثير من

القهر، يرفعون بعض العصى بدلا من الصليب، قبعة من الفل والأعشاب ليرمزوا إلى تاج الشوك. الفارق عظيم. وما السبب؟ السبب هو أن روبى لم يخرج وحده. طردوه. نفوه من النظام بطريقة يستحيل العودة بعدها حتى إن أراد. محاولات التقليد كانت قد بدأت قبل العلقة الساخنة التى تلقاها، بدأت بالزيارة الفاشلة إلى حانة البوظة. وإرسال تقريره الأخير، تحدٍّ ماسوشي. ثورته على الظلم عبر عنها بهرولة مهووسة نحو تدمير الذات. الدوافع؟ بيولوجية، جنسية، نفسية، حسية، أخلاقية. كل مدرسة تحليل ستعطى تفسيرا مختلفا. روبى على أية حال سيضع يده على قلبه ويهمس، أخلاقية. الظلم غيّرَه. استخفاف دورا فى أزقة علاء الدين. زيارة ديفيدز. منذ تلك اللحظة والقدر اتخذ مسارًا آخر. كانت أقوى بكثير وحطمته. "خرج وحده". "من الخارج" سينقصه الآن فقط صفاء الجالسين بفرحة نكران الذات فى القبور، فى قصيدة، من التنوير. دائمًا سيتدخل الغضب والارتباك العاطفي. والدليل أنه يبقى ملتصقًا بشيء أشبه بحبل سرى فى سرة النظام النهم. ليست لديه قوة انعزال كورت المدهشة. لا يعرف، ولا يستطيع أن يصبو بعد إلى أى جماعة مثل فان ديرفوجل. أقصى ما يتمناه هو جماعة لمسيرة اضطرارية. وعليه ألا يفعل شيئا؛ فقط أن ينتظر كى يظهر شيء كهذا.

حسنًا فهو "خرج" ولم "يخرج". لو أُعطيَ قليلا من الوقت هل كان سيفكر بشكل أفضل؟ آه، نعم، كان جميلا كل هذا التعاطف مع البسطاء من الناس، الجدية والتأهب فى عصابة نابليون، احترام آريان الحنون. روبى والناس دون تدخل من النظام بقيمه الزائفة. ربما هذا سيكون طريقًا آخر كى

يصل للذروة مثل كورت. لكن ما الثمن؟ الضوء فى روتردام، شعر إليوت، سماحة ولطف نابليون. ستكون كما لو أنه سيعود إلى كهوف ألتميرا.

شعر إليوت بتماس مع الحركة الرومانسية. قال بيتر هذا ذات مرة. كل محاولة للخروج من دائرة التفكير الواضح توصم بالـ: رومانسية. مانعة صواعقهم: عصا الرعاة. من هنا الخراف ومن الناحية الأخرى النعاج. تفكير وتنفيذ. آه، وَدَّ لو تركوه بعض الأيام ليفكر. بضعة شهور. لديه نسر هو الآخر. ذو الروحين، ليس مثل بيتر، لكنه ذو روحين مثله هو، ولد القرن. لقد خرج كورت بلا أى معضلات درامية، بكل بساطة، بكل ثقة. أما بالنسبة لروبى فبقيَ دائمًا خطر، كان يشعر به بشكل غامض يقترب بخطوات غادرة: الكلب. وسيبدأ فى النباح، فى النباح.... يا سيدة الصمت أنت، ساعديه!

ظل بيتر غير متراجع عن عناده، لكن ذات مساء جاءت دورا. هرول قوطة ليفتح الباب، كان قرع الجرس هذه المرة غير معتاد. حمّلته بالورد الذى جاءت به وأرسلته للداخل ليخبر بمن جاء. قال روبى لآريان: "سيدة ساريذي، من فضلك ابقَيْ هنا فى مكانك. مهما حدث لا تتحركي، ولا تفتحى فمك بكلمة حتى تغادر هذه الملعونة".

كانت دورا قد جاءت لتوها من الكوافير بشعرها المتماوج. دخلت تحرك وشاحها الأسود بتهديد، كانت فى طريقها لتُقبّل روبى لكن منظر آريان استوقفها. نظرت المرأتان كل منها إلى الأخرى بتفحص. التزمت آريان بمكانها. سيدة ناكسوس، من طفولتها. إرث من الجدة وحتى الحفيدة. منذ أن كانت الآلهة والبشر يستلقون على نفس الأسرّة.

- قالت دورا وهى متوترة بعض الشيء، لقد أرسلنى بيتر.

- كاذبة.

-روبي، لماذا لا تكون سبور؟ اطرد هذا التمثال، أريد أن أتحدث معك.

- أنا لا أرى أى تمثال، قال روبى وهو ينظر حوله. أنا أرى العذراء قديسة الكرز وملاكى الحارس. هناك ضرورة. من سيحمينى من الشيطان الذى هجم علينا بلا دعوة؟

- لماذا لا تكون سبور؟ لقد خسرت ودفعت الثمن. وحدك قلت إن الحرب خديعة.

امرأة شيطانة، ولهذا كان يخشاها. كانت عديمة الشفقة وليس لديها أى احترام لما هو مبارك أو مقدس. لا تحترم أى شعور إنساني. عقلها الحاد كان يحصد كل ما يقابلها فى طريقها من أجل طموحها وأطماعها.

- لماذا لم تعرفنا؟ قل لها أن تُحضِر لى مقعدًا من تلك الأنتيكات.

- أتنسين أن رجال ديفيدز يسجلون بالدقيقة والثانية كم تستغرق كل زيارة؟ سيتم التحقيق معك.

- من هذا الـ دايفيدز، قالت دورا وهى تتساءل متوجهة نحو آريان: هل أنت يونانية يا سيدتي؟

لم يتحرك الملاك. كانت رائعة. قوطة كان يحمل الورد ويتابع ما يحدث صامتًا ويزداد اصفرارًا.

ـ كونك لست رجلا، وقد اعترفت بنفسك بذلك. أما عدم كونك جنتلمانًا، كان يجب عليّ أن آتِيَ إلى بيتك كى أتأكد من ذلك.

ـ الجنتلمان لا يدع نساء من نوعيتك يدخلن بيوتهن.

ـ روبي، سأغضب. لماذا لا تكون «سبور»؟ قلت لك إن من أرسلنى هو بيتر كى يعرف كيف أمورك.

ـ هل أخذ التقرير؟

ـ أخذه. وأخذه أيضًا مجلس الوزراء. ضحكت. كان يجب أن ترى مدى رعبهم. كيف؟ إن أسرارنا الآن قد كشفت؟ لو أن الإنجليز انهاروا حينها لن يبقى إلا أن نتجه نحو الأمريكيين. خسارة أن ديديس ليس هنا. كان كل هذا سيعجبه كثيرًا.

ـ من أرسلك يا دورا؟ ألا تفهمين أنه لم تعد هناك جدوى من مراوغاتك؟

ـ جئت من تلقاء نفسي، إذا شئت. جئت كى أقول لك إنه لا جدوى من تعاونك مع اليساريين. ستتحطم ولن يُسعفك أحد. اسمع من دورا التى تعرفك. تعرف كم كلفنىَ تعيين ميتراكيس بالوزارة؟ قربتان من الماء وأربعون قطرة من الليزول.

ـ قال فى نفسه «لديهم هوس بقرب الماء، عندما يتكلمون عن الجنس انتظر كى تسمع عن المطهرات. تقاليد حديثة».

ـ قال لقوطة، اذهب مع السيدة كى تخرج.

ـ ماذا تقول له؟

ـ قلت له أن يخرجك من هنا.

ـ ألا تخجل! قد أحضرت لك الورد.

أخذت الورود من يد الولد وألقتها على الأرض وراحت تدوسها بكعوبها العالية.

ـ قالت، يا ناكر الجميل. يا وقح. نعم، لقد أرسلنى ديفيدز كى أقول لك أن تهدأ وتحذر. لأنك لم تر شيئا حتى الآن.

ـ لم أعد أخاف منكم، قال روبى ونهض وقد عبس وجهه. كل ما تستطيعون أن تفعلوه به قد فعلتموه.

ـ على هذا الجانب فلتتنم، كانت تقول له الآن باليونانية. كما لو أننا لا نعرف ما نقوم به. وأنت أيتها السيدة لا أعرف ما صلتك به، لكن احذري! ستلحق بك المشاكل فى هذا المكان.

لكن آريان لم ترد، لم تكن تسمع، لم تكن ترى. فقط عندما سُمع دوى الباب سألت:

ـ من كانت تهدد هذه العاهرة الحمقاء. هل تظن أن هناك خطرا على ابنى ميخاليس؟

ـ لا تعطها أهمية يا سيدة ساريذيس. هى تقول هذا فقط من فرط غيظها. لكن...

لقد حل الليل. طلب منها أن تغادر وأن ترسل له يونس.

(١٧)

المكتب الثلاثي كان يعمل من أجل إنجاح المسيرة فنيًا وأيديولوجيًا. كانت الخرائط تدرس وتطبع المنشورات ويعمل على تأمين الاتصالات ويوزع الأدوار. كان فانيس يتابع وبين الحين والآخر يلقى بفكرة. كان يقول "لا تضيّقوا الأمور كثيرًا، اتركوا مساحة مرنة من أجل الطوارئ". من ناحية أخرى وفى الحكومة كانت هناك معركة ضارية من الديمقراطيين كى تُلغى المسيرة، وكان الأمر يطول. كنا نقول، "ربما يكون هذا أمرا جيدا". لكن فانيس كان له رأيٌ آخر، كان يرى الجانب الأسوأ: "هذا مكر إنجليزي. من ناحية هم يخدعون الوزراء ويعطونهم الانطباع بأنهم يقررون وحدهم ومن الناحية الأخرى سيمر شهر مايو فى الحوارات العقيمة كى نقوم بالمسيرة فى فصل الصيف". انتهى شهر أبريل، بدأت عمليات التطهير. كانوا يلتقطون المعادين للفاشية بالعشرات ويرسلونهم إلى معسكرات خاصة، إلى أفران السودان أو إلى مستنقعات الكبريت. "هل سنقاوم" تم تقرير أن نقوم باحتجاجات عبر الطرق المشروعة، ولا شيء أكثر من ذلك. بالطبع كانوا يفسدون لنا كل ما نقوم به من أجل الاتصالات، لكننا سوف

نتخطى هذا. معنويات وقناعة الجيش كانتا راسختين وعميقتين. قال فانيس "أفهم خطتهم، فى البداية نزيف الشجعان من أجل التطهير، ربما بنسبة عشرة بالمائة؛ وبعدها مباشرة ستصدر الأوامر بشأن المسيرة. محاولين إبعاد أكثر العناصر وعيًا، أملا فى أن يؤثر هذا على معنويات البقية. إذا لم تنجح المسيرة؟ أسلاك شائكة. لو نجحت؟ ستكون لديهم كتيبتان من الأغنام. لا بد أن طومسون يفكر هكذا، إذا صحت المعلومات التى ينقلونها إلينا عنه".

فى بدايات شهر مايو حدثت لنا خسارة كبيرة. قاموا بنقل مأمور الحرس الذى كان يرتب لنا تصاريح الإجازات، والنقل وما شابه. لتوه لحق أن يزودنا ببعض الأوراق الجديدة. غاريلاس والضئيل التصقا بالكتيبة الثانية، كان يجب أن يغادرا على الفور إلى فلسطين. أنا كانت لديّ ورقة من نوفمبر قبل أن أصاب إلى وحدة المدفعية الحرة الأولى. قُطع المكتب لنصفين. الأولى فى لبنان، كانوا يعدونها نحو الشمال، حمص وحماة؛ ربما سألحق بها أو لا فى حلب. هل كانت المعلومات خاطئة بشأن أن الكتيبتين ستتقابلان فى دمشق كى يبدأ المسيرة من هناك عبر صحراء بالميرا نحو الفرات؟ هل سنستطيع أن نحتفظ بالتواصل أنا وغاريلاس والضئيل؟ إذا صدرت الأوامر بتحرك المسيرة كيف سأتولى هذه المسئولية وحدي؟ هذا ما كنت أقوله لفانيس فى الليلة التى غادر فيها كلاهما.

. الآن ستتظاهر بأنك لا تعرف شيئا. المكتب هو لعمل خاص. إذا لم يحدث؟ المنظمة تعمل. حدثت؟ ستلجأ إلى المنظمة كى تقوم بعملك بنجاح.

كان يحدثنى عن رقيب، "من المنتصرين فى العلمين"، أصيب اثنتى عشرة إصابة، وقد رفض عرضًا ليكون قائدًا مكافأة لبطولاته.

غادرت وحدى بلا رفيق؛ لم أودّع أحدًا، هكذا كان يجب. ربما يكون لدى آريان طرد من أجل ميخاليس، لكنها ستفهم. ستسأل أليجرا عن مصيري؛ ستقول إننى جبان لأنى تركتها وحيدة عندما صارت تواجه المشاكل مع ذى القرون ومكائد ستماتيس. لتقل. ريتشاردز كان معتادًا أن يفقدنى فجأة. من نافذة القطار العسكرى رحت أنظر إلى أحياء القاهرة والبيوت الفقيرة والتراب والملابس المنشورة تختفى بسرعة. مرت بذهنى مرة أخرى الأربعة أشهر التى عشتها هناك، الناس الذين عرفتهم، قصصهم. لم أعرهم الانتباه الكافي؛ دائمًا كان يشغلنى التفكير فى أمور مستقبلية، الغد: اليونان، أو أمور فى الماضي، فى أورشليم وكيفيسيا وفى باريس. كنت دائمًا إما عابر سبيل أو غريبًا. لكن الوقت قد ذهب؛ لن أرى ريتشاردز مرة أخرى، آريان والتوأمتين كى أصلح من صورتى المهتزة التى تركتها خلفى كشخص عصبى ومشوش. فى حلب تنتظرنى مشاكل أخرى. هناك على الأقل سأحاول أن أفعل ما بوسعى كى أتطهر من شعورى بأننى معلق، وأن الأحداث الهامة دائمًا تحدث بعيدًا عني، تحدث فى غيابي. مسئولية نجاح المسيرة كانت تقتلني. أردت أن أتخلص كلية من كل عيوب المثقف.

وصلت إلى حلب عند الغروب؛ قفزت فى كاميون عسكرى وتركنى خارج المعسكر. لم يكن لديّ مزاج كى أتمشى فى المدينة الجديدة بمدارسها ومشافيها وبساتينها، ولا حتى المدينة القديمة بقلاعها ولا الحديثة بشوارعها

المرصوفة، وأزقتها الكثيرة التى على شكل أقواس. حل الليل عندما تقدمت للقيادة. وجوه مجهولة تنظر إليّ باستغراب كما لو أنهم يقولون: "أى مشاكل يبحث عنها هذا. من يقطع إجازة نقاهة لستة أشهر فجأة؟"، شرحوا لى أين تقع وحدتي، أبلغونى بأن تصاريح الخروج ممنوعة، وأنه خلال ساعة سيكون هناك اجتماع للضباط فى منتداهم كى يشاهدوا فيلمًا لتشيبايف. كل هذا حدث بدماثة الزمالة التى بصعوبة كانت تخفى ريبتهم وسوداويتهم. ألقيت بالتحية وخرجت. كانت ليلة مقمرة فتمشّيت بين الخيام وشعرت بداخلى بشيء يتصاعد كأنه موسيقى، شيء مثل أغنية. استقبلوني، أخذت مكانى بينهم؛ كنت أدور لخمسة عشر شهرًا، من وضع الخارج عن القانون إلى المستشفى ومرة أخرى إلى غير المشروعية. استوقفت أحد الجنود وسألته عن مكان وسائل النقل.

لقد وضعوها بعيدًا عند حدود المعسكر مع الملاحات. كنا فى الجنوب الشرقى للمدينة؛ بعد الملاحات كانت تبدأ صحراء تركيا. صعدت على أحد المرتفعات كى أعرف التوجهات. فى أذنّى شعرت بثمة تمتمة، تأتى مع الرياح من الشمال. كان هواء بطيئا مثل أنفاس مريحة ومستوية بلا جسد. إنه هواء الصحراء. يأتى مسافرًا فوق الهضاب وفوق بحر الرمال الملتهبة، أثناء النهار يكون حارقًا كأنه يأتى من فرن مفتوح وفى الليل تأتى الرطوبة فتلطف من حرقته. سيمر على عش النسور وخلكيذا والسلوقى ونيكاتور وإلى أين يذهب؟ غربًا. حيث العمق الذى له لون الفستق الغريب، على حافة الأفق؟ عند تخوم أنطاكية؟ من أجل دافنى القديمة بمعبد أبولون المحروق وقبر فافيلاوس الذى نبشت رفاته؟ كيف وضع الشاعر الأسماء بتباين

فائق الذكاء، التناسق والوحشية كى يثبت مع أى جانب يتجه تعاطفه! قبل عشر سنوات بالضبط. وأى طوفان جاء من ذلك الحين... منذ موت كفافيس وحتى الآن يبدأ قرن جديد. على رأسه كانت بداية السعادة الشخصية بكل الوسائل. وعلى رأسنا جاءت المسئولية، حتى لا تترك خلفك أموراً معلقة.

- ما الأخبار أيها الضابط!

كان ميخاليس الذى علم بقدومى فبحث عني. كان اسمى قد ذهب بالفعل إلى رئيس الرابطة الإنجليزية الذى دعا ضباطه ولم يجدني، لكنه أعطى الـ "أوكي".

- إذن أوكي؟ لنرَ كيف سننجو من التطهير. لكن متى ستلحقون يا صاح؟ الكل متيقظ.

- اللعنة لسنا على ما يرام. الخسائر كبيرة. خسرنا أربعمائة. لكنهم يعملون بالقوائم القديمة، هذا ما استنتجته.

سألت عن الرقيب من العلمين.

- لقد أخذوه بالأمس. حل آخر مكانه.

- أليس هذا سيئًا؟

- لا أدري. انتظر. أظن أنه يحمينى بشكل ما... هل قرأت خطابى عن شخص يدعى بيتر؟

- قرأته. وماذا تسمع عن المسيرة؟

ـ ستحدث. ينتظرون حتى يدفأ الجو حتى لا نتجمد.

ـ لدينا عمل كثير يا ميخاليس. أتعرف، لم يكن لدى الوقت كى أمر على أمك.

ـ حسنًا. أتلقى خطاباتها بشكل دوري. أرادت أن تقول لى شيئا مثل، إن ريتشارد صار واحدا منا، هل تصدق؟ وعن ستماتيس تقول إنها ستعلق له المشنقة من فرط غيظها منه.

ـ واحد منا... بمعنى... أنه إذا ما قبض عليّ سيكون هذا بسبب ستماتيس. لنرَ إلى أين سيذهب هذا الواشي. لكنه لم يتجرأ بشأنك. كان يقول فقط إنك على علاقة بالحشيش.

ـ الملعون، لو أنه أمامى الآن، لدققت عنقه، فعل هذا بكراهية وبطريقة تحدث فقط بين الإخوة فى لحظات الحدة. هنا المقاومون المسلحون هم مهربون. اتفقنا. لكنهم أهل ثقة. تحدثنا واتفقنا. قلنا لهم ألا يورطونا فى تجارتهم. نحن لدينا عمل آخر ولا نريد أن نتورط فى أمور مثل تجارة الحشيش. لو أن لديكم الرغبة فى أن تساعدونا سندفع لكم؛ لكن لا تجلبوا لنا أسلحة، ولا تطلبوا منا أن ننقل لكم أى طرود. وإذا اقترب منكم أى شخص منا عليكم أن تبلغونا حتى نعاقبه. اتفقنا على هذا. حتى الآن هم ملتزمون بالاتفاق. ماذا كنا سنفعل بدونهم فى ظل هذه العزلة التى فرضها علينا الحلفاء؟

توجهنا إلى وحدتى حتى أضع أغراضي. بين الحين والآخر كنا نتوقف ونتحدث فى أمر جديد. لدينا الليلة كلها حتى نتحدث.

عند وسائل النقل كان هناك جندى ميكانيكى درجة أولى، كان الجميع ينادونه عبد المجيد. كانت لغته اليونانية ركيكة. كان هو من يصلح سيارات الجيب للرابطة الإنجليزية ويعتنى بها، بالطبع لم يكن فى خطتهم أن يقوموا بالمسيرة سيرًا على الأقدام. قام ميخاليس بتعريفنا. كان اسمه كالينيكوص بابا كالينيكوص.

- من أين أنت؟ سألته.

- متطوع أنا يا عزيزى من إديسا، أورفا.

- قلت له: تحدث بشكل جيد.

- أنا من أورفا يا عزيزي. سيمساط بلد الفيلسوف جوليان، ألا تذكرها؟ إننا جيران.

معركة كوناكسا، كوماجيني، زيوغما، معركة غوغميلا، أربيلا، السلوقيون، أفاميل. كان يتحدث والقرون تتداعى ذهابًا وإيابًا، اختلط العالم اليونانى مثل كرة من الخيوط.

- هل كنت معلمًا فى أورفا؟

- كنت حدادا، ليست لدينا مدارس، هل تعلم هذا؟

- ولماذا ينادونك عبد المجيد؟

كان هذا اسمى عندما صرت تركيًا، وأنا طفل أبلغ ست سنوات. فى مذبحة ١٩٢٢ حرقوا أبى الذى كان قسًا فى الكنيسة، أمى أخذها إلى الحرملك أحد الجيران. كانت أمي زوجة القسيس، تعلمين فى الخفاء كسنوفون وبلوتارخوس ولوكيانوس، كانت تنحدر من عائلة كبيرة فى مدينة ديار بكر وأنقذت كل كتب أبي. مرت السنوات ولم تتركه يتزوج. كانت تنتظر وتقول له، سيعود اليونانيون. فى عام ١٩٤٢ كتبت له على سترته اسمه الذى عُمّد به وطردته. "اذهب فى رعاية اليسوع والعذراء. إن اليونانيين فى سوريا مرة أخرى"، قالت له. من سيمساط أخذ طريق الفرات وسار. عند مدينة عنتاب اتجه غربًا، عبر الصحراء ووصل إلى حلب.

- وحدك؟

- الآن فهمت لماذا عرفنى به ميخاليس.

- نعم وحدى يا عزيزي. لا تفكر فى الأمر. عندما يكون بداخلك النور، لا شيء بوسعه أن يوقفك. ونحن لدينا النور، أليس كذلك؟

أى نور؟ هل النور الذى جاء به إلى هنا هو نفسه ما جاء بنا نحن إلى هنا؟

- سألته، هل هناك يونانيون آخرون فى بلادكم؟

نظر إليّ بطرف عينه بريبة... ثم قال بعد أن قيّمنى ووثق بي.

- نعم هناك لكنهم لا يتكلمون. ينتظرون.

إلى أين يذهب بى هذا الحكاء. لماذا عندما قال "هناك" اغرورقت عيناي. ماذا يجب أن يحدث لكل هؤلاء الذين اسمهم عبد المجيد وينتظرون؟ لا شيء. لقد شفينا من الأوهام. الحل يوجد هناك فى اليونان. لكن بعد أن تتحرر؛ بعد أن يتركونا نرتب بيتنا بأنفسنا كما نريد. سنجمع كل الـ كالينيكوص. تفضلوا، تكلموا اليونانية حتى تشبع أرواحكم، هكذا سنقول لهم. المسيرة كانت معركة. معركة ضمن معارك كثيرة حتى نصل إلى اكتمال السلالة.

كانت تختلط فى عقلى الرمال وريح السموم والهتلرية بطغيان الإنجليز بحقارة ميتراكيس. اختبار الصحراء قد تجسد. سنحارب جسدًا بجسد.

كان مؤشر درجة الحرارة يشير إلى الثامنة والثلاثين فى الظل عندما أخبرونا أن المسيرة ستبدأ غدًا. التحرك فى التاسعة صباحًا. النهاية فى الرقة. مجموعات فى فيالق من ثلاثين جنديا بكامل عدّتهم وعتادهم بمعنى، الخوذة، الواقي، المعطف، المنظار، حزام الخرطوش، قربة الماء، إناء الطعام والسلاح. ستسبقنا وحدة إعداد الطعام، كل العربات فى نهاية الفيالق. قائد الكتيبة وما أدناه من رتب عسكرية سيذهبون سيرًا على الأقدام. الاطباء على الأقدام، المصابون على الأقدام. فقط السائقون ومن دون مساعديهم ولا أى شخص آخر. صهاريج الماء ستدور عليهم كل ساعة، فى استراحات مدتها عشر دقائق. المسيرة عشرة أيام. متوسط المسافة المقطوعة كل يوم: ثلاثون كيلو مترًا.

قلنا إن هناك خطأ. المسافة بين حلب والرقة هى مائتا كيلو متر. لكنهم فسروا لنا. لن نسير من طريق عنتاب. الكتيبة الثانية ستقطع بعد

قليل المسافة من دمشق - بالميرا - الفرات والتى تزيد على ثلاثمائة كيلو متر فى الصحراء. لم يكن من الرجولة ألا نسير نحن من طريق عنتاب وبعدها نذهب بالتوازى مع نهر الفرات فى الصحراء، اتفقنا، لكن سيكون شرَّقنا وسيعطل "تدربنا على القسوة المناخية". فهمنا الآن. سنتحرك إذن باتجاه الجنوب الشرقى نحو قلب الصحراء، سنترك بحيرة سابخة الجافة شرقًا ونذهب جنوبًا، لكن بميل نحو الشرق كما لو كنا نذهب فى اتجاه بغداد. سنترك أطلال الصحراء غربًا كى نصل إلى تقاطع الطرق فى بالميرا، ومن هناك سنتجه شمالا ولن نحيد عن الشمال حتى نصل إلى الرقة، طريق النصر عند السلوقيين.

كان قائد الكتيبة يشرح بصوت محايد وهو يزيد انحناءه على الخريطة، بينما كان بجواره القائد الإنجليزى بالعلم اليونانى ملتصقًا على جيبه، كان ينظر لنا فى أعيننا ويعذب شواربه شدًا حتى صارت تشبه فرشاة الأسنان. شكرنا، أدّينا التحية بشكل عادى وغادرنا.

- قال الزميل وهو يتنهد، هذه مسيرة موت.

- قال آخر: لقد توقفت مثل هذه الأمور من العشرينيات.

- الهمة يا شباب، سوف ننكل بهم، صاح رقيب فيهم فجأة.

قمنا نحن أيضًا باجتماعنا سريعًا. سيبقى ميخاليس فى نيل الفيلق مع كاميونه، حالفه الحظ مرة أخرى. لكن كالينيكوص كان يقود الصهريج. كان هو من رشحته كى يكون الرابط والرسول بيننا. تم قبوله. طلب الكلمة.

ـ انظروا، قال. لا بد أن تشدوا من أزرهم بأيديكم وليس بأفواهكم. سيروا، هيا بنا، هذا فقط يجب أن تقولوا لهم. وإن أمكن ألا يفكروا فى النتائج الباهرة عندما يصلون، سيكون من الأفضل. يجب ألا يفكروا فى الوطن والأم والزوجة؛ كل هذا مرفوض، هذه الأشياء تقصم ظهر الإنسان. فقط، سيروا، وهيا بنا.

فى الصباح تمدد الفيلق على نحو ثلاثة كيلو مترات، وأخذ يسير على الطريق الإسفلتي. سيارة قائد الكتيبة الجيب واثنان من الشعبة مع الإنجليز توقفوا هناك ينتظرون حتى ينتهى الطابور ليمروا نحو المقدمة. ضباط وجنود عندما رأوا سيارات الجيب زادوا من حدة الأغنية. كانت الروح المعنوية عالية.

المحطة الأولى كانت عند البساتين التى يرويها نهر قويق خارج حلب غربًا. كان الجنود يعرفون ضفاف النهر لأنهم كان يصطادون من هناك خلسة؛ توقفوا على ضفته وراحوا ينظرون إلى المياه التى تتدفق. كنت أحاول جاهدًا ألا أنظر إلى الأشجار، لأننى كنت أعرف أنه بعد ذلك سيأتى الكابوس؛ لكن كانت أشجار الدلب تذكرنى بكفيسيا فخلبت عقلي. رأيت فى الداخل أشجار الدردار والجوز والفستق وأشجار الحور الأبيض مثل تلك التى فى كيفالاري، أشجار زيتون بتجاويف وسفرجل. أرض طيبة مباركة. عدنا إلى طريقنا ونحن نختلس النظر للخلف نحو الجنة التى تركنا خلفنا. الحرارة الشديدة كانت تضرب رؤوسنا مثل الطبول، فأصابتنا بالصمم والعمى. كانت الخوذات تغلى كمقلاة. العرق يسيل. عند الساعة الحادية

عشرة بدأ الإسفلت يغوص. صار المشى مرهقًا والحمل ثقيلا. تحت الإبط صار يؤلم من وضع النظارات. لم يكن يُرى سوى قرب الماء ترتفع. راحوا يصيحون يطلبون صهاريج الماء. لكن الماء أيضًا كان ساخنًا. الفرقة الحرة للمدفعية صارت فى منتصف الفيلق، وهكذا استطعت أن أفهم ماذا يحدث فى المقدمة والمؤخرة. لمسافة خمسة عشر كيلو مترا كان الإسفلت يغلى من الحرارة وهبِّ التراب أيضا. كانت العيون تحترق من الملوحة، لا بد أننا فى منطقة بحيرة سابخة. مر كالينيكوص وقال إن أقدام الكثيرين قد ورمت. وإن أحد الجنود أصيب بالإغماء لكن الرفقاء لم يشوا به، رفعوه بين أيديهم، بعد قليل يقولون سيتحسن. ماذا يفعلون فى هذه الحالة؟ المنطقى هو أن يسلموه. لكن تركت الأمر لمسئول الفيلق كى يقرر. صار الإسفلت يلتصق بالأحذية ونسير به، حتى إن آثار الأحذية باتت واضحة على الطريق الذى صار مثل زنجى أصابه الجدري. عند الساعة الواحدة رأينا أوانى الطعام التى كانت تنتظرنا. الغالبية لم تكن تشعر بالجوع، أرهقنا الحر الشديد. جلسنا على الأرض، خلعنا الأحذية لنهوِّى الأقدام المتورمة. عندما أُطلقت صفارة التجمع كان العدد ينقص عشرة بقوا فى الخلف ينتظرون أن ترفعهم الناقلات. قمت بعملية حسابية سريعة: عشرة، لكن لا بد أن هناك آخرين بقوا بالخلف، قل عشرون، ما زالت لدينا ثلاث ساعات من المشى اليوم، قل أربعون، ثمانون، مائة وستون، المجموع ثلاثمائة. غدًا ستمائة، بعد غد ألف ومائتان، فى أربعة أيام سنهلك جميعًا. غيرت الأسلوب. من سبعمائة من الكتيبة الإنجليزية تحمّل أربعون حتى النهاية. لكن لأننا هنا بصدد يونانيين، قوة احتمال، ثقافة.. إلخ، لنضاعف العدد، أى أحد عشر، اثنى عشر على

الأكثر فى المائة. فى أربعة آلاف؛ ماذا ينتج لنا؟ خمسمائة رجل. لكننا لا ندرى كم يوما استمرت مسيرتهم. ثم إن هؤلاء الذين أحضروهم من عنتاب. أى عنتاب، لى هناك مكان يسمى عنتاب فى فلسطين! توقف عقلي. كنت قد قررت بإصرار ألاّ أرتدى نظارات سوداء لأن أغلب الجنود ليس لديهم مثلها. لكنى كنت أشعر برموشى تحترق من الغبار وانعكاس الشمس، فقلت إنه من الغباء... الملازم بجوارى يسير قابضًا على شفتيه وفى تركيز عميق بدون أى علامة إرهاق. لساعات طويلة لم يكن يسمع سوى إيقاع منتظم لأوانى الجنود وقربهم. نعال أحذيتنا العسكرية امتلأت بالإسفلت وكانت سخونتها حارقة. توقفت الأغاني. على يسارنا كانت تسير سيارات الروابط الإنجليزية قارعة أبواقها بجنون، وكذلك الرسل الذين يكتبون التقارير إلى قائد الكتيبة.

هب غبار كثيف فجأة. انتهى الطريق الإسفلتى ودخلنا فى الرمال. أيهما أفضل أن تتورم أقدامنا أم أن يغمرنا الغبار؟ "سيروا، سيروا". طلب الكثيرون أن ينظفوا الأحذية من الإسفلت. "فى المحطة القادمة. سيروا". "الهمة يا شباب"، صاح صوت. ثم مباشرة علت الاعتراضات: "كف عن هذا!"، "برميل! أيها التركي!"، فى المحطة، جلسنا جميعًا ننظف أحذيتنا العسكرية. الكثيرون كانت أصابعهم تؤلمهم من ثقل الحذاء. قالوا "لماذا لا يدعوننا نسير حفاة."، مر علينا رئيس الرابطة الإنجليزى بشواربه وصاح فينا : "فرى جود!"، قال الملازم، "اللعنة عليك يا ابن الزانية. فى البدء تقتلوننا من التعب وبعدها تقيموننا مثل الخيول فى مضمار السباق". أطلقوا صافرة البدء مرة أخرى. راح قلبى يدق بسرعة بينما كنت أقوم

بعد المطروحين أرضًا. لا بد أنهم كانوا نحو مائة. بعد قليل ظهر برميل كالينكوص يدور على الفيلق. عندما تعرفت على مجموعتي توقفت ودرت عليهم بنظرى وسألتهم "كيف تسير الأمور". أجابنى أحدهم وهو يمط أنفه "لا بأس". "وأنت؟ من الوحدة الأولى يسألون كيف حالك". فهمت. "قل لهم على ما يرام". "لا، ليس هكذا؛ كيف حال رأسك". "اذهب وقل لهم على ما يرام". كنت أكذب. فور أن تركنا الإسفلت بدأت الآلام الحادة. ثمة بريق، ثمة صهيل، أسنان المرضة الصفراء. شربت رشفة من قربتى وانطفأ كل شيء. المهم فى الأمر هو ألا أغيب عن الوعي؛ غير ذلك كنت أستطيع أن أروض الوحش. بقيت لنا ساعة حتى نتوقف للبيات. وكم تستغرق الساعة؟ سأسير هذه الساعة برأسى لأسفل وأقدامى لأعلى. كان لون السماء أبيض رماديا، لون سخيف. الشمس ما زالت ساطعة حارقة، كانت الساعة الرابعة مساءً.

نصبنا الخيام وأعطينا التقرير وتناولنا العشاء وبعدها اجتمعنا اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة. "مر اليوم بشكل مقبول؛ غدًا سيكون يومنا أفضل وعدد المصابين سيكون أقل؛ كما تعلمون كان هذا اليوم الأول". "غدًا سيكون الوضع أسوأ بشكل مضاعف. ألا ترى الشمس؟ ستطيح العاصفة الرملية بعقولنا". الأكثر تعقلا اقترحوا أن نرفع تقريرًا إلى قائد الشعبة ،ويُطلب فيه أن نقوم بالمسيرة ليلا وننام بالنهار. كان هذا هو أملنا الأخير. لكن كيف سيستقبل الإنجليز هذا؟ لنر ماذا سيحدث وبناء عليه نقرر. بعد ذلك غطانا ظلام الليل فى الصحراء والصمت. بينما كنت مستلقيًا كنت أسمع تأوهات التوجع والشكوى من الرفاق النائمين. لا تزال هناك مائتان وثمانون كيلو مترا. لم يكن لديّ مزاج أن أنظر إلى النجوم ولا إلى القمر الذى كان معلقًا فوقنا. عدم مبالاتهم كان لها تأثير سيئ عليّ.

من الفجر أطلقت رياح الشمال الساخنة المريبة صافرتها وغبارها. لكن الجيش استيقظ بالأغانى والمرح. خلال الليل تم توزيع العدد الطارئ من "المحارب" الذى أحضرته معي. كان مكتوبا بأسلوب كما لو أنه كُتب وطُبع فى الصحراء، "أثناء المسيرة". كانت الوجوه مضيئة، عيونهم تنظر إليك ولا تنكسر. كانت شحنة معنوية عظيمة نحتاجها اليوم أكثر من أى يوم آخر. أمامنا كانت الصحراء العارية تتمدد، خلفنا نفس الشيء، لم تكن هناك غير آثار الفيلق التى بقيت هناك محفورة مثل آثار سير ثعبان، مثل أثر نهر جاف لا ينتهى حتى عمق الأفق. ليست هناك دروب، ولا أى أثر لحياة. تلال رمل وتلال رمل أخرى يتصاعد منها الغبار الأصفر حسب مزاج الرياح، حتى الشبورة التى لا تسمح للعين أن ترى ما هو أبعد.

"سيروا". سيارات الجيب أثارت أول السحب الترابية. بعدها تحرك الفيلق. الأحذية العسكرية كانت تغوص حتى الكعب. كنا نسير داخل الغبار الذى كانت ريح الشمال تدفعه، وكنا بدورنا نثير مزيدا من الغبار بسيرنا. "سيروا". قال الملازم بعد أن جاء إلى جواري، "علّنى أرى فأرًا أو سحلية كى تهدئ من روعي". من سريتنا تركنا خلفنا ثلاثة. لم تدخل أقدامهم المتورمة فى الحذاء. لون الشمس داخل الغبار كان أحمر. كلما صعدت الشمس فى السماء كانت رائحة الهواء تشبه البصل المدخن. كان التنفس ثقيلا، الكثيرون كانوا يلهثون بتأوه دون خجل، ربما كانوا يفعلون هذا دون أن يشعروا. "غنوا". بدأوا فى الغناء قليلا ثم توقفوا.

فى المحطة الثانية اشتد الهواء. "سَموم" رياح شرقية جافة، نبهنا كالينكوص أثناء صعودنا. أوقفته. خرجت من الصف ومددت له قربتي. "قل للمسئول من السرية الأولى ألا ينتظر، أن يرفعوا التقرير إلى القائد". عدت إلى الصف. الهواء الجاف راح يلفح وجوهنا. رأيت فتحات أنف الملازم مليئة بالغبار ويسقط منها الدم لكنه كان يجففه على الفور. تشققت شفاهى وكانت تحرقني. كنت أرى أمام عينى مرة أخرى لمعانا كالبرق. ما زالت هناك أربع ساعات. كيف ستمر عليهم؟ حاولت أن أركز فى المشي. جرش الرمال تحت الحذاء العسكرى كان يخدش عقلى مثل ورق السنفرة. شربت ماء. كان العرق يسيل كالنهر خلف رقبتى فيرطب عمودى الفقري. الشمس كانت تدوس على ظهورنا بلا رحمة كى تغرس أقدامنا بكل ما نحمله فى الرمال الساخنة. خلفى كان واحد يشتكى بأن رموشه انقبضت وبقيت عيناه عاريتين. "سيروا". كانت رياح السَموم تهب.

كان الهواء أشبه بغطاء حرارى متوهج يدفعنا للخلف، ليغطينا ويدفننا. "نقالة إلى هنا". لم يسمع أحد. سيارات الجيب كانت تروح وتجيء وتثير المزيد من الغبار والإنجليز يمرحون بشأن الاختبار. يبدو أنهم كانوا يعدون المستلقين على الجانب الأيمن. "فرى جود!" سرنا مطأطئى الرؤوس نفتح الطريق بالخوذات مثلما تفعل التيوس بقرونها. فجأة انهار الملازم دون أن يقول كلمة. "سيروا". كان لدى الانطباع أنه مهما سرنا كنا لا نزال فى نفس النقطة. كل هذا الإرهاق دون جدوى. سواء كنت تسير أم كنت متوقفًا كانت النتيجة واحدة. الصحراء كانت تتبعك. الصحراء لا تنتهي.

فى الظهيرة جن أحد أفضل الرفاق من ثراكيس. كيف استطاع أن يخلع كل ملابسه فى الاستراحة وراح يجرى ويصرخ عاريًا تمامًا فى الصحراء: بحر، بحر! طاردته سيارات الجيب وأسَرَته مثل حيوان برّي، بعد أن أغرقوه داخل سحب الغبار التى أثارتها. ربطوا أقدامه وأيديه ومروا به من أمامنا وهم يذهبون به إلى الناقلات.

عند تناول الطعام أعلن لنا قائد اللواء أنه أوصل الأمر إلى القيادة وسنستمر ليلا، لكنهم طلبوا منه أن يتم هذا بعد أن نكمل الخمسين كيلو مترا. بقيت لدينا عشرة كيلو مترات. "الهمة يا شباب". "امشوا ولا تفكروا" قال لى كالينكوص. بحّت حناجرنا ولم نعد نصدر صوتا. بجهد شديد كان الرجال ينهضون حتى يرفعوا ما يحملونه من أغراض، كانوا يسقطون على ركبهم من التعب. "انهضوا، سيروا".

رياح السموم كانت قاسية. صوت اصطدام آنية طعامى مع قربتى كان يخرق رأسي. غيرت مكانهما. خلفى راحت آنية أخرى تصدر نفس الصوت. أردت أن أقول لهم أن يفعلوا نفس الشيء، فتحت فمى لكن صوتى لم يخرج، تمامًا مثل الكابوس. واحد يجر سلاسل. آخر يجر درعا. هكذا كان يحدث فى القدم عندما كانوا يعبرون صحراء سوريا بالسيوف والغنائم وصليب لورين. "ماذا تظن يا رفيق، نحن أيضًا حملة راية الصليب. لكن الفرق هذه المرة هو أن السبب بالفعل مقدس". مات فى نهاية مارس، وكتب بيرتون نعيا مستفزا. حامل راية الصليب كريستوف دى لا... "مانولي، استيقظ!" لقد غفوت أثناء السير.

تبقت لدينا ساعتان، سنلتهمهما. "هيا، سيروا". ساعتان سنلتهمهما. سنصل إلى الفرات، سنصل. يومًا ما سنصل إلى اليونان، سنعود. سنبقى فى بيوتنا، لن نتحرك من هناك، لن نتحرك، سنبقى فى البيت. ناحية الحديقة نحو أشجار الدلب. "قلت سيروا". ستحضر لى أمى الكريز الحلو، أمي. سيكون الوقت خريفًا، التراب البنى سيغطى الأوراق الصفراء، الطين، الأوراق الصفراء. سيكون الطقس باردا وسأرتعش، سيكون الطقس باردا وسأرتعش. السماء ستمطر، أحيانًا فى بنديلى وأحيانًا فى بارنيثا، ستمطر. "ألقِ عليه مزيدا من الماء، سيسترد وعيه". كانوا يتحدثون عني. أفرغوا قربتى على رأسى ورقبتي. نحن فى محطة استراحة. "كم فردا بقيَ فى الحفل؟"، سألت. "خمسة". انطلقت صافرة الانطلاق. بدأ البعض فى النهوض.

"هيا ما مانولي"، قلت فى داخلى وأنا أنتفض. لكمة فى رأسى طرحتنى أرضا. راح العالم يدور من حولى ويصدر بريقا يعمى البصر. لم يضربنى أحد، انفجر شريان فى مكان الجرح. "أمسكونى وارفعونى من إبطي" رجوتهم. "انتظر" قالوا لي. "انتظر لنرا إذا كنا سنتحرك". الفيلق كان يريد التحرك لكنهم لم يستطيعوا. انتهت القصة. لقد كان جيدًا أنهم تحمّلوا حتى هنا. "كفى" صاحوا فى ذيل المسيرة. من هناك كنت أخشى دائمًا أن الأمور ستفسد. كان هناك من هم أكثر ضعفًا. لكن لا بد. "الجنود اليونانيون، الإخوة، الرفاق..." هكذا كنت سأحدثهم، فقط أريد أن أقف على قدميّ: "إن مسيرة اليوم..."، كفى! كفى! نعم، كفى. بالطبع، ولم لا؟.

ـ لكن لماذا يصيحون؟ قال أحد، فليخرج من الصف.

ـ لم تسمع جيدًا. إنهم ينادون على فانيس، رد عليه آخر.

ـ سألت: أى فانيس، أين فانيس؟

ـ أحد الجنود يتسم بالمرح، قال أحدهم.

ـ سأل الشخص المجاور: وماذا عنه.

ـ هو برئة واحدة.

ـ وهل تحمل؟

ـ اذهب لتراه يا رفيق، لونه وردى وصحته جيدة. قال آخر.

كان حقيقة فانيس. كان على الجانب مع الفيلق فى طريق الصعود. حيوى وفى مزاج رائق ومبتسم. كان يعرج بقدمه اليمنى قليلا ويسحب قدمه التى غاصت فى الرمال، لكنه كان يتعامل مع العرج بمرح، مما جعله يبدو وكأنه يمشى راقصًا. كان الجنود يرفعون أيديهم ببطء ويحيونه بشكل عسكري. كان هو يرد لهم التحية بطريقة تمزج بين الجد والهزل. عندما مر من أمامى أشار لى بمغزى. قفزت كالسوستة. تركت المسافة الاعتيادية وتابعت. كان هو الرئيس، الملازم الحقيقي.

ـ سيروا.

نحن أبناؤك يا اليونان

مجتمعون فى صحراء ما...

أراهن برأسى أن ميخاليس كان يخفيه. لكننا سنتحاسب فى الرقة.

(١٨)

فى مساء الصيف كان الجو حارقًا، جو أفريقى كما يقولون. لكن على الناحية المقابلة للجامع كانت البيوت فى الظل وفى الشرفات كانت ربات البيوت، منهن من تستند بكوعيها على حافة البلكونة تراقب شارع البستانى حتى أعلاه، والتى تجلس برفقة أحفادها، والتى تجلس مع صديقتها يشربان القهوة، والتى تروى أصص النباتات، والتى تنظف قن الدجاج من العنكبوت، والتى تستمتع برائحة البسطرمة التى علقوها بالمسامير ناحية الشرق كى تتشمس. أليجرا المنبوذة أخرجت ذا القرون باكرًا، والآن تجلس خلف كروشيه المظلة التى أخفضتها حتى المنتصف وتنزع الشعر عن أرجلها بعجينة السكر وتغني. كانت الأجواء بينها وبين زوجها مثل الحليب بالعسل.

فى الشارع كان الأولاد يدقون أجراس الدراجات التى استأجروها، الباعة المتجولون كانوا يدخلون ببطء وينادون على الشمام أو الأدوات الزجاجية، الكلاب الضالة كانت تنبح وخلفها يهرول أوغاد الحى حفاة ساخطين يتسكعون ويرشقون المارة ببصاقهم. كانوا ينتظرون متى

سيقع الشيخ سلطم كي يلهوا ضحكًا. لكن الأولاد، مثل سرب النحل كانوا يمرون، ثم يذهبون بعيدًا ويعاودون الظهور مرة أخرى وهم يدقون أجراس الدراجات صارخين. لقد كبروا وصار لكل منهم طريقه.

كانت آريان تنتظر حتى يرفع نيكوس رأسه لتقول له أن ينادى لها نابليون. لقد احتفظت له ببعض من طعام الغداء. لكن الولد كان كأنه يعاند، كلما مر من تحت البلكونة كان يدوس على بدالات الدراجة بسرعة. لم تشأ أن تنادى عليه، مر وقت طويل ولم يُسمع صوتها فى الحي؛ إن الإنسان يتغير مع الزمن.

كان الوقت صيفًا أيضًا عندما خرجوا من المتاهة متعجلين مثل يهود إريتريا يقطعون الطريق على عرضه حتى يصلوا إلى هنا فى بيتهم الجديد. كان ميخاليس يرتدى زى العمل ورأسه حليق يجر عربة يدوية. ستماتيس كان قد هذب شعره جيدًا، وكوستيس كان صامتًا كعادته، لكنه متأهب دائمًا للمساعدة، كانوا يحمون بأيادٍ مرفوعة ثروتهم، ويسيرون على مهل بميل مثل سرطان البحر وكأنهم يساعدون ميخاليس فى دفع العربة. خلفهم كانت التوأمتان، كانتا بنتين صغيرتين بضفائر، فلم تدعهما تحملان أى شيء غير فساتينهما، وبالطبع لم تحملا أى شيء قابل للكسر. فى الخلف كانت آريان تحزم الملابس ونيكوس ذو الست سنوات يمسك بطرف تنورتها. كانت على العربة اليدوية طاولة كبيرة مقلوبة من الخشب الأبيض وضعوا بين أقدامها سريرا متحركا، وأسرّة حديدية من مبيعات حملات الحرب العالمية الأولى وحشيات مطوية وبعض المقاعد غير المتطابقة وقِدر طهو نحاسى وطست،

البابور والإبريق، صناديق وحقائب، الأيقونة مع التيجان فى قفص الكنارى الذى مات منهم. كانت هذه ثروتهم عندما جاءوا والآن انظر. ليكن ميخاليس بخير دائمًا وكوستيس والبنات، وستماتيس ربما أقل منهم، لأنها لو كانت تنتظر من ذيونيسيس أن يملأ لها أركان البيت بالأثاث، لكانت لا تزال مثل الغجر مثلما جاءت بما حملته من المتاهة. تحرسهم العذراء هناك حيث يحاربون فى اليابسة والبحر والسماء - أى سماء، لقد استطاع ستماتيس أن يدخل إلى الأعمال المكتبية واستراح، نسخة من أبيه.

كانت تسير خلف العربة اليدوية بيدين ملوثتين وضفيرتها المفكوكة كانت تسقط سميكة سوداء من داخل قبعتها القش. وكانت كل الجارات مرة أخرى فى البلكونات فرفعت هى رأسها محاولة أن توجه ابتسامة نحو اللائى كن ينظرن إليها ويومئن برؤوسهن. كان نابليون والعصابة صغارًا يحومون حول العربة اليدوية عسى أن يسقط منها شيء يتلقفونه. حينها راح الفحام المعتوه بالقرب من ميخاليس وقال: "حا، حا" وأخرج له لسانه كما يفعل الحمار. آريان بالطبع لم تتمالك نفسها، وضعت الحزم التى تحملها على ماسورة المجاري، يا لها من امرأة مباركة! ومدت كفيها نحوه لاعنة. ضحك الكسالى وعندما حاول الفحام أن يرد، أسمعوه توبيخًا مما رده إلى صوابه. لكن لم تعد أى منهن تنظر من البلكونات بعد ذلك. بعضهن عدن إلى أعمالهن وأخريات رحن ينظرن بعيدًا، علَّ الملك يمر من شارع البستاني، وكأنهن لا يعرفن أن الحرملك كله يقضى الصيف فى الإسكندرية.

كفَا اللعنات والأثاث الفقير ثبطتا حماس الجارات. فلم تأتين ليسألن إذا ما كانوا يحتاجون شيئًا بما أنهم انتقلوا حديثًا. بعد ذلك كن يتبادلن تحيات الصباح وفى السوق أحيانًا كانوا يحدثونها عن الزيت والصابون والبقال المحتال وبائع الخبز. جاءت أليجرا إلى الحى بعد عام، وحتى هى كانت قليلة الكلام فى البداية. عندما خرجت آريان لأول مرة إلى البلكونة تنظر حولها، فهمت أنهم قد بدلوا الحى لكن لم يبدلوا الجارات. لم يشغلها الأمر بتاتًا. ليكن أولادها بخير وهذا هو. نزل ميخاليس بقطعة خبز كبيرة يقطع منها ويضع فى فمه. توقف أمام محل العجلاتى الذى كان منحنيًا يحاول إصلاح السلسلة التى علقت بالتروس، وكان بعض أهل الحى ينظر نحوه. قطع ميخاليس قطعة خبز ومدها خلفه نحو نابليون دون أن يأخذ نظره بعيدًا عن العجلاتي. أخذ الطفل الخبز وأكله فى صمت. أكل ميخاليس قطعته، نثر الفتات، رفع بنطال زيّ العمل حتى لا يعلق وجلس على كعبيه. نظر إليه العجلاتي. فكر قليلا ثم أعطاه الزرادية. شد ميخاليس نحوه الدراجة المستلقية وفى لحظات كانت السلسلة تنزلق على التروس. صفقت العصابة. أعاد إليه ميخاليس الزرادية، مسح يديه فى شعره القصير ثم نهض. عندما يكون لديك أولاد مثله ما حاجتك إلى الجارات؟

هل استاءوا مما فعلته بكفيها لاعنة الفحام؟ لكن آريان كانت تحب أن تنفجر من وقت لآخر. اكتسبت هذه العادات من المصريات؛ طيلة هذه السنوات تعيش بينهن فى حارة ضيقة. "آه، المرأة الوسخة، ألا تستحي!"، كانت تقول أحيانًا عندما كانت تتشاجر إحداهن فتمسك بكوعها وتحرك قبضتها بحيوية من عند المعصم. هذه الإشارة كانت قاسية وقذرة، لكنها

كانت تغار قليلا، لأنه لم يكن باستطاعتها أن تفعل الشيء نفسه خشية أن تخرج عن حدود اللياقة. أو عندما تحدث مصيبة، عندما كانت النساء يرفعن أيديهن ويشرن بالسبابة نحو السماء يُشهدن الرب، ثم يلقينها للخلف مثل أجنحة ويحركن أجسادهن ببطء حتى يصبن من يراهن بالدوار ويرقصن فى يأس.

غابت الشمس خلف البيوت فلملمت أليجرا المظلة؛ كانت قد وضعت المكياج وبدت متأنقة زوجة ذى القرون؛ "إلى أين؟"، أشارت لها. أشارت الأخرى نحو خاتم زواجها ثم رسمت فى الهواء مربعًا بيديها اليسرى، وباليمنى راحت ترسم دوائر كأنها تشغل ماكينة. سيأخذها ذو القرون إلى السينما. دخلت إلى الداخل ونظرت إلى المرآة ثم خرجت ثانيةً. وضعت إصبعها الكبير على جبهتها ومررتها إلى أسفل كأنها تخدش زجاجًا.

- أى أخبار؟

رفعت آريان كفها وحركته كطائر، مثل سفينة تشق الأمواج.

- والإنجليزي؟

فعلت آريان نفس الشيء.

فى الشارع كان العجلاتى بمساعدة الأحول يغلقان الشارع فاتحين ذراعيهما. كانا يوقفان الأولاد بالدراجات. لقد مرت ساعة لكن الأولاد لم تكن لديهم رغبة فى إعادة الدراجات.

- يا نيكوس!

كسر الولد الحاجز خلف فلفل وذهبا إلى الحى الآخر وهما يدقان أجراس الدراجات. رفع العجلاتى عينيه إلى أعلى. كان يضحك. ضحكت آريان أيضًا وأومأت له ألا يقلق فسوف ستدفع له.

كان ثمة شيء يحدث فى شارع البستاني؛ كان الناس يصرخون ويتدافعون. شجار كبير أو مظاهرة. ترك الرجال دكاكينهم والنساء تركن العتبات وهرولن. طرف الشارع كان قد امتلأ بالرؤوس وآريان لم تستطع أن تفهم شيئا. لكن الأمر لم يكن يشبه مشاجرة، فلم تكن هناك حيوية الشجار، رغم أن طربوش الجاويش كان ظاهرًا؛ كان يحاول جاهدًا أن يخترق الجمع ولكنهم كانوا يجذبونه للخلف. النساء كن يصرخن ويرفعن أيديهن ثم يلطمن خدودهن. مصيبة؟ ربما يكونون قد قبضوا على أحد. راح الجميع يصعد الشارع، هؤلاء الذين كانوا فى الخلف كانوا يسيرون بميل ما، وراح هدير الأصوات يذوي. فى الخلف كان يغلب اللون الأحمر، بدت قبعتان. متطوعون فى الإسعافات الأولية يتبعون الجمع فى فضول. نظرت آريان نحو العجلاتى كى تسأله، لكن الجميع كان قد هرول إلى هناك، لم يتبق أحد. الجارات متعلقات بالشرفات يحاولن أن يفهمن شيئا.

- قالت أليجرا، عدام آريان، يونس.

نعم، فى منتصف الناس، رأته؛ فهو أطول منهم. الجاويش يرفع عصاه ويتظاهر بأنه سيضرب؛ البعض جذبوه للخلف والحشود تتدافع

نحو رصيف آريان. لم تر يونس. قالت لها أليجرا التى جحظت عيناها كى ترى أفضل ووضعت يدها على فمها وخرجت من البلكونة فجأة. سوف تذهب كى ترى أفضل من النافذة الشمالية. كانوا يجذبون الجاويش ناحية الجامع يحاولون تهدئته بالكلام وبالتربيت على ظهره. النساء يصرخن فى هلع، كن يسرن فى الأسفل. قفزت أليجرا إلى البلكونة.

- مدام آريان، أغلقى عليك. ادخلى من أجل محبة المسيح!

ساد الصمت. فجأة ظهر يونس تحت شرفاتهم. يرفع نابليون بين ذراعيه. رأسه يتدلى من ناحية ومن الناحية الأخرى قدماه. علامة حمراء تشق بطنه من أقصاها إلى أقصاها. نظر الأب إلى أعلى.

- أم ميخاليس. انظرى ماذا فعلوا بولدي.

وأخذ ظهر هذا الوحش يرتجف من البكاء.

- الصبي، صرخت آريان وأمسكت برأسها.

دخلت: "راح الولد" صرخت أمام المرآة وراحت تشد شعرها. هرولت على الدرج، خُلع من قدميها حذاء المنزل، أخذته فى يدها ونزلت الدرج بقدمين عاريتين حتى وصلت إلى بسطة المنزل. أنوار الشارع زغللت عينيها. ألقت بالحذاء إلى الأرض وراحت تحاول جاهدة أن ترتديه.

- الولد!

- قالت لها امرأة، ولدك مع الدراجة.

همت آريان وصرخت بصوت مبحوح.

ـ الولد. يا للرجل، لقد سوّدوا له قلبه. آه يا يونس!

هرولت. كان الناس يفتحون لها الطريق. أم الولد كانت تمسك برأسه وتسير. كانت عيناه مفتوحتين. كان أمره منتهيا. وضعت آريان يدها على كتف يونس وسارت معهم. هو لم يشعر بشيء، فقط انحنى فجأة وصار يبكى مرة أخرى. أمام البدروم أعطى الولد لأمه وقال لآريان أن تنزل معها، ووقف هو على عتبة الباب كالحارس.

ـ ارحلوا. سأعطيه لكم. أين الذى قتله كى أمزقه؟

بدأت النسوة فى العديد. الزقاق لم يعد يتسع لإبرة. كان يونس يتجاذب هو والشيخ الذى لم يتركه ينزل. كان الناس يصبون لعناتهم على سائق العربة وصاحبها.

ـ قال يونس، الإنجليز هم من دفعوه لأن يفعل هذا. أنا أعرف. واحد منهم قال لى ذلك.

ـ اللعنة عليهم، ألم يشبعوا دماء؟

أم الولد كانت منحنية على الحصيرة تنظر إليه ولم تعرف من أين تبدأ. نزلت آريان على الأرض فى أحد الأركان وتركت آلامها تخرج.

ـ سيدة، نادى عليها الطبيب من النافذة.

ـ لقد مات الولد، قالت له وهو يقترب. ليست هناك حاجة.

- أعرف. لكن لا بد أن يسلموه. هذا هو القانون.

- ليس هذا هو الوقت، لن يسلمه. من الأفضل أن ترحل قبل أن يراك. سيرتكب جريمة.

- لقد رآني ولم يقل شيئا. تحدثي معه أنت أيضًا.

- دعه في ألمه الآن. دعنا ندفن الولد مثل الناس. في هذه الحالة يمكن أن تحدث مصيبة في ثانية، ألا تراه؟

- صحيح، قولي له إنني سأكتب ورقة من الصيدلية إلى السلطات تفيد بأنه كان حيًا عندما جاءنا. إذا سألوا إذا كان قد مات في البيت. سأتولى أنا أمر الأشخاص من الإسعافات الأولية، إنهم معارفي.

- جُزِيت خيرًا أيها الطبيب، قالت آريان.

- إن هذا سيفتح له أبواب العمل.

- دعك من هذا الآن أيها الطبيب. إن الرجل يتألم.

- أما عن سائق العربة فهو مؤكد، لقد رآه الصيدلاني. شد اللجام فجأة وعاد للخلف. داس عليه بالعجلات. كانت داخل العربة ابنة الباشا وقد أغمي عليها.

- لديهم خلافات قديمة. لقد فعل ذلك كي ينتقم.

ـ ربمـا. رغـم أنـــه... لقـد قـال الـدكـتـور ريـتـشـاردز شيئًا فـى هـذا الـخـصـوص...

. من الأفضل ألا تقول له. إنه أب، ويمكن أن يأتى بأى فعل جنوني.

. كما تبغين يا سيدتي.

عادت آريان إلى رفات الصبى مع باقى النساء. كان البدروم لا يتسع لهن، فكرن أن يصعدن إلى السطح لكنهن خشين أن ينهار بهن. جلسن إذن على جانبى الزقاق، بعد قليل أُغلق الممر من الازدحام، فكان المارة يعبرون من فوقهن بعد أن يلملموا جلابيبهم والنساء يطأطئن رؤوسهن ويشحن بوجوهن بعد أن يغطينها بأوشحتهن. عندما جاء المكفن وبدأوا فى حمل الماء الساخن، طلبوا من آريان بأدب أن تخرج. خرجت وذهبت عند الطرف الآخر جلست مع الجارات وراحت تهز جسدها وتتمتم ببطء. "طلبة"، كانوا ينادون على الصبي، "أين أنت يا عيوني؟"، أحيانًا كانت أمه تتناسى وتناديه بشكل آخر: "نابليون، أين أنت يا أسدي، خسارة، خسارة!"، راحت النساء اللائى يرتدين الملاءات السوداء يصرخن وأخذت الولولة الإيقاعية تعصف بقلب آريان. جاءها نيكوس وكانت عيناه متورمتين ليذكرها بأنها قد تركت المنزل مفتوحًا، لحسن الحظ لم يدخله اللصوص. ماذا سيحدث الآن؟ كان الولد يحاول أن يتكلم بصعوبة بشكل سليم، لكن العويل جعله يبكي. لقد أرسلته شقيقتاه ليأخذها.. كانت تدفعه بيدها مبعدة إياه.

قامت عند الفجر؛ ذهبت لترتدي ملابس سوداء. كانت ساقاها ترتعشان من الإرهاق وذراعاها يؤلمانها، كل هذه الساعات كانت تجلس على الأرض الرطبة. نيكوس كان نائمًا. لكن ذيونيسيس والتوأمتان كانوا جالسين حول الطاولة بملابس النوم. صنعوا له شراب التيليو المغلي. جحظت عيناه الضعيفتان من لعب الورق، وظن أنه بهذا يرهبها.

- الأخت الرحيمة، قال لها بسخرية.

تظاهرت بالصمم. دخلت إلى غرفة النوم وفتحت خزانة الملابس. وجدت تنورة سوداء من التايير لكن أين الجاكيت؟

- أمي، عَمّ تبحثين؟ سألت أورانيا من الخارج. لماذا لا تنامين كي نهدأ نحن أيضًا؟

- كان لديك قميص رمادي، هل تخلصتِ منه؟

- لماذا تريدينه في هذه الساعة؟

- من أجل المقابر.

وقفت أمامهم ونظرت إليهم بالترتيب.

- أمي، يا للفضيحة، قالت كاليوبي بعد أن قفزت من مكانها.

- صرخ ذيونيسيس وهو يضرب بيده على الطاولة، أنا أمنعك.

- ما هذا، تقول مقابر!

هل ستخرج عن طورها ولو مرة واحدة؟ لتقول له كل شيء أمام البنات وأمام الولد الذى أيقظه صياحه؟ يعتبر من عائلتك الذى ينام معك، لأن أوراق الكنيسة تقول هكذا، أم من تشعر بأنه قريب من قلبك سنوات وسنوات؟

ـ اسمع يا ذيونيسيس. إلى هنا والتزم الصمت. لو فتحت فمى لا أدرى ماذا سيحدث. سأذهب، هذا واجب عليّ. إذا لم يعجبك فطلقني. ولو صرت جارية سآكل خبزًا أحلى من خبزك.

ـ طلاق، قال هو وهو يُشهد البنات عليها. قولا شيئا لها لقد جُنت.

ـ قل إننى جننت. وأنت، قالت موجهة كلامها إلى أورانيا، لماذا لا تتكلمين؟ ألم يحملك بين يديه وذهب بك إلى الصيدلية؟ هل تعرفين أنه على نفس الفراش المشمع مات الولد؟ فحصه نفس الطبيب. هل تظنين أنه قد ينسى هذا وهو فى مصيبته؟ وإن كان قد نسي، هل أستطيع أنا، لأن هذا لا يعجب أباك.

ـ لكن فكرى فى كلام الناس يا أماه، قالت كاليوبى وهى ترجوها.

ـ أى كلام أيتها الغبية، يا ناكرة الجميل؟ من أين تظنين أننا جئنا؟ تزوجنى أبوك وأنا جارية، وبقيت هكذا وكذلك هو، جارسون. هل نسيت أين ولدت؟ هل نسيتِ رائحة الطين العفن حيث تربيتِ؟ أنا ما زلت أسير وأحترس من العارضة فى منتصف الغرفة حتى لا تقطع قدمي، وإن كنا قد انتقلنا منذ سبع سنوات إلى هذه الشقة المبلطة.

بكت أورانيا وبكى نيكوس. قال ذيونيسيس "اللعنة"، دفع عنه التيليو وراح يبرم شواربه. صمتوا جميعًا. أغلقت آريان عليهم مفتاح الكهرباء. لقد حل الصباح. قالت لنيكوس أن يعود إلى نومه، لكن الولد لم يستمع لها.

- هل ستمر الجنازة من أمام المنزل حتى يراك كل الحي، سألت كاليوبي.

- آه يا ابنتي، كم أننا بعيدتان أنا وأنتِ؟ هل هو عيب أن تقومى بواجبك وليس عيبًا عندما كنت أسرق من البقال والخباز والخضرى حتى تكبروا...

- لا تقولى هذا سيصدقونك يا أمي!

- لقد جننت، أقول لكم، قال ذيونيسيس نادبًا.

دخلت أورانيا إلى غرفتها. بعد قليل كانت أمام الباب بقميص موف فى يدها.

- هل هذا يناسبك؟

- حمدًا للرب، قالت آريان.

- سأعطيك نقودا، على الأقل من أجل التاكسي، قالت لها كاليوبي. إن مقابرهم بعيدة جدًا، لا داعى أن تتعبى كثيرًا من المشي. واجبك تقومين به على أية حال.

- إنك لم تفهمى شيئًا يا ابنتي، قالت لها ثم ارتدت ملابسها أمام الصبي.

وجدت الحذاء الأسود الذى نُحِل عند الكعبيْن، وجدت إيشاربًا رماديا فلملمت فيه شعرها. استعدت للمغادرة.

- انتظرى يا أمي، سآتيِ معك، قالت أورانيا.

- وأنا، قال نيكوس وهرول كى يبدل ثيابه.

وقفت تنتظر مولية ظهرها نحو المهزومين الذين التزموا الصمت.

وصلوا عندما ظهر النجار بالصندوق الخشبى وصرخات الأم وولولة النساء تشتد قوة. ذهب نيكوس واندس وسط صحبته؛ كانوا يقفون بعيدًا شاحبين ينظرون. لم تجرؤ آريان أن تجلس على الأرض لأن أورانيا كانت ستفعل مثلها. قالت لها أن تستند بظهرها على الحائط وتنتظرا ماذا سيحدث. كان يونس مع الرجال على مبعدة؛ كانوا يحدثونه وهو لا يستمع، يحرك رأسه كأنه فى حالة نعاس. اقترب جندى برأس حليق وحذاء عسكرى لامع من آريان. مد لها يده.

- أم ميخاليس، ألم تتعرفى إليّ؟

- آه نعم. حسن بن يونس، قالت لأورانيا. هل تذكرينه؟

- لا، قالت الفتاة بعد أن احمرّ وجهها. قبل سنوات كانت قد اشتكت لها من حسن، حيث كان كلما رآها فى أحد الأزقة كان يرفع جلابيته، ويُظهر لها من أين يأتى البيبي.

ـ يا للمصيبة يا بُني. أحسنت صنعًا بمجيئك، قالت له. ماذا عن بقية إخوتك؟

ـ لا أحد. لا نعرف أين يسكنون حتى نخبرهم.

ـ أنت، ألست أنت الرابع؟

ـ أنا رقم خمسة، قال حسن ونظر إلى الأرض، إذ كان الضحك يُداهمه.

ـ أحسنت صنعًا، قالت آريان مجددًا. سيكون هذا مواساة للأم.

ـ أنا أخشى على يونس، قال الجندي. كان يحب هذا الولد.

طلبت المكفنة من الوالد شالا أحمر أو طربوشا كى تضعه فى مقدمة الصندوق. سأل حسن لو كانت قبعته العسكرية تصلح. لكن يونس قال أن ينتظروا ونزل إلى القبو. فى الأسفل، كانت الأم تلطم وجهها وتنادى على الولد صارخة بشكل مؤثر، فقد أخذوا الولد من بيتها. نهض الجميع. الأحول مع سلطم هرولوا للأمام، هم سيفتحون الطريق بالترتيل. خلفهم دخل الشيخ مع حسن وباقى الرجال. بعدهم دخل الأولاد بعد أن أرسلوا نيكوس إلى أمه فى الخلف. بلبل رفع الكتاب ملفوفا بمنديل؛ كان الوحيد من العصابة الذى يذهب للمدرسة. ظهر يونس بالصندوق. ربط على العارضة الأمامية قبعة موالد مصنوعة من الورق. وأيضًا إطار الدراجة المرقع وغمد حربة صدئة من الحرب الأولى، كان هذا هو الزى الرسمى الذى يرتديه الولد فى الأحداث الطارئة كى يبرر كنيته. وضع يونس الصندوق على رأسه ومضى. أسرعت الأم خلفه وقد شدت خلف عنقها منديلا باذنجانى اللون

وهى تصرخ باسم الصبي. اندست آريان وهى تدفع أورانيا بين النساء وأخذت نيكوس فى يدها. قبل أن يخرجوا إلى الشارع رأت الأم حفرة مليئة بالطين. جثت على ركبتيها وأخذت حفنتين ووضعت على رأسها وخديها. كانت النساء الأخريات يجذبنها رغم أن بعضهن توقفن وفعلن نفس الشيء.

خرجت الجنازة من الشارع وقطعت الطريق إلى الحى الآخر.. نوافذ آريان كانت موصدة. لكن فى الشرفات الأخرى خرجت الجارات. آريان لم تلتفت لتنظر نحو أليجرا. فى البناية الكبيرة التى يسكن فيها السيد روبرت راحوا يكسرون الأطباق والأباريق. تراتيل الأحول وسلطم بأصواتهم الرفيعة الطفولية وصراخ النساء بمناديلهن النيلية كانت كلها مثل طنين وحشى يأتى من غابة من الأيادى المرفوعة، والتى تسير بسرعة كأن صوت الأباريق المنكسرة يطاردها. ها هو دكان البقالة الذى يملكه كاكاليذيس مفتوح. بجوارها كان نيكوس يسير مرفوع الجبهة. صعدوا ثم نزلوا والآن سينحرفون عند نهاية طريق الترام عند الدواوين. حينها تبدل الترتيب. فى الأمام مع الأحول وسلطم كان يونس يرفع التابوت فوق رأسه. فتح خطوته، كان الطريق طويلا حتى مقابر السيدة زينب.

دخلوا فى أحياء عربية. لم تكن هناك قبعة واحدة ولا لافتة بأحرف أجنبية. عالم هادئ وبطيء ومألوف. منازل قديمة، مقاهى واسعة، أشجار قديمة مورقة، بعض الصنابير للذكرى، يمكن أن تقول بأننا نحن اليونانيين أينما نكون نجلب لهم الحمى والحكة. كان يونس يسرع متعجلا، لم يبد عليه التعب ولو قليلا، الطابور خلفه بدأ يتقلص. النساء صرن يلهثن، لم

يتبق لهن نفس للصراخ والعديد. آريان وابناها كانوا فى حال أفضل. فى هذه الأحياء التى يمرون بها كان الناس يتعجبون للحظات من وجودهم فى هذه الجنازة، لكن أحدًا لم يقل شيئًا. كانت قبعة المولد تثير تعجبهم أكثر من وجودهم.

بدأت المنازل تقل بعد ذلك، خرجوا نحو طريق ترابى فكانت الشمس تضربهم بقوة. كان يونس لا يزال يتقدم المسيرة بالصندوق. "عطشان"، قال نيكوس متنهدًا. "اصبر" قالت له آريان وهى تشد على أصابعه المتعرّقة. شعرت بحذائها يحترق من المشي؛ كان أحد الكعوب أو النعل على وشك أن ينتزع . لحسن الحظ فكر يونس وحده وتوقف تحت شجرة الجميز. كان هناك صنبور لأجل أحد أوليائهم، مصنوع من الرخام والفسيفساء. وضع الميت على الأرض، أخذ الكوب النحاسى وشرب. خلفه كان الجميع، رجال ونساء كانوا كلهم عطشى وجلسوا تحت ظل شجرة الجميز حول الجثة. راحت النساء تعدد على الولد ثانية، فإذا بيونس يرفع الصندوق على رأسه ويتقدم. كان انعكاس الشمس يعمى العيون. لكن سريعًا وصلوا إلى المقبرة، وضعوا الطفل بسرعة وفقط. ليرحمه الرب. فرحة الحي، فخر أبيه وأمه المسكينة. كان يطوف القاهرة كلها بقدمين حافيتين، كما لو كانت كل المدينة له، كما لو كان كل العالم ملكه.

فى طريق العودة أعطوا لحسن القبعة وهو لم يعرف كيف يمسكها.

مرت على آريان أيام عديدة حتى تعود لطبيعتها. ربما يكون من الإرهاق، أو الحزن. كان عقلها مشوّشًا، كانت تبدأ فى عمل ما ثم تنساه بعد

قليل. وصلتها ثلاث رسائل دفعة واحدة، وكان لا بد أن تجد وقتًا، وعقلا كى تجيب عليها. "وصلنا إلى الجحيم"، كتب ميخاليس. كان كوستيس يقول أيضًا أن حياته جحيم على السفينة الحربية. كان ستماتيس فقط هو من يعيش حياة ساحرة، "فى بلاد الألماس"؛ هناك أرسلوه للخدمة مع سلاح الطيران، للتدريب؛ من المفترض. "نساء جوهانسبرج شقراوات وطويلات. هنا تعرف النساء كيف يعشن. والمحليون هم فى الطبقات الدنيا". كتب لها هذا كى يثيرها، لكن ستعطيه الإجابة المناسبة فور أن تجد الوقت لهذا.

بيت ممتلئ والحرب أفرغته. متى سيعود كما كان. كاليوبى كانت تلمح باحتمالية زواجها من زميل لها، وأورانيا كانت تتساءل إذا كان صحيحًا أن تسكن معهم. ستماتيس كان من الصعب السيطرة عليه. كوستيس سوف يتزوج بسرعة، كان جادًا دائمًا. وميخاليس سيذهب لليونان ليكمل ما قد بدأوه. لم يكفها ما بها من دوار، هبت رائحة عفنة من إسطبل الباشا، اللعنة عليه وعلى البذرة التى بدأت هذا السلسال الملعون! ستبقى وحيدة تربى نيكوس وتعتنى بذيونيسيس العجوز. المال؟ انتهت الأيام الجميلة فى شارع الجامع.

يقول، الرقة ما بين النهرين على الضفة الأخرى من الفرات. بعد مسيرة كادت تهلك الجميع. من السيئ إلى الأسوأ. من الصحراء إلى السهوب. بحر رمادى أصفر موجه يصل حتى مد البصر، كلها حشائش برية رفيعة مثل بوص طويل يصل طوله إلى مترين. مليئة بالسحالى التى تشبه التماسيح الصغيرة؛ ثعابين سامة؛ ذات الأربعة والأربعين، عقارب

كبيرة مثل الفئران؛ عناكب مشعرة. "عضُّوا شبابا كثيرين هنا والألم غير محتمل. جروحهم لها رائحة عفنة. وعدنا مانوس بمائدة من لحم الطيور فور أن ننجو من هنا، ونعود إلى القاهرة كما يقول. الفرات يا سيدة ناكسوس ليس كنهر النيل؛ لا توجد فلوكات ولا أشرعة، يصنعون طوافات من أخشاب متضخمة، يضعون خيمة بدائية فى المنتصف ويذهبون. نراها من بعيد تمر وهذه هى المتعة الوحيدة لنا هنا. يقول فانيس إننا لا بد أن ندرك المغزى. من اختبار إلى اختبار ستكون حياتنا، نضال مستمر؛ كلما نقول إننا قد انتهينا سيبدأ الأمر من جديد. علينا أن نعى هذا ولا نتطلع إلى الأوهام. سيروا، كما يقول شخص أصلع هنا. ليست هناك حاجة للنصح. سنقاوم يا أمى بأظفارنا وأسناننا حتى يأتى الضياء". حتى يأتى الضياء! المساكين يحاربون، إنهم يناضلون، يقاتلون من أجل أن يأتى على العالم يوم أفضل. لكن هناك من يُدعى هتلر يلعب بعقل من هم على شاكلة ثيموستوكليسن، يجد من هو على شاكلة مستر براون، ويطوق من هم على شاكلة وأشباه ذيونيسيس، وتأتى امرأة مثل د. ميتراكيس وتضع فى سروالها من هم أشبه بالضئيل السمج. وهذا ما يفسد العمل ويجعلنا نبدأ من البداية مرة أخرى. إلى متى؟

ما إن وجدت الورق الحبر حتى جاءها سلطم. كان معه ولد دميم وجهه مليء بالثآليل، يبدو أنه جديد.

- سعيدة يا أم ميخاليس، قال لها الآخر.

كم هو بغيض مثل صوته. لماذا جاء به إلى هنا؟

اسمه مرسي، قال الآخر. لكننا نناديه نابليون.

هكذا يفعل الأعمى دائمًا. لم يكن أخرق، ودائمًا يفعل ما برأسه دون أن يسأل. كان يجب أن تطردهم. رسالة ميخاليس أولا. لا بد أن تكون جاهزة فى حالة إذا ما مر الرجل ليأخذها. لديها الكثير لتحكيه له. لكن لماذا ينادونه باسم المرحوم...

كان الصبية قد جلسوا بالفعل على بلاط الأنتريه. الدميم كان يقلب حزمة من علب السجائر مثل الكوتشينة. أحضرت لهم القليل من البازلاء المطحونة بدون زيت وقطعة من الخبز القديم. بقيت لديها دون أن تعى وجودها.

ـ قال سلطم، إن سائق العربة هرب إلى قريته.

شعرت مرة أخرى بتلك الغصة فى قلبه وبنفس الدوار.

ـ دعك من العربة. هل لديك قصة تحكيها؟

تصنع الدميم الضحك كى يبرر وجوده. يا له من بغيض، يا للعذراء.

بدأ سلطم يحكى إحدى رحلات السندباد فى بحور إنجلترا؛ غرق ووجد نفسه فى أحد الكهوف التى إذا ما دخلها أحد يدور ويدور ولا يستطيع الخروج. فى الكهف كان يعيش وحش وأخطبوط بأجراس يأكل البشر. كانت ابنة هارون الرشيد أعطت السندباد خصلة من الخيوط...

شيء لا يُصدَّق! أين يجد هذا الضرير كل هذه القصص؟

٩ أغسطس ١٩٦٢

تمت

الكاتب فى سطور :

الأديب اليونانى الكبير: ستراتيس تسيركاس

. ناقد وشاعر ومترجم وقصصى وروائى ممن يعتز بهم الأدب اليونانى الحديث فى مصر واليونان.

. ولد عام ١٩١٢، بحى عابدين بالقاهرة.

. أنجز الدراسة بالقسم التجارى «بالمدرسة العبيدية» بالقاهرة عام ١٩٢٨.

. عمل بمحلج للأقطان فى ديروط بالصعيد عام ١٩٢٩، وترك ديروط عائدًا إلى الإسكندرية عام ١٩٣٩.

. استقر به المقام بالإسكندرية حتى غادرها إلى أثينا عام ١٩٦٣.

. توفى فى ٢٧ يناير ١٩٨٠.

. أشهر أعماله الروائية «مدن جامحة» التى صدر الجزء الأول منها بعنوان «المنتدى» فى يناير ١٩٦١، والجزء الثانى بعنوان «آريان» فى خريف ١٩٦٢، والجزء الثالث بعنوان «الخفاش» فى أكتوبر ١٩٦٥. وقد

ترجمت الثلاثية إلى الفرنسية عام ١٩٧١، وحصلت فى العام التالى على جائزة أحسن كتاب ترجم إلى الفرنسية.

- كما ترجمت الثلاثية إلى الإنجليزية عام ١٩٧٤، ثم إلى لغات أخرى. وقد لقيت نجاحًا كبيرًا، وصدرت منها عدة طبعات.

. من أعماله الروائية أيضًا «نور الدين بومبة» عام ١٩٦٥، و«الربيع الضائع» عام ١٩٧٦.

. من أشهر مجموعاته القصصية «أناس مزعجون» (١٩٤٤) و«أبريل أشد ضراوة» عام (١٩٤٧) و«نومة الحصاد» (١٩٥٤).

. من أشهر دراساته الأدبية «كافافيس وعصره» (١٩٥٨) وقد حصل عن كتابه هذا على جائزة الدولة فى اليونان.

. من أشهر دواوينه الشعرية «الفلاحون» (١٩٣٧) و«الرحلة الوجدانية» (١٩٣٨) و«الوداع قبل الأخير، وموشحات التأبين الإسبانية» (١٩٤٦).

. كتب ونشر أغلب أعماله بالإسكندرية.

المترجم فى سطور :

خالد رءوف :

- مواليد الإسكندرية - جمهورية مصر العربية .

- درس الآثار اليونانية الرومانية بجامعة الإسكندرية وجامعة أثينا.

- درس اللغة اليونانية فى جامعة أثينا، وحصل على دبلوم الترجمة من نفس الجامعة ، كما حصل على دبلوم فى الترجمة من مدرسة الاتحاد الهلينى الأمريكى .

- درس اللغة الإيطالية فى مدرسة KAPATO وحصل على شهادة في اللغة الإيطالية المعتمدة من جامعة روما .

- حصل على إجازة الماجستير والدكتوراه بمرتبة الشرف من جامعة شيكاغو فى تاريخ الفن الكلاسيكى (اليونانى / الرومانى) .

- ترجم من الإنجليزية إلى اليونانية (الحب الأول) لصمويل بيكيت، والتى قام بعد ذلك بإعدادها للمسرح الشاعر اليونانى ثانوس ستاثوبولوس، ثم ترجمها من اليونانية إلى العربية لفرقة ART SYNDYCATE والتى شاركت بها الفرقة فى مهرجان المسرح التجريبى فى عام ٢٠٠٤ .

- ترجم من الإنجليزية إلى العربية مسرحية تينيسى ويليام (الحيوانات الزجاجية) لفرقة المدينة للفنون الأدائية والرقمية .

- ترجم بعض قصائد لـ "أونجاريتى" من الإيطالية إلى العربية .

- ترجم بعض القصائد للشاعر اليونانى نيكوس كافافيس من اليونانية إلى العربية .

- ترجم مختارات شعرية للشاعر اليونانى الكبير يانيس ريتسوس من اليونانية إلى العربية، صدرت عن دار جدار للثقافة والنشر .

التصحيح اللغوى : وجيه فاروق

الإشراف الفنى : حسن كامل

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية